أرض البطولات

تأليف

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثالثة

١٥- ٥ - ١٩٩٤م

دار الأدب الإسلامي

ص.ب ٣١١٠ ليماسول قبرص

هاتف ٣٦٧٤٠٠ ٥ ٣٥٧ فاكس ٣٦٩٣٣٦ ٥ ٣٥٧

مقدمة الناشر

نحمد الله حمدا كثيرا على نعمه أن يسر لنا السبل لخدمة الإسلام ولغة القرآن راجين من العلي القدير أن يمدنا بالعون لمتابعة العمل في مجال الأدب الإسلامي .

كما نرجو أن نكون قد وفقنا في ما قدمناه بالكتب السابقة منذ أن بدأنا وتحملنا مسؤلية نشر وطباعة مؤلفات الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا رحمه الله بما فيها كتاب أرض البطولات الطبعة الثالثة ، الذى يحكى احدى أروع قصص كفاح أمتنا العربية المسلمة ضد المستعمر الغادر في سوريا ، وقد قمنا بعمل بعض التعديلات الفنية فى الإخراج عن الطبعتين السابقتين ليظهر الكتاب كما رغب المؤلف رحمه الله أن يكون وليتوافق مع اسلوبنا ومنهجنا فى العمل الإسلامي الجاد الصادق ان شاء الله .

كما أننا نتقدم بخالص الشكر والعرفان لدار غريب للطباعة والنشر – القاهرة والقائمين عليها وجميع من ساعدونا على اتمام الطبعة الثالثة ، وفقهم الله الى كل ما يحبه ويرضاه .

قارئي الكريم نشكركم على اختيار أحد منشوراتنا ونطلب منك العون بإبداء الرأى والتنبيه لأي خطأ قد يرد أو أي أفكار أو تعديلات لكي تعم الفائدة والله من وراء القصد.

الناشر
يمان عبد الرحمن رأفت الباشا
رضوان عبد الرحمن رأفت الباشا

التعريف بالكتاب :

الطبعة الأولى نشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٦١ . تقرر تدريسه في الصف العاشر من المدارس الثانوية . وهي قصة فازت في مسابقة وزارة التربية والتعليم .

الطبعة الثانية نشرته دار الشروق بمصر .

الطبعة الثالثة تتشرف دار الأدب الإسلامي بنشرها .

موضوع الكتاب :

قصة الكفاح المستمر ، الذي بذلته سورية منذ احتلالها بالجيوش الفرنسية عام ١٩٢٠ ، حتى خروج جيوشهم مدحورة مذمومة عام ١٩٤٦ وعدَّ يوم انسحابهم ١٧ نيسان يوماً تحتفل به البلاد حكومة وشعباً من كل عام .

المؤلف :

الدكتور/ عبد الرحمن رأفت الباشا : ولد عام ١٩٢٠م في بلدة أريحا شمال سوريا وتلقى دراسته الابتدائية فيها ثم تابع دراسته في حلب وتخرج من المدرسة الخسروية وهي أول مدرسة شرعية رسمية في سورية وأكمل تحصيله في مصر ونال الشهادة العليا من كلية أصول الدين في الأزهر الشريف وشهادة اليسانس أيضا من كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول وعاد إلى سورية فالتحق بوزارة التربية والتعليم واشتغل مدرسا للغة العربية ومازال يتفانى في عمله مخلصاً في أدائه على الوجه الأكمل ما أمكنه حتى اختير مفتشاً للغة العربية ومن ثم كبير المفتشي للغة العربية في دمشق .

ثم نال شهادة الماجستير من جامعة القاهرة وعاد للعمل مديرا للمكتبة الظاهرية المنبثقة عن المجمع العلمي العربي في دمشق وأستاذا محاضرا في جامعة دمشق ثم نال شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة .

ومن ثم انتقل الى المملكة العربية السعودية للتدريس في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وقد شغل منصب رئيس قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي وكان عضوا في المجلس العلمي في الجامعة وعهد اليه بالإشراف على لجنة البحث والنشر التابعة للمجلس العلمي .

ويغلب على أسلوبه تأثره بالثقافة الإسلامية واللغوية واضحاً جداً أما غليان الروح الوطنية فيه فأنها تتراءى وراء كل حرف من حروفه ناراً تتوهج . ولعله تأثر فيها بطول صحبته للزعيم المجاهد المرحوم «سعد الله الجابري» . ولا غرو فهو من الجيل الذين عاصروا أحداث هذه القصة وعاشوا أيامها ساعة ساعة ..

حيث أنه صرف جل حياته في خدمة لغة القرآن والأدب الإسلامي ، ومع أنه رحمه الله لم يكن هو أول من دعا الى ايجاد هذا الأدب فقد سبقه الى ذلك كثير من المفكرين والأدباء الإسلاميين ... وهو رحمه الله يعترف بذلك ويقر بالفضل لأهله (أنظر كتاب نحو مذهب إسلامي في لأدب والنقد) ، لكنه أستطاع أن يجعل أماني أولئك العلماء حقيقة واقعة ، فقد سعى رحمه الله لايجاد عمل موسوعي يخدم الأدب الإسلامي ، ويكون لهم بمثابة الخلفية التاريخية ، والقاعدة التي بنهض عليها بناءه ومن هنا ظهرت فكرة عمل «موسوعة أدب الدعوة الإسلامية» الي قامت باصدارها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وأشرف عليها بنفسه رحمه الله حيث كانت نتاج مادة البحث لطلبة السنة النهائية بكلية اللغة العربية وصدر منها ست مجلدات ، وقد قام –وحده رحمه الله – برسم منهج إسلامي في لأدب

والنقد ، وتبنت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية هذه الفكرة الرائدة ، وأوسعت لها في المحاضرات الجامعية حتى قيض لمادة «منهج الأدب الإسلامي» أن تقف على أرض صلبة قوية ، وقد أسهم رحمه الله اسهاما فعالا في تأسيس «رابطة الأدب الإسلامي» برئاسة فضيلة الشيخ «أبو الحسن الندوي» واختير نائبا لرئيسها .

كما شارك في العديد من اللجان والندوات ، التي أقيمت في مناسبات مختلفة وناقش وأشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه .

توفى رحمه الله في فجر يوم الجمعة ١٩٨٦/٧/١٨م في مدينة «اسطنبول» وسجى جثمانه بجوار شهداء القسطنطينية بمقبرة الفاتح حيث يرقد كثير من الصحابة والتابعين الذين أحبهم كثيرا وعاش معهم بقلمه وفكره في حياته وجاورهم في مماته .

المقدمه

هذه القصة جذوة من كفاح شعب ، وقبسةٌ من مناقبه ، وومضةٌ من بطولاته.

كتبها الشعب السوري المؤمن بشفرات السيوف وحبَّرها بزكِي الدماء.

ليس فيها من خيال القاصِّ إلا مايقتضيه البناءُ الفنيُّ للحوادث ، ولا من خلْقِ الكاتب إلا ماتستدعيه طبيعة العمل القصصي لتطوير الوقائع.

فزمانها : هو ربع القرن الذي أعقب الحرب العالمية الأولى وذاقت فيه سورية من ويلات الاحتلال الفرنسي ماذاقت .

ومكانها : هو تلك الربوع الشامية التي كافحت الغازي المحتل كفاح المؤمنين الصادقين حتى هوى على كل ذروة من ذراها صقْر رافع الرأس مبسوط الجناحين .

وثوى على كل شبر من ثراها شهيد مضمَّخ بطيوب المعارك .

وأشخاصها : مواطنون معروفون منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ..

فأمُّ عُبَادَة : هي « أم عبدو » تلك المرأة الفقيرة المجاهدة التي عرفتها دمشق إبَّان الاحتلال الفرنسي وروت كثيراً من بطولاتها .

وزكريا أفندي : هو السيد «زكريا الداغستانى» ذلك المواطن الدمشقي الكمي الذكي الذي يعيش بيننا وفى خياله ذكريات عطرات تتألق بسنا المجد .

وعبادة : هو ذلك الفتى الباسِلُ الذي أطلقت عليه «دمشق» لقب الشهيد الحي بعد أن نجا من مجزرة مجلس النواب بأعجوبة .

أمَّا إبراهيم هنانو : فزعيم من زعماء سورية المعدودين وقائدٌ من قواد جهادها الغُر الميامين .

وبعد ، فقد كتبت هذه القصــة بلغة فصحى ليكون في ذلك بلاغٌ لأولئك الذين جعلوا يشيـعون بين الناس أن هذا الفنّ من القـول لايَسْلَسُ إلاَّ للعاميـة ، ولايؤدى إلا بها .

هذا ، وإني لأرجو أن تغدو هذه القصة صفحةً من سفر تاريخنا الحديث الذي ننشُدُهُ ، ووسيلة لتعريف أبناء وطننا الكبير بالجهاد الأبيّ الصعب الذي اضطلع به إخوةٌ لهم في سورية حتى حققوا استقلالهم العتيد ، وفازوا بحريتهم الغالية ، وطهروا أرضهم من رجس الغزاة .

والله من وراء القصد فهو الذي يُسدِّدُ الخطا ويهدي الى سواد السبيل .

عبد الرحمن رأفت الباشا

الفصل الأول

كان الليلُ ساجياً ساكناً كأنّما أغمضَ جفنيه على حلم لذٍّ طويل ، وكانت الأنسامُ النديّة تداعب ذوائبَ الأشجار ، فتعطفُها ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمال ، وعرائس الحوْر تقف بقاماتها المَمْشوقَة صفوفاً بين يديْ «قاسيونَ» ، تسكب في مسمعيه أعذَبَ ماوعتْهُ الطبيعةُ من ترانيمَ ، وأغْصَانُ الصّفصاف تتدلى على ضفاف «بردى» ، لتبْترِدَ بمائه السلسبيلِ ، والقمرُ يقطعَ كبدَ السماءِ في رحلته الأبدية ، فتمتزج أشعته بأريج السّوسَنِ والنّسْرين، لتَكْسوَ الغوطة الفيحَاء غُلالَةً سداها النورُ ولُحمتُها الأَرَجُ والعطور .

وكانت دمشقُ الخالدةُ تهجَعُ في أحضان هذه الفتنة الحالمة يغنّيها «بردى» أعذب ألحانه ، وتُحَلّيها الغوطةُ بأبهى أزهارها ويجللُها التاريخُ بردائه الضّافي العَريق .

فلقد آن لمدينة السادة البهاليل[1] من بني أميةَ أن تُسْلِمَ جَنْبَيْهَا إلى الراحة بعد أن أنقض ظهرها الكفاح ، وأن تذيقَ جفنيها لذّةَ الغُمْض بعد أن قرّحهما السُّهْدُ ، وأن تنْعَم بنور الحرية بعد أن عاشت في ليل داجٍ ، غَشِيَتْهَا خلالَه ظُلُماتٌ بعضُها فَوْقَ بعْض .

فمنذ أشهرٍ معدودات وضعت الحربُ العالميةُ الأولى أوْزارَها ، وخرجت منها «دمشق» مزهوةً بالنصر الذي أسهَمَتْ في تحقيقه إلى جانب الحلفاء ، مُسْتمْسكة بما قطعه هؤلاءِ لأبناءِ قومها من عهود ، فرحةً بالاستقلال الوليدِ الذي ظفرَتْ به بعد طول عناء .

---

(١) البهاليل : السادة الجامعون لكل خير ، وهو جمعٌ مفرده بهلول .

وقامت فيها حكومةٌ من أبنائها ، تؤمن بالله ربّاً وبالعروبة نَسَباً ، وبالأرض الممتدّة من المحيط إلى الخليج وطنًا . وحسبَتْ «دمَشقُ» أنّ الدهر سوف يذيقها شهده طيّباً بعد أنْ جرّعها صابَه[1] وعلقمَهُ سنين طوالاً ، وأن الحياةَ بسَمَتْ لها بعد طول عبوس ، وأنَّ نحسها قد لَمْلَم أذياله ورحل عنها إلى غير أَوْبَة .

ولم تكن المدينة العريقةُ تعلم أنَّ القدر يخبئ لها بين طيّاته أحْداثاً جِساماً ، وأنّه يريد أن يَبْلوَهَا بطامعٍ جديد غريب الفكر والوجه واللسان ، ولاغرْوَ فكم من حسناءَ جرَّ عليها حسنُها ضروب الأذى وصنوف البلاء ، وكم من شوهاء عاشت قريرة العين هادئة البال ، وكم من أرض مخصبة أشبعها المِحْراث شقاً وتجريحاً ، كلما انْدَمَل فيها جرحٌ نكأ[2] آخر ، وكم من أرض مجدبة عاشت آمِنَةً مطمئنةً لم تَمْسَسْهَا يد بسوء .

كانت المدينةُ هاجعةً وسْنى ، وكان مجلسُ الوزراء في المهاجرين سهرانَ يقظاً ، وكان الناس ينعمون بأحلامهم الخُضْرِ ، بينما كانت أسلاك البرق المُمْتَدَّة بين «دمشقَ» و «عالية» في «لبنان» ترتنح تحت وطأة الإنذار الذي وجهه الجنرال « غورو » قائدُ الجيوش الفرنسية في الشرق إلى الحكومة العربية في «سورية» .

ولو علمت المدينة المناضلة مايحاك لها في الخفاء ، لتجافَتْ جنوبُ أبنائها عن المضاجع ، ولهبوا مذعورين من هول مايتربّصُ بهم من شر .

ولاحت تباشير الفجر ، ووقف المؤذنون على منارات جامع بني أمية الثلاث ، ورفعوا رؤوسهم نحو السماء ، ومدوا أصواتهم حلوةً مجلجلة بهذا النداء العلوي العذب :

---

(١) الصاب : شجر مر ، وهو جمعٌ مفرده صابة .

(٢) نكأ الجرح : قشره قبل أن يبرأ .

حيَّ على الصلاة حيَّ على الصلاة ، حيَ على الفلاح حيَ على الفلاح .

وتجاوبت مآذن المدينة الخالده مع هذا النداء القدسي فرددته هي أيْضاً ، وانسابَتِ الأصواتُ المؤمنة إلى القلوب كما انسابت إلى الآذان ، فأيقظت هاجع النفس بعد أن أيقظت هاجع الجسد .

وخرج الرجال من منازلهم ينفَحُونَ الأزقة الملتوية الضيّقَةَ بعبَقِ تسبيحهم ، وتوجّهُوا إلى المساجد القريبة من بيوتهم يؤدُّون لله ما في أعناقهِم من حق ، بينما كانت النسْوةُ يؤدِّين الفريضة في المنازل .

وما إن قُضيت الصلاة ، حتى أخذ الناس يَسْعَوْنَ في الأرض يبتغون من فضل الله، وبرزت الشمس من الأفق الشرقي ، وكأنها على موعد مع الصِّبيَةَ من باعة الصحف الذين أخذوا يثبون على الأرض وثباً كأنما وضع في جيب كلٍّ منهم مئة ثعبان ، وينهبون الشوارع والأزقة نهباً كأنما يعدو وراء كلٍّ منهم فارس يلهب ظهرهُ بالسِّياط ، وهم ينادون بأصواتهم المذعورة :

– فرنسا تنذر الحكومة السورية .

– جيوش « غورو » المعسكرة في «لبنانَ» تهدد باحتلال «دمشق» .

– الحلفاءُ ينكلون بعهودهم .

– الحكومة تُعدُّ العدة للقاء العدو .

وانتزع الناس مافي أيدي الباعة من صحف ، ووقفوا جماعات جماعات يلتهمون بعيونهم عناوينها المفزِعَة ، ويقرءون ما أثبت فيها من بنودِ الإنذار الخمسة:

أوَّلاً : أن تضع الحكومة السورية الخطَّ الحديدي الممتد من « ريَاقَ» إلى «حلبَ» تحت سيطرة الجيوش الفرنسية ، وأن تسمح باحتلال حلبَ احتلالاً عسكريّاً .

ثانياً : أن يتم تسريح الجيش السوري تسريحاً تامّاً ، وأن يُلْغى التجنيدُ الإجباري.

ثالثاً : أن تقبل البلادُ الانتداب الفرنسي قبولاً مطلقاً .

رابعاً : أن تعترف الدولةُ السورية بالنّقد الذي صَكَّه الفرنسيون وأن تُحِلَّه مَحَلَّ نقدها.

خامساً : أن تنزِل الحكومة السورية العقاب الصارم بخصوم فرنسا من أبنائها ، وأن تُنكِّل بمن يثبت عداؤهم لها .

قرأ الناس ماقرءوا وعرفوا أن الجنرال « غورو » قد حدد للحكومة يومين اثنين لقبول بنود الإنذار كلها ، أو رفضها كُلِّها ، وأنه ترك لنفسه حقَّ التصرف في حال الرفض ، وسرى الخبرُ بين الناس كما تسري النار في الهشيم ، وخرج الشعب من بيوته الآهلة كما تخرج الأُسْدُ من غيلها[1] ، وسالت الشوارع بالناس وهم يهللون ويكبرون ، واستحالت الأصواتُ الناعمة إلى هدير كهزيم الرعد ، وانقلبت المدينةُ الوادعةُ إلى عرين يعج بالضياغم[2] ، والتفتت الجموع الثائرة تبحث في كل مكان عن أيِّ سلاح تصد به الطغاةَ الغُزَاةَ .

فقد كان الناس جميعاً يعلمون أنَّ حكومتَهم الناشئة لاتملك من العدة والعتاد ماتدفع به غائلة العدو المجتاح ، وأن جيشَهم الصغيرَ لايضم من الرجال مَايدْرأُ به جيوش فرنسا .

فبرز فيهم جماعات تريد أن تجاهدَ في سبيل الله بأموالها وأنفسها ، وجماعات أخرى تريد أن تجاهد بأنفسها لأنها لاتملك فَضْلاً من مال .

وجماعات ثالثة تريد أن تجاهد بأموالها لأنها لاتملك فَضْلاً من قوة أو شباب .

وتجمعت لهذا الشعب في هذه الساعات الحاسمة مآثره كلها ، وتراءت أمام أعينه المواقع التي خاضها عبْرَ التاريخ ، وصمم على أن يواجه جيوشَ فرنسا مهما تكن النتائج .

(١) الغيل : موضع الأسد ، وهو مفرد جمعه ، أغيال .

(٢) الضياغم : الأسود ، وهو جمع مفرده : ضيغم .

هو إذا لم يُكْتَبْ له شرفُ النصر ، فسوف يكتبُ له شرفُ الاستشهاد .

علها أول مرة في التاريخ ينهَدْ فيها شعب ليلاقيَ عدواً وهو يعلم أنه لاقبَل له
ـ فيها أمة لتحارب خصماً وهي تدرك أنه أعظم منها بأساً وأشدُّ قوة ، وتقرر
ومة أنْ تخوضَ الحرب لتبرئ ذمتها أمام الأبناء والحفدة ، ولتقول لهم :

، ضعف صاحب الحق لايمكن أن يحول دون دفاعه عن حقه ، وإن الحياة
تنا أنَّ الطيورَ على وداعتها لاتُسْلِمُ أعشاشها للعابثين دون مقاومة ، وأن
ـ على قلة حيلتها لاتعطي أوْكَارَها للصائدين طائعة مختارة .

بنما كانت جموع الشعْب تتجه نحو روابي «ميسلونَ» حيثْ تقرر أنْ يُقامَ
اع عن «دمشقَ» كان قائدُ الجيش السوري قد أنْجزَ ما أعده من خطة للقاء
أقبل يودّع زملاءه الوزراء ، ويصافحهم واحداً واحداً .

ا هم بمغادرة القاعة متوجهاً نحو الميدان ، شدّ على يد واحد منهم كانت
أواصرِ الصداقة وهمس في أذنه بصوت خافت وهو يقول:

صيك بطفلتي الوحيدة خيراً .

م يملك هذا إلا أن ردد في صوت خافت أيضاً :
بْطل ؟! رأى حماه يوشك أن يُستْبَاحَ فعزم على أن ينتحر .
اكاد آخر شعاع من أشعَّة شمس ذلك اليوم يُلقي على الأرض تَحيةَ
حتى كان رجال المقاومة الشعبية وجنودُ الجيش يعسكرون على ربى
» ويترقبون مطلعَ الفجر ، حيث يستوفي الإنذارُ أجلَه ، وينهض الحقُّ
ماء الباطل المسلح .

طقة «ميسلون» هذه ثغر حصين أبدعته يد الخالق بدقة وإحكام لتدافع به
شق» ، ومعبرٌ ضيق يكنُفهُ عن يمينه جبل شامخ الذُّرى ، ويكنُفهُ عن

شمَاله مُرْتَفَع وعرٌ المرتقى ، وينبسط قبلَهُ من جهة «البنانَ» سهل رحب فسيح ، وتمتد بعده طريق مؤَدّية إلى «دمشق» .

وكان لابد لمن يريد أن يبلغ بنت «قاسيون»[1] من جهة «لبنان» من أنْ يجتازَ هذا المسلَك الذي يحميه ذانك الجبلان . وكانت الخطة أن يُزرَعَ فم وهذا الممر بالألغام لتنفجر في وجه دبابات العدو ، وتحولَ دونَ تَقَدُّمِهَا نحو «دمشق» .

وأن تُنْصَبَ المدافع القليلة التي يملكها الجيش العربيُ على الذُّرى ، وأنْ تُصَوَّبَ فوهاتها نحو المعبر ، وأن يَعَسْكِرَ المجاهدون على المُرتفَعات والسفوح ليحصدوا برصاص بندقياتهم كُلَّ جنديّ يهم بالعبور .

* * *

أمضى المجاهدون في «ميسلون» ليلة في العراء ، اجتمع لها أشتاتٌ من الناس ، فيهم العالم والجاهلِ ، والنابه والخاملِ ، وفيهم السّري والسُّوقة والرئيس والمرؤوس ، وفيهم الريفي الذي يبري بظُفْره القَلَم ، والحضري الذي يَستخشن مَلْمَس الخزّ ، والمُترف الذي لم يبت ليلة بعيداً عن فراشه الوثير ، والكادح الذي لايعرف للراحة طعماً .

ومع هذا فقد بدَوْا وكأنهم إخوة أشقّاءُ أنجبهم أبٌ واحدٌ ، وولدتهم أمّ واحدة، ودرجوا في بيت واحد ، فلقد آخى بين نفوسهم شرفُ الجهاد ، ووحد بين قلوبهم سموٌ التضحية ، وجمعت بين مشاعرهم وَحْدَة الهدف ، فغَدَوْا إخوةً متحابين قد نزع الله مافي قلوبهم من فوارقَ باطلة ومظاهر زائلة .

وغابت في تلك الليلة الألقاب والأوصاف، وحلت محلها الأسماءُ والكُنى ، وشعر كل مجاهد منهم أنه أقربُ إلى أخيه المجاهد من أمه وأبيه وزوجه وبنيه ، وبرزت في المعسكر أسماء لم تكن من قبل شيئاً مذكوراً وكان من بينها اسمُ «أبي عُبَادَة» .

---

(١) بنت قاسيون : كناية عن دمشق .

و«أبو عُبَادَةَ» هذا شـابٌ ريفي من قـرية « حـرَسْتَا »[1] لم يجاوز الخامسةَ والعشرين من عمره ، مُكتَمِلُ الشباب ، مشدودُ الإهاب ، مفتول الساعدين عريضُ المنكبين ، وَضَّاحُ الجبين ، لوَّحَت الشمس وجهه فطبعته بطابع الرجولة ، وأذاب العملُ شَحْمَهُ ولَحْمَهُ فاتسم بميسم الرَّشاقة ، وقد لفَتَ أنظارَ المعسكر إليه أنَّه كان دائم الحركة لايفتُر ، دائبَ الدوران لايهدأ ، يزوِّدُ هؤلاء بالماء إن أُعوزهم الماءُ ، ويرفد أولئك بالطعام إن أبْدَوْا حاجة إلى الطعام ، ويضع لهذا حجراً ليتكئ عليه ، ويمهد لذلك التُّربة ليهجع لحظة على أديم الثرى .

وكان يخص بعونه هذا أبناء المدينة ، لعلمه أنهم أقلُّ تَمرُّساً بالتقشف من أبناء الريف .

ولم يكن «أبو عبادةَ» إلاَّ صورة لكلِّ واحد من هؤلاء المجاهدين الذين أُتاحت لهم هذه الفرصة أن يذوقوا لذةَّ الإيثار ، ومَكَّنَتْهم هذه السانحة من أن يَنْعَموا بنعمة العطاء والبذل ، فغمرهم فيض من السلام النفسي ، بدا على قسمات وجوههم ، وظهر على حركات جوارحهم .

وأغلب الظن لو أن امرءاً غريباً مرَّ بهم ولم يُلْقِ بالاً إلى مدافعهم القليلة المنصوبة هنا وهناك ، ولم يلتفت إلى بندقياتهم المختلفة الصُّنْعِ لحسب أنَّهم أهلُ مدينة خرجوا يحتفلون بعيد من أعيادهم .

* * *

انقضى الهزيعُ الأخيرُ من الليل ، وأقبلت طلائعُ الفجر تنفُضُ على الأُفُق الشرقي أَلْوانَها الهادئةَ ، وبدأت مؤشرات الساعاتِ تَمْشي ثقيلَةَ الخُطا بطيئةَ الحركة نحو الأجل المضروب ، ووقف الكُماةُ الأُباة في مرابضهم العالية يُشْرِفون على الطريق

(١) حرستا : إحدى قرى غوطة دمشق الشرقية .

المؤدية إلى «دمشقَ» من جانبيها كليهما ، ويضعون أيديَهم على الزّناد ليمطروا الغُزاةَ وابلاً من رصاص بندقياتهم ، وكانوا يعوّلون أكثَرَ مايعوّلون على مازرعوا في الممر من ألغام .

وماهو إلا قليل حتى حان الأجل ، وزحفَ الجيشُ الفَرَنْسَي بمئة ألف من جُنْده شاكي السلاح ، تُمَهدُ لهم المدافع الثقيلةُ بقنابلها ، وتتقدمهم الدبابات الضخمة بقذائفها ، وتحميهم الطائراتُ التي غطت سماء الميدان.

ودارت بين الفريقين رحى معركة ضروس ، أبدى فيها الصِّيد الكُماةُ من حفدة بني أمية وأبناء صلاح الدين ما أذهل الجيش الجرار وذهب بلبِّ قادته . ووقف «يوسفُ العظْمَةُ» بقامته الممدودة وسط المعركة يُضْرمُ نارَها ، ويلْهِبُ أوارها فيما كان «غورو» قابعاً وراء أسوار قصره في «عالية»[1] .

وانطلق صوت البطل الخشن الأجش يلقي الأوامر فلا تكاد تنفصل عن شفتيه حتى تغدوَ أعمالاً تَنَفَّذُ .

ولكنَّ القدر وقف لـ«دمشقَ» بالمرصاد ، فلم تنفجر الألغامُ التي زُرِعَتْ في طريق الدبابات.

وشاهد القائدُ الفارسُ بمنْظاره المكبِّر إحداها تعبر الممر الضيق دون أن يَصُدَّهَا عن غايتها شيءٌ ، وأبصر وراءها ثُلّة من الدبابات تقتفي أثَرَ الأولى ، فهاله الأمر واندفع نحو السفوح تحت وابل من رصاص جنده وقذائف عَدُوِّه، وهو يريد أنْ يفجِّرَ الألغامَ بنفسه .

وماكاد يبلغ مُستقَرَّ الوادي حتى عاجلته شَظيَّةٌ من قنبلة فسقط النسر على الثرى رافع الرأس مبّسُوطَ الجناحين .

---

(١) عالية : مدينة تبعد عن بيروت نحوا من عشرة أميال .

وكان «أبو عبادة» قريباً منه فما أسْرَعَ ما انكبَّ عليه يَوَدُّ لو فداه بنفسه .

رأى المجاهدون قائدهم تصرعه قنابل العدو ، وأبصروا الدبابات توشك أنْ تعبر المَمَرَّ واحدة تلو أخرى فدوت في الجو صيحة : اللّه أكبر اللّه أكبر ، ورددت جنبات الوادي صداها . وانقَضَّ الصقور على الحديد والنار ، والتحمت الأجسادُ العارية بالدبابات تريد أن توقفها عن الزحف ، وعانقت السواعدُ المفتولة المدافعَ تَوَدُّ أن تسكتها عن الإطلاق ، وتَدَفَّق الغر الميامين على الموت تَـدَفُّـق الظماء على المورد العذب ، ومضوا يُسْتَشْهَدُون قافلة إثْـرَ قافلة حتى امتلأت السفوح بجثث القتلى وأجساد الشهداء ، وازدحم جانب الطريق بالأشلاء المبعثرة في غير انتظام ، وعَبَـرَ الجيش الفرنسي الجرار منطقةَ «ميسلونَ» ودخل «دمِشقَ» بعد أن دفع ثمن نَـصْـرِه هذا غالياً .

الفصل الثانى

اهتزت أسلاك البرق تحمل إلى «باريس» ، ومنها إلى عواصم الدنيا خبرَ انتصار جيش فرنسا الجرار على أصغر دولة في العالم ، وخَيِّلَ إلى الفرنسيين أنَّهم يمحون بهذا النصر هزيمة أوربا كلها يوم حطين .

وقطع الجيشُ الفرنسي الطريقَ من «ميسلون» إلى «دمشق» ، وهو لايحفل بما نثرته يد البارئ المصورِ على الربوع من سحر ، وما خطّته أناملُ آذارَ على مساحب أذيالِ «الهامَة» و «دمَّر» [1] من وشي ، وما حباه «بردى» المعْطاء «للربوة» الغنَّاء من فتنة .

فلقد كان يملأ صدورَ الغزاة عُرامٌ [2] النصر الكاذب ، فيصرفهم عن رؤية الجمال ، وتغلي في صدورهم نيرانُ الحقد القديم ، فتجعل على أبصارِهم غشاوةً ، ويملأ نفوسَهم القرم [3] إلى دم الأبرياءِ ، والجشع إلى استلاب المغانم .

ودخل الغزاةُ «دمَشْقَ» فاستقبلتهم كما يستقبلُ الأسَدُ الجريحُ المكبَّلُ جموعَ المتفرجين ، فهو يُغْضِي إباءً أنْ يرى قوافلَ الجُبَناء تَمرُّ به مستأسدةً عليه ، ويطرِق استخفافاً بأولئك الذين ما أغْراهم به إلاَّ الجراح والقيْدُ .

وبدت فروعُ «بردى» السبعةُ وكأنَّها مسايلُ دموعٍ على خدِّ المدينة المحزونة، ووقفت المآذن، تمد أعناقَها إلى العلاء تشكو ظُلْمَ سكَّان الأرض إلى ملائكة السَّماء.

---

(١) الهامة ودمر : ضاحيتان من ضواحى دمشق الجميلة تقعان عند مدخل دمشق من ناحية لبنان .

(٢) العرام : الشراسة والأذى .

(٣) القَرَمُ : شدّة الشهوة إلى اللحم .

وحَـلَّ «غورو» في قصر من قصورِ دمشقَ القديمة ، فما كادت تَطَؤُه قدماه حتى جالت عيناه بسرعة البرق في قاعاته وحُجُراته ، وقلّبتْ يداه في خِفّة اللصوص نفائِسَهُ وكنوزه ، فلم يستطع أن يُخفي على ضباطه ما في نفسه من رغبة السَّطوِ والاستئثار ، ولم يَمْلكْ إلا أن يتمتمَ بصوت متقطع مسموع :

إنّ يوماً في هذا القصر يَعْدِل عمراً في «باريس» .

كان «غورو» حين ردد كلماته هذه قد زايَلَهُ ما في نفسه من خوف لامبرر له فلقد أمَّ القصر بعد أن سبقه جنده إليه وتأكدوا من أنه خالٍ مما يريب .

تَصَدَّر «غورو» الإيوانَ الكبيرَ المُشْرِفَ على الساحة الرحبة الواسعة ، وأخَذَ يقلب طرفيه في جدرانه السّامقَةِ المَكْسُوَّةِ بخشب الأرزِ ذي اللون «البُنّي» ، ويتَتَبَّعُ ببصَرِه تلك الزخارفَ المحفورة عليه بدقة عرِف بها صناع «دمشق» .

ثم يرفع بصره إلى سقفه المرفوع على الأعمدَةِ الرُّخامية التي خالط بياضَها حمرةٌ فاتنة ، وجعل يحملق فيما ازدان به ذلك السّقفُ من بديع الفُسَيْفساء التي لم ينل من بهائِها كَرُّ الغداة ولا مرُّ العشي . ثم يرتد بصره إلى الأرض التي فُرِشَت بالسجاد الشرقي مختلفاً ألوانُه ، وإلى النوافذ التي تدلت عليها ستائر «الدامسكو» رائعةً نقوشُه وأصباغُه .

واسترخى على أريكة من خشب الصندل طُعِّمتْ بالصدف الذي يبْهَرُ لألاؤه الأبصار ، وزُيِنَتْ بالنقوش التي افتنَّ في إتقانها الصانعون ، وجلس من حوله كبارُ ضباطه يتملقون كبرياءه ، يكيلون له الثّناء كَيْلاً ، ليتقربوا إليه زُلْفى .

زُهِي القائد بما نَمَّقَهَ له ضبّاطُه من مديح ، وانتفخ صدرهُ لِمَا أسمعوه من ثناء، وتنحنح ثم افتتح حديثه فقال :

تعساً لهؤلاء القوم وسحقاً .

لقد خُيِّلَ إليْهمْ أنَّ التاريخَ سوف يعيد نفسَه ، وأنَّ «يوسُفَ العظمة» سيهزِم «غورو» في «ميسلون» ، كما هزم «صلاح الدين الملك» «غي» في حطين .

فقهقه الضباط لهذه النكتة قهقهةً أرضت غرور قائدهم ، وأغْـرَتْهُ باستئناف حديثه فقال :

لقد نسي هؤلاء الأغرارُ أنني لست كـ«رينودوشاتيان» صاحب «الكرْك» فهو حين خفرَ[1]ما بينه وبين «صلاح الدين» من ذمم لم يكن يملك من القوة ما أملك أنا حين نقضْت ما قطعه الحلفاءُ لهم من مواثيق خلال الحرب . ثم أردف يقول :

لقد كانت حماقة «رينو» سبباً في القضاء على دولة الفرنجة في الشرق .

فقاطعه أحد ضباطه قائلا :

وستكون حِكمتُكمْ وحِنكتُكُمْ سبباً في إعادة هذه الدولة .

فهز «غورو» رأسه إعجاباً بسرعة بديهةِ الضّابطِ وقدرتِه على تنميق الحديث ثم قال :

لقد أظْهَرَ الملك «غي» وقادتُه غباءً كبيراً حين اسْتجرَّهُمْ «صلاح الدين» إلى حيث أراد ، وفرض عليهم مكان معركة «حطّينَ» وزمانها ، فجعل مكانَها في منطقة خالية من الماء في «وادي الغوْرِ» ، وجعل زمانها في حَمَارَّة[2] القيظ من شهر تموز. فهتف أحد الضباط قائلا :

يا للأجداد المساكين الذين خدعهم أولئك البداة فأوردوهم موارد التهلكة .

فأردف آخر :

(١) خفر : نقض وغدر .

(٢) الحمارة : شدة الحر .

ولكنهم – إذا أذن لي سيدي – قد أبْدَوْا من ضروب الاستبسال ما سيظل مكتوباً في تاريخ الفروسية إلى الأبد .

فقاطعه «غورو» قائلا :

إن الحرب ، أيها الضابط الشاب لا تُرْبَحُ بالشجاعة والبطولة ، وإنما تُرْبَح بحذق القيادة ، وإحكام الخطة وحسن التدبير .

فعقب أحد الضباط على كلامه هذا بقوله :

وذلك ما توافر لمعركة الأمْس يا سيدي القائد .

فانبسطت أسارير «غورو» إعجاباً بهذا التعقيب اللبق الذي كان يريد أن يعفيهِّ أحَدُ الضباط من ذكره بنفسه . ثم استأنف «غورو» وحديثه فقال :

لقد ذكرت لكم أن «صلاح الدين» قد استطاع أن يضع أجدادنا في موقف عصيب ، وجدوا فيه أنفُسَهُم في جَحِيمٍ مستعر ، فالنارُ من تحتهم أوقَدَتْهَا شمس الصحراء في الرمال الملتهبة .

والنار من فوقهم سلطها عليهم شُواظُ [1] تموز ،

والنار في أجوافهم أضرمها الظمأ إلى الماء .

والنار من بين أيديهم ومن خلفهم قذفهم بها العرب من مَنجنيقَاتِهِمُ المنصوبة بدقة وإحكام .

فقال أحد الضباط مداعباً :

فلنحمد الله على أنّ «صلاح الدين» قد مات ، وارتفعت الأشجار الباسقة على ثراه ، فانتفض «غورو» وهو يقول :

---

(١) الشواظ : لهب لادخان فيه ، وحر الشمس أيضاً .

بل احمدوا الله على أنَّ قائدكم في هذه المرة كان «غورو» ولم يكن الملك «غي» .

فضحك الحاضرون ، وكان يبدو أن الذي أضحكَهم إنما هو نكتةُ الضابط ، وليس تعليق القائد .

وفي صباح اليوم التالي سرت في القصر حركة غير عادية ، فقد ارتدى «غورو» أزهى بزّاته العسكرية ، ورصّع صدره بجميع ما أُهْدِى إليه من أوْسِمَة ، بما فيها تلك التي نالها يوم كان ضابطاً صغيراً ، مما لا يتكافأ مع مكانتِه في الجيش الفرنسي اليوم ، وأخَذَ ينظر إلى حسن هِنْدَامه في صقال المرآة الكبيرة الراسخَة على أحد الجدران ويرْجعُ البَصَرَ كرات في الشُّرُطِ الذَّهبيّة التي تلمع على أكمام سترته واستدارة عَمْرَتِه ، ولم يَرْتَدَّ بصرهُ عن المرآة إلا حين رأى كمه الأيسرَ يتدلى من كتفه على جنبه كقصبة جوفاء ، فذَكّرَه ذلك بيده المقطوعةِ ، وغَضّنَ بعض الشيء من وجهه .

توجّه «غورو» ومعه رِجال حاشيته نحوَ باب القصر الخارجي ، فألفَى ثمانيةً من الجنود الأشداء وقف كُل أربعة منهم أمام أحد مصراعي الباب السميكين ليفتحوه ، فَسُمِعَ لهما صرير تَقْشَعِرُّ له الجلود .

وفُتِحَ الباب الكبير ، وخَرَجَ منه «غورو» ثم التفت إلى الوراء ليُلْقِيَ نظْرَةً على هذا الباب السامق الذي لو أراد أنْ يجتازَه فارسٌ عارضٌ رمحَه ، وهو يمتطي صهوة جواده لاجتازه بسهولة ويسر .

وركب «غورو» سيارة مكشوفة ، واكبتها كَوْكَبَةٌ من الفرسان عن يمينها وكَوْكَبَةٌ أخرى عن شمالها ، وكوكبة ثالثةٌ من ورائها .

وسار الموكب على وقع سنابك الخيل ، ويمَّمَ وجهَه شطرَ «سوق الحميدية» فلما بلغه تمهل في سيره ، وجعل يقطعه ببطء شديد .

وأخذ «غورو» يلتفت ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال يبحث عن يد تُرفَعُ له بتحية، أو وَجهْ يَبِضُّ له ببسمة فوجد أن الناس لا يعبئون بموكبه ولا يلتفتون إليه .

وقطع الركبُ «سوقَ الحميدية» إلى أن بلغ نهايته ، وأشرف على باب جامع بني أميَّةَ الغربيّ .

فتلفت المسجدُ الوقورُ ليرى أولئك الوافدين عليه فاستغرب وجوهَهم الحمر ، وشعورَهم الشقر ، وأنكر ما في نظراتهم من قحَة واستهتار ، فعادت به الذاكرة إلى الأمس البعيد حيثُ كان يَفِدُ عليه «الوليدُ بن عبد الملك» يحف به السادة الغطاريف[1] من بني أُميّةَ فيتطامَنُ الخليفةُ العظيمُ خضوعاً بين يديه ، ويأتي إليه «عمر بن عبد العزيز» تحيط به السيوفُ المسلولةُ من بني مروان ، فيُغْضي خشوعاً في محرابه ، ويجلس في صحنه «صلاح الدين الأيوبي» ليتلقى العلم على يدي شيخه «ابنِ عَصْرون» في حِشْمة ووقار .

وأطلت مآذنُ الجامع الثلاث ، وأبصرت الرايات الفرنسيةَ التي تتقدم الموكب ، فارتدت مذعورة تُشْفِقُ على نفسها من أنْ تنقضّ ، وأخذت تستعيد صورة ألوية بني أمية المُظَفَّرَة أيام كانت تُعْقَدُ في ظلالها للقادة الأبطال من أمثال «عقبة بن نافع» و«طارق بن زياد» ، و«موسى بن نصير» ، و«محمد بن القاسم» ، و«عبد الرحمن الغافقيْ» . فيندفعون في مسالك الأرض لا يقف أمام زَحْفِهمْ شَيْء ، حتى غاصت حوافر جيادهم في رمال شواطئ «الكَنْجِ» من «الهند» ، وداست سنابكُ خيلهم ساحات «بواتيه» في «فرنسا» ، ورفرفت أعلامهم على مشارف الأرض ، لا تحمل إليها الهلاك والدمار والذل ، وإنما تحمل إليها المعرفةَ البانية ، واليدَ الحانية ، والعقيدة التي تحرر العقل ، وتخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور .

* * *

---

(١) الغطاريف : السادة السراة ، وهو جمع مفرده غطريف .

توقف الركب قليلاً أمامَ البـاب الغربي لجامع بني أمية ، ولَكنَّه لم يدَخْلْه وإنما انعطف نحو الشمال في زقاق ضيق اتصلت أبواب بيوته بعضُها ببعض حتى لكأنها قافلةٌ من الجمال يسير كُلُّ واحد منها في إثر الآخر .

وظن الناس أن الموكب قد ضلَّ طريقه فتركوه سادِراً في ضلاله ، ولكنه مالبث بعد قليل أن انعطف نحو اليمين وسار قليلا في شارع أكْثَرَ عرضاً من الشارع الأوَّلِ حتى أفضى إلى مدَفنِ «صلاح الدين الأيوبي» .

وقف الموكب عند الباب الخارجي للمدفن ، وأسرع ضابط كبير ففتح لـ «غورو» بابَ السيارة ، فترجل القائدُ على الأرض وهم بدخول المكان .

ظن بعض المارِّين أنَّ القائد الفرنسي قد جاء يتملق المواطنين بهذه الزيارة فبدت على وجوههم بسمةٌ باهتة ساخرة .

وخُيل إلى آخرين أكثرَ ذكاءً أنَّ « غورو » جاء يتمسح «بصلاح الدين» ليقال: إنَّ البطولة تقدر البطولة على الرغم مما بين البطلين من تبايُنٍ فاستهجنوا هذا الأسلوبَ الرخيص .

وحسب فريقُ ثالث ممن يُحسِنُ النيَّةَ في كُلِّ أمر أن «غورو» قد جاء يرد الجميل إلى «صلاح الدين» ، ويذكر له يدهَ على قومِه يوم وقع جميع أمراء أوربا ونبلائها وعلى رأسهم الملك «غي» أسرى بين يديه إثرَ معركة «حطينَ» ، فاستقبلهم «الملك الظافر» في خبائه أعزَّ استقبال . وأكْرَمَ مثواهم عندْهَ إكراماً لا يزال تاريخُ أوربا يذكره بلسان نَدِيٍّ بالحمد رطيب بالثناء.

وقال هؤلاء : إن «غورو» لم يأت لهذا فحسب ، وإنما جاء يشكر لبطل حطين مِنَّتَه على قومه حين استسلم له الفرنجة في بيت المقدس فبذل من ضروب المروءات للنازحين ما ألْهَجَ ألْسِنةَ أوربا كلها بشكران صنيعه ، فقد وزع الدوابَّ على

الشيوخ والنساء والمرضى والأطفال من أعدائه النازحين ، ورق قلبه الكبير للنسوة اللائي خرجن إليه وقلن له :

(أيها السلطان العظيم ، كيف تتركنا نرحل عن هذه الديار إلى الأبد ؟

وأزواجنا وأولادنا وإخوتنا أسارى عندك ، وهم عدّتنا في الحياة ، وسلاحنا على الدهر ، فهبهم لنا تهب لنا النعيم ، وتخفف عنا بؤسنا وشقاءنا) ، فأمر بإطلاق سراح أبنائهن وأزواجهن وإخوتهن جميعاً .

ولكن «غورو» خيب ظن هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء واقتحم على النسر الثاوي في أرض البطولات مَجْثمهُ ، ووقف أمام الضريح العظيم في استخفاف وشماتة ، وهز ستائر القطيفة المُدَلّاة عليه في قحةٍ ، ولكزه بقدمه في نزق وطيش ثم قال :

ها نحنُ أولاء قد عدنا يا «صلاح الدين» ، ولن نخرج من هذه الأرض بعد اليوم أبداً .

الآن انتهت الحروب الصليبية يا «صلاح الدين» ...

وانكفأ راجعاً .

الفصل الثالث

كانت قريةُ «حَرَسْتَا» تقبع في أحضان الغوطة الشرقية كاسفة حزينة ، وكانت بيوتها الصغيرة البيضاء المتلاصقة تبدو كقطيع مذعور من الغنم ، تداخل بعض خرافه في بعض ، وأزِقَّتُهَا الضيقة المتعرجة تستقبل الفلاحين العائدين مع دوابهم من البساتين ، وهم يسيرون بخطوات متثاقلة بطيئة ، والأشجار الكبيرة الباسقة تكنفها من كل صوب كأنما تريد أن تحميها من شر متوقع .

وكانت شمس الأصيل تُلَمْلِمُ أذيالها لتتوارى خلفَ الأفق الغربي شَاحبةَ الوجه ، وأشعَّتهَا المريضةُ تنضح سطوح القرية الواطئة بصُفْرَة تُذكِّر بشحوب الموت ، وجيوشُ الظلام ترسل طلائعها لتَدْهَم القريةَ الصغيرة بحشد لا قِبلَ لَها برده .

وفي ركن من أركان أحد البيوت الريفية جلس «أبو عبادة» مُطْرِقاً لا يلتفت ، ساهماً لا يَريم ، واجماً لا ينطق ، وقد احتبى حبوة أسند فيها ظهره إلى الجدار ، وعقَد يديه على ساقيه ، وأمال رأسه إلى الأسفل حتى لامست ذقنه صدره .

كان «أبو عبادة» يستعيد مشاهد المعركة ، وهولا يكاد يصدق أن ما حدث أمْسِ يمكن أن يتمّ كلُّه في ساعات .

كان يذكر كيف أذّن في الناس مؤذن الجهاد فَلَبَّوْا نداءه خفافا وثقالاً ، وكيف باتوا ليلتَهم في «ميسلونَ» يترقبون مَطْلع الفجر ، ليخوضوا معركة كانوا يَرَوْن أن التفكير في نتائجها عارٌ تأباه الشهامة ، وكيف أضرموا مع الصباح نار حرب جعلوا وقودَها أجسادهم وعتادهم ، وهم راضون مطمئنون .

وكان يذكر مع ذلك وجه القائد النّبيلِ وما اتسم به من رجولة ، ويتصور هامته المرفوعة وما أوحته لجنده من إباء ، ويتمثل حركتهَ الدائبةَ وما بعثته في نفوسهم من حماسة مشبوبة .

ثم يذكر كيف تلقاه بصدره حين خرَّ صريعاً على الثرى ، ومن حوله مئات الشهداء من إخوانه يدفعون الذئابَ عن جسد البطل الممزق،فتعروه لهذا المشهد الأخير رعدة تهز أوصاله هـزّا .

وكانت «رتيبة» ترقد في جانب آخرَ من جوانب الحُجْرة الضيقة على فراش صفيق ، يكاد لقلة ما حُشِيَ فيه من حقبر الصوف لا يرنفع شيئاً عن الحصير المفروش على الأرض ، وهي تتلوى من الألم وتعض على طرف الوساده لتخنق الأنات التي تسببها لها أوجاع المخاض .

وكانت تستبد بها الآلام تارةً فتذهلها عن نفسِها وعَمّا حولها ، وتصحو تارة أخرى فتأسى على ما هي فيه ، وتستعيد صور حياتها القريبة صورة صورة .

فلقد زُفَّتْ إلى «أبي عبادة» منذ عام واحد والبلاد في فرحة غامرة باستقلالها الوليد ، والشعب مبتهج بما أفاء الله عليه من نعمة الحرية ، ونُقِلَتْ من دار أهلها في قرية «داَرَيّا» إلى بيت «أبي عبادةَ» ، وعاشت في كنف شمائله السمْحة عيشةً راضيةً، ونَهَلَتْ من عذب وداده كؤوساً مزاجُها الصفاء والوفاء ، وقاسمته رزقه القليل ، وهي فرحة بما آتاهما الله من فضله ، فلقد عاشا طَوالَ هذا العامِ كالطيور الغردة تغدو مع الصباح خماصاً[1] وتعود مع المساء بطانا[2] .

ولقد بلَغَت سعادتُها غايتها حين شعرت أنها حاملُ .

---

(١) خماصاً . ضامرة البطون وهو جمع مفرده خمصان.

(٢) بطاناً . ممتلئة البطون .

وأسرّت بالنبأ المفرح إلى «أبي عبادةَ» فكادت لا تتسعه الأرض بما رَحُبَتْ ، وأخذ يُحِسُّ أن عود شبابه الريان قد أزهر وأثمر ، وجعل ينتظر اليوم الذي يصبح فيه أبا عبادة حقّـاً وصدقّـاً بعد أن كان يُدْعى كذلك من باب الاكتناء باسم الأب جرياً على المألوف من عادات أهل القرى ، وبدأ منذ ذلك اليوم يضاعف السعي ليحصلَ على مزيد من الرزق ويقتصدُ في النفقة ليوفّرَ مبلغاً حسناً من المال . ينفقه بسخاء يوم تلد «رتيبةُ» مولودَها البِكْر .

وكم سهرا الليالِيَ ذواتِ العدد وهما يتكهنان بنوع المولود الجديد وصفاته ، ويتحدثان عن الحفل البهيج الذي سيحضره أهلها وأهله وصُوَيْحباتُها وصحبهُ .

ثم دَهَمَ البلادَ الغولُ الفرنسي على غير أُهْبَة ، ونودِيَ في الناس للجهاد ، فلبى «أبو عبادةَ» دعوة الداعي كما لباها غيره من شباب القرية وشيبها ، وامتدت اليدُ الشّهمةُ إلى المال المجموع بقطرات العرق وهمس الأماني فأخرجته من مأمَنه بعد أن مضى على ثَواءِ أوّل قرش فيه ما يقارب تسعة أشهر ، ونزل إلى السوق ليشتري بندقية وَعتاداً للبندقية .

كانت «رتيبة» تستعرض هذه الصور وهي تتلوى على فراشها من الألم ، وكانت تتمنى أن لو تأخر وضعُها أسبوعاً أو أكثرَ لعل «أبا عبادة» يكون قد استأنف عمله وكَسَب شيئاً من المال يُعينه على ما هُمْ مُقْبِلون عليه .

فقد كانت تعلم أنه لا يملك الآن ثمن وجبة طعام فما بالك بأجر القابلة ومستلزمات الوضع .

واشتدت بها آلام المخاض فأطلقت الاستغاثة تلو الاستغاثة ، إذ لم يعد لديها من التجلد والوعي ما يُعينها على خنق أناتها المكبوتة، وقرعت أناتُ «رتيبة» أذني «أبي عبادة» ، فاستفاق من ذهوله ، وخُيِّل إليه أنَّ سَوْطاً يلهب ظهره ، ويهيب به أن يفعل شيئاً من أجل زوجه ، ولكن ما عساه أن يفعل ؟!! وهو لايملك قرشاً واحداً .

وبمن يستجير من أهل القرية ؟ وهم جميعاً ليسوا أحسنَ منه حالاً ، فالصيفُ في أوّله والثمر لم ينّضج بعد ، والمعركةُ قد أجهدتهم كما أجهدته .

خلّف «أبو عبادة» «رتيبة» في البيت بين الموت والحياة وخرج هائماً على وجهه وهو يضرب أخماسه في أسداسه ، ويلتمس لصيقه مخرجاً ، ثم ما لبث أن يمّم وجهه شطر بيت أمّ أحمدَ قابلةِ القريةِ العجوزِ ، يريد أن يدعوَها إلى المنزل أوّلا لتنقذَ رتيبة ، ثم ينصرف بعد ذلك إلى تدبير بقية أمره .

وكان حين خرج من البيت لا يعلم أنّ الحامية الفرنسية التي عسكرت في القرية بعد احتلال «دمشقَ» قد فرضت على الناس منعَ التجول من غروب الشمس حتى مطلع الفجر ، ولم يرِبْهُ خُلُوُّ الأزقة من كل نأمَة [1] ، فالقرية قد نفضت يديها وشيكاً من تراب شهدائها ، وأنّى للثاكل المحزون أنْ يسمر ، أو يرتفع لَه صوت ؟!!

وسار في الطريق مُصْعِداً نحو حواشي القرية من الجهة الجنوبية حيث كانت تقطن «أم أحمدَ» ، فهرتْه الكلاب ومزّق نُباحها السكونَ الموحش ، مما أثار انتباه الحامية الفرنسية ، وجعلها تتوجّس خيفةً منْ ذلك الذي شَقَّ عليها عصا الطاعة ، وعَبَثَ بقرار منع التجول ، فأخذت تتطلع ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال حتى أبصرت شبحاً يتجه نحوها غير عابئ ولا مهتم ، فصوب الجنود نحوه فوهاتِ بندقياتهم ، وأمطروه وابلاً من رصاصهم ، فخر صريعاً تنزف منه دماؤه .

وَجَبنَ الجنودُ عن أنْ يمضوا إلى فريستهم ليرَوْا ما حلَّ بها ، وسمع أصحاب البيت المجاور نُباح الكلاب ، وأزيز الرصاص ، وصرخة القتيل ، فنظروا من خِصاص الباب فرأوا رجلاً موسَّداً في العراء من أبناء القرية . فأبت عليهم مروءتهم أن يتركوه في مكانه على الرغم من أنّهُم كانوا يخشَوْنَ أنْ تغتالَهم اليد التي اغتالته ، فلبثوا

---

(١) النأمة : الصوت .

واقفين يترقبون حتى إذا اطمأنوا إلى أن الوحش لم يأبَهْ لفريسته ، ولم يَدْنُ منها ، فتحوا الباب في حذَر وحملوا الجثمان في خفة ، وأدخلوه البيت فوجدوه قد فارق الحياة وعرفوا أنّه جثمانُ «أبي عبادةَ» زينِ شبابِ القرية ، وأنّ ذلك الذي استعصى على الموت أمسِ في «ميسلونَ» قُتِل اليوم غِيلةً في دورب القرية .

أما «رتيبة» فقد كانت في شغَل بنفسها عن كل شيء ، وكانت أوجاع المخاض قد استبدت بها فأذهلتها عما حولها ، وانطلقت أنّاتُها تشق سكون الحجرة الموحشة ، وسمعت جارتُها «العجوز» الصراخ الممزق ينبعث من بيت «أبي عبادة» ، إذلم يكن يفصلها عنه غير جدار صفيق من اللبن ، فهُرِعَت إليه على عجل ، ولم تجد عناء في فتح الباب ، فبيوت القرى لا تعرف هذه الأبواب الممنعة التي تحجب بيوت أهل المدن ، ودخلت الدار ، ونادت من في المنزل فكان جواب ندائها ذلك الأنين الذي كانت تطلقه «رتيبة» .

وما أن رأت «العجوزُ» «رتيبةَ» على ما هي عليه حتى بادرت إلى اتخاذ ما يُعْمَلُ في مثل هذه الحال ، ووضعت كل ما أعطتها السنون من خبرة في خدمة جارتها الشابّة .

وما هي إلا ساعةٌ وبعض ساعة حتى انبلج الفجرُ ووضعت «رتيبة» حَمْلَها ، وصحت بعد غيبوبة دامت ليلةً كاملةً لتجدَ إلى جانبها حياةً تُولَدُ وأخرى تُوأَدُ ، فمالت على الصبيِّ الصغيرِ ، وبَلَّلَتْ جبينَه بالدُّموع ، وأسْمَتْه «عُبادةَ» .

الفصل الرابع

كانت «رتيبةُ» في الخامسة والعشرين من عمرها ، ريّا الشباب ، وضيئةَ الوجه، وسيمةَ الملامح ، وكانت إلى ذلك ذكيّةَ الفؤاد ، كريمةَ الشّمائل شديدةَ الإيثار ، دافئةَ اللسان ، وقد امتازت على أترابها من نساء القرية بأنّها قرأت القرآن في الكُتّاب يوم كانت صبيةً صغيرةً ، وأتيحَ لها من خلال هذا أن تتعلم مبادئ القراءة من غير قصد إلى ذلك .

وقد أحلّتْها صفاتُها هذه من جاراتها منزلاً كريماً ، لا فرق في ذلك بين الشوابِّ اللواتي كانت تربطُهن بها أواصرِ الصِّبا ووشائجُ اليَفَاعَة [1] ، وبين المسنات اللاتي كُنَّ يَرَيْنَ فيها صِنواً لهن من حيثُ رجاحةُ العقل ورصانةُ السلوك .

ولم تكن «رتيبة» من النَّفرَ الذين إذا أصابتهم مصيبة طاشت سهامُهم وفقدوا صوابهم . وإنمّا كانت من أولئك الذين تفجّرُ المصيبة في نفوسهم ينابيعَ التَعقُّلِ والحزم ، وتطبع النائبة تصرفاتهم بطابع الحكمة وحسن التدبير .

ولقد كان عليها أن تواجه الموقف الصعب الذي وضعتها فيه الأقدارُ هي ووحيدَها ، ذلك الذي كُتبَ له أن يرى النور من خلال الدموع ، وأنْ يسمعَ صوتَ الحياة ممتزجا بالويل، وأن يستقبل الدنيا دون أن يظفر ببسمة تَبِضُّ على ثغر ، أو فرحة تَرْتَسِم على مُحيّا ، وكان لابدّ لها من أن تحددَ موقفها من نفسها ومن هذا

---

(١) اليافعة : الشباب .

الصغير ، وأن تسابق أولئك الذين يتطوعون لبحث مشكلات الناس ، ويُجْهِدون عقولهم في أن يلتمسوا لها أفضل الحلول دون أن يكلفَهم أحد عناء ذلك .

فلقد رأى بعض هؤلاء أنّ على «رتيبة» أنْ تحمل وليدَها على كتفها وأنْ تولّيَ وجهها شَطْرَ «داريّا» لتستقرّ في بيت أخيها وتقتسمَ مع زوجه وأولاده ما يُكْتَبُ لهم من رزق .

ولقد دعّم هذا الرأيَ مبادرةُ شقيقها إليها ، ودعوتُه إيّاها إلى الإقامة معه حيث تأكلُ مما يأكل هو وزوجهُ وأولادُه ، وتلبس مما يلْبسُون .

ورأى آخرون أن من الأصلح لرتيبةَ أنْ تبْنِيَ لنفسها بيتاً جديداً في ظلِ زوج جديد ، فقد كان لها من نُضْرَةِ الشباب ، وكمالِ الخَلْقِ ، وحُسْن الخُلُق ما يغري بها طالبي الزواج على الرغم من أنّها كانت ذاتَ ولد .

وقد أكّد رأيهم هذا ما همس به بعض شباب «حَرَسْتا» في آذان أمهاتهم وأخواتهم من أنهم يرغبون في الاقتران بـ«رتيبة» .

ولكن «رتيبةَ» كذبت ظنون هؤلاء وهؤلاء .

فلقد أبت أنْ ترحل مع أخيها إلى قريتهم «داريّا» لأنّها لا تطيب نَفْساً بالعيش مع ابنها عالةً على أخيها وزوجه ، ولا تَقَرُّ عيناً برؤية «عُبادة» وهو يتجرع كؤوس اليتم كلما نظر إلى أولاد خاله ، وهم يأوون إلى حجْرِ أبيهم ، فيجدون فيه الحنان الدّافئ، والعطف الدّافق ، على حين لا يجد هو أبا يفيءُ إلى ظلال حبه وحنانه .

وأبت أن تتزوج على كثرة ما امتدت إليها أيدي الخاطبين ، فلقد كان لذكرى زوجها الشهيد من الحُرْمَةِ في نفسها ما يجعل التفكيرَ في هذا الأمر فَعْلَةً يأباها الوفاء، وتنكرها العشرة الطيبة .

ولقد منعها من ذلك أيضاً ما كانت تتوقعه لـ«عُبادَةَ» من سوء معاملة زوج الأم، مهما يكن هذا الزوج طيبَ النفس رضي الخلق . يضاف إلى ذلك ما كانت تنتظره له من الغضاضةِ يومَ يغدو شابًا بين الشباب .

لهذا شكرت لأخيها كريمَ دعوته ، وقدَّرت له صدق عاطفته ، واستأذنته في البقاء مع ولدها في بيت أبيه ، فأذعن لمشيئتها وهو على مضض .

ولهذا أيضاً رفضت أن تفسح في نَفسِها وفي مجالسها مكاناً لأحاديثِ الخطوبة والزواج ، فكانت إذا دار الحديث حولَ هذا الموضوع حَسَمَتْه حَسْماً لا يترك في نفس السّامع مجالاً للشك في أنها جادّةٌ فيما تقول ، صادقةٌ فيما عزمت عليه ، وأخذت تُصرُّ منذ أن استُشْهد زوجها على أن تُنادَى بـ«أمّ عُبَادَة» ، كلّما أرادت جارةٌ من جاراتها أن تدعُوَها «رتيبة» ، لأن التّكنّيَ بالأبناء والبنات أقربُ إلى الكهولة، وأبعد عن الشباب .

وقررت «رتيَبة» أنْ تواجه الموقف مواجهةَ الواثق بنفسه ، المقدّر لأعبائه ، المدرِك لقدراته ، وصممت على أن تهَبَ نفسها لولدها لاتشرك معه أحداً من زوج أو غيره، وأن تعيشَ من كدِّ يمينها وعرق جبينها ، فما ذاق امرؤٌ لقمةً أطيبَ مما جنته يداه .

وقد كانت «رتيبة» مثالا حسناً لفتيات الأرياف اللائي يُرَبَّيْنَ – عن قصد أو عن غير قصد – تربيةً تُعدهنّ لمجابهة أحداث الحياة ، ومواجهة صُروفِ الدهر ، فقد عملت في الحقل منذ نعومة أظفارها شأنها في ذلك شأن أترابها من بنات القرية ، ورأت كيف يؤتي العملُ أكُلَه طيباً مباركاً بإذن ربها ، وشاهدت على مرّ السنين كيفَ يتحول جهد الشتاء مع طلائع الربيع إلى زهر نضير تزدان به غصون الأشجار ، وكيف يتحول جهدُ الربيع مع الصيف إلى رزق وفير تمتلىء به الخزائن .

وهي بين هذا وذاك تغزل صوفها بيدها ، وتحيك ملابسها بأناملها ، وتبيع ما فاض عنها في السوق لغيرها من بنات الريف ممن يحسنّ عملاً آخرَ .

وقد كان «أبو عبادة» – طيب الله ثراه – يعمل حائكاً في القرية ، وكان يملك نولاً خشبياً ورثه عن أبيه وجعله في إحدى حجرتي بيته ، أمّا الحجرة الثانية فقد خصصها لأُسْرَتِه .

وكان يحيك على هذا النول العباءات الصوفيةَ التي يؤثرها أبناء القرى ، ولايفضلون عليها شيئاً من أنواع الملابس .

وكان يحلو لـ«رتيبة» كُلّما فرغت من شؤون المنزل – وهي قليلةٌ – أنْ تجلس قُبَالَةَ «أبي عبادة» وهو يعمل وراء نوله ، وأن تُمْضِيَ معه سحابةَ النهار وأحياناً هزيعاً من الليل ، وهي تتملى من الحديث معه ، وتتسلى بالنظر إلى حركة النول ، وتداخُلِ اللحمة في السُّدَى ، ونموِّ العباءة خيّطاً بعد خيط .

ولكم كانت تُحسُّ في نفسها رغبة ملحة بمشاركته في العمل ، وقدرة على أداء ما يقوم به وإن لم يَتَحْ لها أن تمارس ذلك فعلا .

أرسلت «رتيبة» قُرْطَها الذهبي مع جارتها العجوز إلى «دمشقَ» ، ورجتها أن تبيعه لها في سوق الصاغة ، وأن تأتيها بثمنه ، على الرغم من أنها كانت ضنينةً به ، حرية على الإبقاء عليه ، فهو هديةُ «أبي عبادة» لها يوم الزفاف ، غير أن «رتيبة» التي كانت تُغلّبُ العقل على العاطفة في تصرفاتها كُلها شعرت أنّها حين تفرط بهدية «أبي عبادة» الصغْرى ، إنما تفعل ذلك لتحتفظَ بهديته الكُبْرى ، وأنَّ روحه السَّمْحة لو أطلت عليها من عالم الغَيبِ لباركت عملها ، وأثنت عليه .

عادت الجارة من «دمشقَ» تحمل معها ثمن القُرْطِ دراهمَ معدوداتٍ فتناولتها منها «رتيبة» واشترت بها من غزل الصوف وخيوط القطن ما يكفي لصنع عباءة

وأقبلت على العمل وهي تتهيّبه وتُشفقُ من أنْ تخفق فيه، فتذهبَ آمالُها أدراجَ الرّياح ، وتَغْدُوَ أضْحوكةً في أعينِ النّاس ، ومدت السُّدى على النول بيد مرتجفة ، بيد أنّه جاء مدّاً مُحْكَماً لاعيب فيـه ، ولَفّت اللحمة على المَكوكِ لفّاً حسـناً ، كما كانت تلفها لـ«أبي عبادةَ» أحياناً ونزلت إلى الحفرة الصغيرةِ التي أعدّتْ لتكونَ ميداناً لحركة النول ، وجلست وراءَه على الدّكّة المُعَدّة لجلوس الحائك فوق قطعة من الحصير ، ومدّت قدميها إلى خشبتى النّوْل المتصلتين بالسُّدَى ، لتحرك بهما خيوطَه المُتداخِلَةَ في سماَطّين [1] شديدي الشبه بفكين مفتوحين ، وتناولت بيمناها المكوك لتلقم ذينك الفكين ما فيه من غزل الصوف ، فأخذا يبتلعان ما يُلقى إليهما بشراهة ونهم كلما حركتهما القدمان .

وبينما كان العمل يسير باسم الله وعلى بركته كانت دموعُ «رتيبةَ» تَسُحُّ من عينيها سحّا وترْسُمُ على الوجه النبيل مسايل متعددةً .

لم تكن «رتيبةُ» تبكي لشعورها بثقل العِبْءِ ، ووطأة الجُهد ، فبناتُ الريف يُولدْنَ مع العمل ويترعرعْنَ في حجرِه ، ويربّينَ تربية تجعلهن أخواتِ الرجال مع ما زانهنّ الله به من حياء وخَفَرٍ ، وإنما كانت تبكي لأنها قعدت مقْعَدَ «أبي عُبادَةَ» ، بعد أن أقفر البيتُ من سيده ، وفقد النّوْلُ راعيَه .

واستأنت «رتيبةُ» في الحياكة ما وسعها التأني، وعانت من مشكلات الحرْفة ما لم تكن تحسب له حساباً من قبلُ، ولاقت من عناء النول ما جعلها تظنّ أنه يَحْرُنُ [2] إباءً أن يُدارَ بغير سواعد الرجال ، فصبرت على ذلك صبراً جميلاً ، وخرجت من

(١) السماطان : الصفان وهو مثنى مفرده سماط .
(٢) يحرن : يقف ويأبى أن ينقاد .

معركتها مع العباءة الأولى فائزةً ، وإنْ كانت تتمنى أنْ لو برئت من بعض ما وقع فيها من هنات . وزُفَّتْ العباءة إلى السوق وكأنها قطعة من نفس صاحبتها وبيعت فيه، فربحت ربحاً يسيرا ، ولكنه كان في عينيها أغْنى من كنوز سليمانَ ، وأغلى من ذهب الدنيا ، ودار النول دورتَه الثانية والثالثة وما زال يدور ، وتبدّدَت المخاوف التي كانت تخامِر نفس «رتيبة» فأصبحت أهدأ بالاً وأوفر طُمأنينةً ، وأشدَّ ثقة بالله واعتداداً بالنفس .

أمست «رتيبة» بعد العباءة الأولى تعيشُ لأمرين اثنين : للنَّولِ الذي هو سبب الحياة، ولـ«عبادةَ» الذي هو سر الحياة ، وتوزع وقتها بينهما توزيعاً عادلاً حتى لايكاد يجور أحدُهما على الآخر ، فكانت تستيقظ مع الفجر وتستقبل يومها بأداء ما عليها من حق الله ، ثم تنقلب إلى نولها فتَهَبُهُ كل ما تملك من قوة الساعد ودقة الحِسّ ، وبراعة الصُّنعِ ، حتى إذا استيقظ «عبادة» من نومه انصرفت إليه بقلبها وجوارحِها وضمت جسمه البَضَّ إلى صدرها الدافئ ضمة أودعتها أغلى ما أُترِعت به أفئدة الأمهات من حب ، ومسحت خديه الموردين بأناملها التي تَنبضُ بالحنان ، ونَضَحَتْ عينيه الصافيتين بنظرات تفيض عذوبة وافتتاناً وألقمت شفتيه المكتنزتين ثدياً طافحاً بالغذاء والنَّماء .

ولم يكن يُنَغِّصُ على «رتيبة» سعادتها بـ«عبادة» إلا أمران اثنان : أولُهما ما كانت تتمناه من أنْ يُشارِكَهَا «أبو عبادة» في هذه المتعة التي طالما رجاها أشد الرجاء، وعاش بترقبها في لهفة تسعة أشهر كاملة ، وثانيهما ذلك الخاطرُ الأسودُ الذي كان براودها من حين إلى آخرَ فتجاهد في دفعه عن نفسها أشق الجهاد ، بيد أنّه كان لايغرُب عن نفسها قليلا حتى يتسلل إليها في صورة من الصور ، ذلك الخاطر هوَ أنَّ «عبادةَ» كان شؤْماً على أبيه ، وأنَّ قدمه كانت قدمَ نَحْسٍ على الأسرة .

وأغلب الظن أنّ «عبادة» لو لم يكن قسيماً وسيماً ، ولو لم يوهب من بهاء الطلعة ووضاءَة الجبين وتألق العينين ما وُهب لترك ذلك الخاطرُ في نفسها أثراً أكبرَ ، ولكنَّ «رتيبةَ» كانت لاتكاد تطل عليه ، وتصافحُ بعينيها تألقَ عينيه وتمسح بأناملها وَرْدَ خَدَّيْه حتى تغشاها سعادة تتضاءَلْ أمامها جميع مباهج الحياة ، فتذهل عن نفسها ، وتستغرق في حلم لذٍّ بهيج .

الفصل الخامس

في عصر يوم من أيام الصيف القائظة استرخى القائد الفرنسي على أريكة من المرمر ، أقيمت في نهاية باحة القصر ، وقد نُجِّد عليها فراش وثير من حرير «دمشق» الغالي ، وصفِّت على جوانبها نمارقُ[1] زاهيةٌ من نسيج «حلبَ» الثمين ، وامتدت أمامها ساحة رَحْبة ، رُصِفَتْ بالرخام الأبيض الصقيل ، وبَسَقتْ حولها أشجار السَّرو تجري من تحتها الجداول ، وتَسوَّرت جُدرانَها أغصانُ الياسَمينِ يَعْبَقُ من أزهارها الشذى ، وارتفعت وَسْطَهَا بركة واسعة يتدفق من نافوراتها الماء ، ويأتلف رذاذه مع أرَجِ الياسمين ، فيشيعان في القصر جواً ريَّانَ مضمَّخاً بالعطر والندى .

وكانَ الخدم يطوفون بين يدي القائد بنعالهم الحمرِ الرقاق ، وسراويلهم الزُّرْق الفضْفاضة وزنانيرهم الملونة ، وصَدْراتهم البيض الموشاة بخيوط الذهب ، وقلانسهم الصغيرة المُمَالة قليلا إلى أحد الصُّدْغين ، وهم يحملون مجامرَ النَّدِّ والعنبر ، وصِحاف الفاكهة والنُّقْل ، وأوانيَ الشَّراب مختلفاً ألوانه وطعُومه .

وكانَ القائد يقرأ في كتاب يوحي لمن يرى صورة «بونابرت» المرسومة على غلافه أنَّه يحكي قصة حياة ذلك المغامرِ الفرنسي الجريء ، وقد كانت تبدو عليه أمارات الاهتمام بما يقرأ ، إذ كان يرفع عينيه عن الكتاب من حين إلى آخرَ وهو يَمُطُّ شفتيه ، ويقرِّب حاجبيه ، ويهزُّ رأسه .

النمارق : الوسائد وهو جمع مفرده نمرقة .

ومن يدري فلعله كان يوازن بين انتصاره منذ أسبوع في «ميسلون» واندحارِ سلفه أمام أسوار «عكا» .

وفيما هو كذلك إذْ دخل عليه أحدُ ضباطه عجلانَ حتى كاد ينسى أداء التحية العسكرية ، وهمّ بالكلام فتَلَجْلَجَتْ الألفاظ في صدره ، واضطربت الحروف على شفتيه ، بيْدَ أنه استجمع نفسه وقال :

سيدي القائد ، عندي أنباء هامة .

فقال القائد مقاطعاً في تراخ ، لعلك تريد أن تخبرنا بأن جيوشنا قد دخلت «حلبَ» دونَ مقاومة ، لقد عرفنا ذلك في حينه أيها الضابط النشيط .

فقال الضابط :

ليس هذا الذي جئت من أجله ياسيدي القائد ، وإنّما جئت لأخبركم .

فقاطعه القائد قائلا بلهجة يشوبها السخر :

تخبرني بماذا ؟

فقال الضابط : جئت لأخبركم بأن القافلة قد أبيدت .

فقال القائد في تهكم :

وهل بقي لهؤلاء قوافل حتى تباد ؟!!

فقال الضابط :

إنها قافلة فرنسية ياسيدي .

فهب القائد واقفاً وهو يقول :

ويحك ، أيّ قافلة تعني ؟ ومن الذي أبادها ؟!!

فقال الضابط : سيدي إنها القافلة التي أمرتم بتسييرها من «الإسكندرونة» إلى «حارِمَ» لَمَدّ حاميتنا هناك بالمؤن والرجال ، وقد أبادها العُصاة السوريون .

فقال القائد :

وَيْلَك ، وهل بقي في «سورية» عصاة ؟!!

فلم يجبه الضابط على سؤاله الأخير ، وإنما انطلق يقول :

سيدي كانت القافلة تجتاز سهول «العَمْقِ» العَشْباءَ ، وما كادت تتوسط طريقاً يحيط بها غيلٌ من القصب اليابس والأسَلِ [١] المتلاصقِ ويمتد بعيداً في كلّ اتجاه، حتى دوهِمَتْ بالنار تندلع من أمامها ومن خلفها ، وعن يمينها وعن شمالها ، وأبصرت أغوال اللهب تَفْغَرُ أفواهَها من كل جانب تريد أنْ تبْتَلعها ، وسمعت زفير الضِّرَمَ [٢] يَصُكُّ آذانها صكّـا ، وأعمى عيونَها الدخانُ الأسود الذي يَحجب وجه السماء ، وأذهلها عن نفسها أزيز الرصاص الذي انصبَّ عليها من الجهات الأربَعِ ، فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى أصبحت القافلة أثراً بعد عين .

وما كاد الضابط ينهي حديثه حتى اتسعت حدقتا القائد فشغلتا نصف وجهه، وامْتَقعَ لونُه حتى أصبح من العسير على رائيه أن يُميزَه لأول وهلة ، واضطربت شفتاه واهتز شارباه ، وصاح كالثور الهائج :

وهل قبضوا على هؤلاء العصاة ؟

فقال الضابط في خوف واضطراب :

كلا ياسيدي لم يُقبضَ عليهم بعد .

---

(١) الأسل : نبات طويل الأغصان دقيقها وهو جمع مفرده أسلة .
(٢) الضرم . اشتعال النار ، وزفير الضرم : صوت اشتعال النار .

فقال القائد :

وكم كان عدد هؤلاء ؟

فقال الضابط : يقولون : أربعة ياسيدي وقف كل واحد منهم في جهة من جهات الغِيل ، وأوقد النار من ناحيته وأتبَعَ ذلك بإطلاق الرصاص.

فقال القائد :

صَهْ أيها الأحمقُ إنّ أربعة لايمكن أن يبيدوا قافلة ، هذا هراء ... هذا كذب ... إذا كان كل أربعة من هؤلاء الأوغاد سيبيدون قافلة في لحظات ، فلن تكفيَهم جنودُ الأمبراطورية كلها .

ثم أردف مسائلا :

ولكن ممن تتألف هذه القافلة ؟

فقال الضابط في وجل :

سيدي فيها «سنغاليون» وفيها جنود من الفرقة الأجنبية .

فقال القائد مقاطعاً في حدة :

ولكن هل فيها فرنسيون أيها الأبله ؟

فقال الضابط في اضطراب :

أجل ياسيدي ، إن جُلّ رجال القافلة من الفرنسيين .

فازداد القائد ذُعْراً ، وجعل يهذي كالمحموم وهو يقول :

سوف أعرف كيف أؤدب هؤلاء الأوغادَ .

سوف أثأر لكل فرنسي من جنود هذه القافلة بمئة من الآمنين في القرى والمدن .

الفصل السادس

قبل أنْ يَبَرَّ القائد الفرنسي بقسمه ، على أنْ يثأر لكل جندي فرنسي بمئة من الآمنين المطمئنين في المدن والقرى ، وقبل أنْ يَشْفِيَ غيظ قلبه من أولئك العصاة الذين استطاع أربعة منهم أنْ يبيدوا قافلة كاملة من قوافله ، كان يريد لها أن تصل إلى منطقة «حارِمَ» لتنعم بما حفِلت به من طيب الثمرات ، وتتقلبَ فيما وهبها الله من وافر الخيرات ، وتتمتّع بما حباها من جنات وعيون ..

وقبل أنْ ينتهي من وضع خططه للحيلولة دون وقوع مثل هذه النكبة ، صكّت أذنيه أنباء كان لها وقع الصاعقة على نفسه ، وتناهت إليه أحداث كأنّها قطع الليل المظلم ، فرأى أنْ يئِدها وهي لَماً تزل في المهد ، ووجد أنْ يكتمها عن الناس، ضنّا بالهيبة أنْ تضيعَ ، وصَوْناً للجبروت أنْ يتضعضع ، وخوفا من الداء أن يستفحلَ ويستشريَ ، ولكن أنّى له ذلك ؟! . والخطب أعظم مما قدر ، والأمر أكبر من أن يبقى سراً ، يضطرب به صدره ، وصدر الفِئة المختارة من ضباطه وجنوده.

فما هي إلاّ أيامٌ قليلةٌ حتى ذاع في البلاد من أقصاها إلى أقصاها ما أراد القائد الفرنسي أنْ يبقيه سرّا ، وعرف الناس في «دمشقَ »وغير دمشقَ أنّ بَطلاً في أول العقْد الخامس من عمره قد أقضه مضجَعه أنْ تُسْتَبَاحَ مرابعُ بني أميةَ ، وسهّد جفنيه أنْ يُسْتَذَلّ الأعِزّةُ من أحفاد «صلاح الدين» ، وأثار حفيظته أنْ تغدوَ معاقلُ النسور

مواطن لبُغاث [1] الطير ، وأن تصبح مرابض ، الأسودِ مراحاً للذئاب ، فقام ليدفع الغُزاة عن الحمى ، ويصُد الطغاة عن العرين ، ويميطَ الأذى عن أرض الوطن الحبيب ، فترك كرسيه في رئاسة ديوان محافظة «حلب» ، وتوجه نحو قريته «الستّ عاتكة» في منطقة «كَفَرْتَخاريمَ» وقد أزمع أمراً ما خطر ببال أحدٍ من قبلُ .

دخل بيتهَ العريقَ الذي ورثه عن آبائه الكرام من آل «هنانو» ، فجمع نفيس أثاثه ، وثمين رِياشه وكدّسه في ظاهر القرية ، ثم توجه إلى إصْطَبْلاته ، فأخرج ما فيها من أدوات الفلاحة التي يستثمر بها أرضَه الطيبةَ ، وألقى بها فوق الأثاث والرّياش ، ثم أضرم النار في ذلك كله ، على ملأ من الناس ، ووقف القوم يُحَملقون بعيونهم استغرابا ، ويفتحون أشداقهم دهشة وعجباً ، وهم لا يجرؤون على مخاطبة هذا السيد النّبيل فيما يأتي من أمر ، فما عرفوا أن به مسّاً من جنون يصيبه من حين إلى آخر ، ولا جربوا عليه نزقاً يحمله على فعل ما ينكره العقلاءُ .

وأضاءت جوانبَ القرية نارٌ وقودُها الطرائفُ والنفائسُ ، واستمرت نصفَ يوم كامل تلتهم ما أُلقِيَ إليها بشراهة لاتعرف الشبع ، حتى استحال المتاع الغالي إلى رماد تَذْروه الرياح ، ثم توجه الرجل إلى مطحنة كان يملكها في القرية ، تدر عليه الرِّبح الوفير ، والخير الكثير ، فدمرها حتى أصبحت قاعاً صفصفاً كأن لم تَغْنَ بالأمسِ ، ثم أعلن الجهاد .

كانت النار التي أوقدها «إبراهيم هنانو» في متاعه بمثابة الشعلة التي أضاءت له ولمواطنيه طريق الحق والحرية .

فلقد كان يريد أن يقول لنفسه : لم يبق لك أيتها النفس ما تحرصين عليه من متاع الدنيا وعَرَضِ الحياة .

---

(١) البغاث : طائر صغير بطيء الطيران .

وكان يريد أن يقول للفرنسيين : لن أترك لكم ما تنهبونه من تراث الآباء ومخلفات الأجداد .

وكان يريد أن يقول للمواطنين : إن الثروةَ في أيدي المستعبَدينَ عُبودية ثانية ، وأنّ المضيم لا يُزْهى بقصره ورياشه ، كما أنّ الميت لايزهى بقبره وأكفانه .

وخرج «هنانو» من الدنيا كيوم ولدته أمه ، لايملك إلاّ أنفاً[1] حَمِيًّا ، وقلباً ذكيًا ، ودماً يجري في عروقه طاهراً ، وعزّمةً تتوقد في صدره ، فتملأ قلوب أبناء الوطن قوة وأملاً ، وقلوب أعداء الوطن رعباً ووَجلاً .

وأرسل «هنانو» صرخته المدوية : أنْ حيّ على الجهاد ، حيّ على الجهاد ، فانطلقت قوية كالحق ، نفّاذة كالصدق ، ورددت أصداءها روابي «كَفَرْ تَخَارِيمَ» وضمّخت طيوبُها جبال «حارِمَ» وسهولَ «سَلْقِينَ» واستجاب لها فتيةٌ أبرارٌ ، عرفوا بصدق العزيمة ، وقوة الشكيمة ، وعزة الإباء ، وحسن البلاء .

مدوا أيديهم إلى البطل المجاهد . يعاهدونه على الجهاد والصبر ، ويُواثقونه على الإذْعان والطاعة ، حتى لو خاض بهم لجّةَ البحر لخاضوها معه ، وهم يرجون أنْ ينتصروا على عدوهم أو يفوزوا بالشهادة . فيَلقَوْا وجه ربهم راضين مرضيين .

واطمأن الموسرون إلى صدق دعوة «إبراهيم هنانو» فمدوا أيديَهم إليه بالمال يبذلونه في سخاء لايضنون به ولا يبخلون .

ولقد كان على «هنانو» أنْ يسابق الزمن ويعاجل الأحداث ، فبادر إلى الاجتماع بمن انضوى تحت لوائه من المجاهدين ، وقرّر أن يخوض بهم غمار موقعة فاصلة تُمَكّن له ولحركته في البلاد ، وأنْ يباغتَ حاميـة «كَفَرْ تَخَارِيمَ» في

---

(1) الأنف الحمي : كناية عن العزة والإباء .

مُعَسكرها ، وأنْ يغزوَها في عُقْر معقِلها علّه يتمكن من إجلائها عن المنطقة ، ليجعلها مُستقرًا لحركته ، وعاصمةً لحكومته .

وتبادل المجاهدون الرأي ، فوَجدوا أنه ليس باستطاعتهم أنْ يلْقَوْا عدوهم في معركة كبرى تُستعمل فيها البندقيات والمدافع ، لأن العدو وافرُ العدة كثيرُ العتاد .

أما هم فلا يملكون إلا قليلا من العَتاد ، ويسيراً من الذخيرة ، ومن هنا كان عليهم أنْ يجعلوا المعركة الأولى بالسلاح الأبيض ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، وأدركوا أنهم إذا لم يحرزوا في هذه الموقعة نصراً حاسماً فسرّْعان ما يتلقى عدوهم من عُدة الحرب مالا قِبَلَ لهم به . ويصل إليه من المدد مالا طاقة لهم بلقائه . وسَرعان ما يجُد دعاةُ السوء – ممن في قلوبهم مرض – ثُغْرَةً ينفذون منها إلى تَوْهين القوى ، وتثْبيط العزائم ، فتبوء الحركة بالخِذلان .

لذلك أجمعوا أمرهم على أنْ يضربوا عدوهم ضربة قاصمة مهما يكن الثمن غالياً .

قسّم القائد رجاله – وكان عددُهم لماّ يتجاوز الأربعينَ – إلى أربع فرق ، وجعل لكل فِرقة نقيباً ، وحدد لكل نقيب مكانَه وعمله ، واتخذ أذان الفجر موعِداً لبدْء الهجوم .

فأذان الفجر لايثير في نفوس القوم ريبة ، ولا يحرك عندهم هاجعاً .

وفي الهَزيع الثاني من الليل حيثُ كان الظلام مُدْلَهِماً ، والريح الصرّْصرُ [١] تعْوِل وتزمجر ، والمطر المنْهمِر يصفع الوجوه صفعاً ، خرج الكُماة الأباة من مكانهم في يقظة وحذر ، وتسللوا نحو مواقعهم في خفة وحَماسة ، فقد كان عليهم أنْ يطوّقوا المعسكر من جهاته الأربعِ ، وأن يحيطوا به إحاطة القيد بالمعصم ، ولما أصبحوا

---

(١) الأراقم : الأفاعي .

قريباً منه ، انبطحوا على الأرض . وجعلوا يزحفون نحوه كما تزحف الأراقم [1] في لفحة الهاجرة ، حتى إذا بلغوا الأسلاك الشائكة التي ضُرِبَتْ حوله أخرجوا مقاريضهم من جيوبهم ، وأخذوا يقرضونها سلكاً بعد سلِك ، فيضيع صوتها في عويل الريح ، وعَجيج المطر .

ولما اطمأن كلٌ منْهم إلى أنّه شقّ طريقاً ، التصق بالأرض وتلبث ينتظر .

وما أن ارتفع صوت المؤذن ينادي : اللّه أكبر اللّه أكبر ، حتى انطلق النسور إلى قلب المعسكر كما تنطلق السهام من أقواسها . وانقضوا على عدوهم كما تنقض الصواعق على مساقطِها ، وباغتوه بأسنتهم وخناجرهم ومُداهم ، فاستيقظ العدو خائفاً مذعوراً ، وهب ذاهلاً مضطرباً وهو لايعلم أهَبَطَ عليه هؤلاء من السماء ، أم نبعوا له من الأرض ؟!!

وهاجم المجاهدون عدوهم هجوم المستبسِل المستميت ، ودافع الفرنسيون عن أنفسهم دفاع المستبسل المستميت أيضاً .

ودارت بين الفريقين رحى معركة ضروس اختلطت فيها أنّات القتلى بصليل النصول ، وامتزجت عندها صيحات المكبرين بأصوات المذعورين ، ونهلت فيها أسنة المجاهدين من صدور أعدائهم حتى رويت .

ولم يمض كبير وقتٍ حتى كتب اللّه لجنده النصر ، وطُهِّرت تلك البقعة من رِجْسِ الطغاة ، وغنم المجاهدون من الذخيرة والسلاح ما يعينهم على مواصلة الكفاح، وبلغوا من ثقة المواطنين ما يمكنهم من متابعة النِّضال ، وأقبل المتطوعون عليهم من كل حَدَب وصوب ينتظمون في صفوفهم ، وينضوون تحت لوائهم .

أما القائد الظافر فلم يسكر بحُميّا انتصاره ، ولم يَشْغَلْهُ فوز يومه عن أمر غده .

---

(١) الأراقم : الأفاعي .



إبراهيم هنانو

فبادر إلى إعلان مدينة «كَفَرْ تَخارِيم» عاصمة لحكومته ، وعيَّن لها حاكماً يسوس الرعية بالحكمة ، وأنشأ فيها محكمة تفصل بين الناس بالعدل ، وسمى لها شرطة تكفُل للمواطنين السلامة والأمن ، وأقام فيها إدارة تجبي الأموال ، وتزودّ المجاهدين بالمؤونة والعتاد ، ثم زحف منها على «سَلَقينَ» وخاض مع حاميتها الفرنسية معركة كانت أشدّ ضراوة من معركة «كفرْ تَخارِيم» ، لأن العدو كان في هذه المرة يقظان متأهباً .

ولكنها الهزيمةُ تجر الهزيمةَ كما يجر النصرُ النصر . فسقطت «سَلَقينُ» في يد «هنانو» بأسرعَ مما قدر . وضمها إلى حكومته كما تنضم حبة العِقْد إلى أختها ، ولم يكن آنذاك قد مضى على قيام الحركة غير ثلاثة أيام .

الفصل السابع

تلقت البلاد السورية خبر اندلاع ثورة «هنانو» على «فرنسا» في الشمال كما تتلقى الأرض العطشى وابل الغيث ، وتتبعت أنباءها كما تتتبّع الأم الحانية أنباء وحيدها الغريب ، وكانت العاصمةُ «دمشقُ» أشدَّ المدن وُلُوعاً بها ، لبعدها عن مكان الثورة ، ومبالغة الفرنسيين في كتمان أَحْداثها عنها ، خشية أن تندلع فيها النار هي الأخرى ، فيقعوا بين نارين إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب .

ولم يكن أهل القرى المحيطة بـ«دمشقَ» - بما فيها «حَرَسْتا» - أقل تطلعاً من سكان العاصمة إلى تَلَقُّف ما يجري في الشمال ، فهم إذا لم تُتِحْ لهم جراحهم أن يثأروا لشهدائهم في «ميسلون» حتى ذلك الحين ، فَلْيسترِقوا السمع من هنا وهناك ، وَلْيَتَسَقَّطُوا أخبار إخوتهم في الشمال ، فعلى أيديهم سيكون الثأر ، وعلى شفرات سيوفهم ستسيل نفوس الطغاة المعتدين .

ولم تكن نساء هذه القرى أَقَلَّ ولعاً بأخبار الثورة من الرجال ولا أدنى تأثراً بهاء فهن قد أسهمن في معركة «ميسلون» كما أسهم الرجال ، وذقن من مرارة التجربة ماذاقوا ، بل إن بينهن من اكتوت بنارها على وجه لم يُكْتَب لغيرها من الجِنس الآخر .

فتلك أُم فقدت وحيدها وهي لم تمتع نفسها بعد بنضارة شبابه .

وهذه زوج فُجعت بزوجها وقد كان ملءَ السمع والبصر .

وتلك أخت صرع الأجنبي أخاها فأفقدها العَضُدَ والنصير .

وكانت «رتيبة» واحدة من هؤلاء النسوة اللواتي يَتَنسَّمْنَ الأخبار ويحرِصن على اقتفائها أبلغ الحِرصِ ، حتى أنها لم تكن تفقد بعض رصانتها ورزانتها إلا حين تجري وراء هذه الأخبار وتسعى إليها .

وكانت «رتيبة» تبدو يوماً باسمة الثغر ، طَلْقَةَ المُحَيَّا ، خفيفة الحركة حتى لَيعجب منها الرائي ويظن بها الظنون ، ثم تظهر في يوم آخرَ عابسة الوجه ، مُستوفِزَةَ الحس ، سريعة الغضب ، حتى يُخيَّل للمرء أنه قد أَلَم بها مكروه .

ولم يكن بها شيء من هذا ولا ذاك ، وإنما كانت تعيش مع هذه الأخبار بنفسها وحسِّها ، فإذا عرفت أن أبناء قومها قد انتصروا فَرِحَت أشدّ الفرح ، وإذا علمت أنهم خسروا حزنت حتى يوشك أن يقضيَ عليها الحزن .

وكانت «رتيبة» تتمنى أن لو قامت هذه الحركة في الجنوب إذَنْ لسمعت بأخبارها عن كثَب ، ولقدّمت لهؤلاء المجاهدين عباءات من صنع يديها ، تقيهم حر الصيف وبرد الشتاء ، وتُعينهم على مواصلة الجهاد . ولكنَ أنّى لها ذلك ؟ وبينها وبين مواطن هذه الحركة أبعادٌ شاسعةٌ ، وأماكنُ لم تطأها قدماها من قبل .

وكانت أخبار «هنانو» ورجاله تصل إلى «حَرَسْتَا» وما يحيط بها من قرى «الغوطة» عن طريق شبابها الذين كانوا يسعَوْن في الأرض ابتغاءَ لقمة العيش ، ثم يعودون إلى أهليهم وفي جعبتهم قليل من الرزق وكثير من الأخبار ، ومن أولئك المسافرين الذين يمرون بهذه القرى وهم في طريقهم بين «حلبَ» و «دمشقَ» ، حيث يتركون وراءهم نُتَفاً عن أخبار القتال بيدَ أنها نُتَفٌ مضطربة متناقضة .

فقد عمد الفرنسيون إلى محاربة «هنانو» في ميدان الدعاوة كما كانوا يحاربونه في ساحات القتال ، وجعلوا يشيعون عنه وعن حركته قَالَةَ السوء ، وأُخذوا يُشوهون انتصاراته الكُبْرى ويُحَوِّلونها إلى هزائمَ منكرة .

وقد أقضّ مضاجعهم أن أخبار الثورة كانت على الرغم من ذلك كله تصل إلى مناطق الجنوب بصورة متتابعة ، حتى لكأن «هنانو» قد اصطنع لحركته جهاز دعاوة خفي .

ولم يكن يروي ظمأ «رتيبةَ» إلى أخبار المجاهدين غير «الحاجّ» ذلك البائع المتجول الذي كان يفد على القرية مرة في الشهر أو مرتين ، يحمل على حماره الأبيض ألواناً من صعتر[1] «حلبَ» الشهي ، و صابونها المصنوع من زيت الغار[2] و (بيلونها)[3] المطيب ، ومكانسها الشهيرة ، وما إلى ذلك مما يؤثره سكان الجنوب من صنع أهل الشمال .

ويحمل منها ومما حولها إلى قرى «حلبَ» الفاكهة المجففة و (قمر الدين) الأشقر وغير ذلك مما يروج في الشمال .

وقد كان «الحاجّ» قويّ الهمة وافر النشاط على الرغم من أنه يسير نحو الكهولة ، وكان كريم اليد سَمْحاً في بيعه وشرائه مع ما يظهر عليه من إقتار في الرزق ، وكان ذكي الفؤاد عذب الحديث حاضر البديهة على الرغم مما يبدو عليه من الأمية .

---

(١) الصعتر : ويسميه العامة الزعتر : نبات ذو أوراق عطرية تجفف وتطحن وتؤكل مع الخبز والزيت .

(٢) الغار : شجر يستخرج منه زيت طيب الرائحة يستعمل فى صنع الصابون .

(٣) البيلون : تراب منظف .

وقد أصبح «الحاجُّ» على الرغم من قرب عهده بالقرية - مُحبّباً لدى الكبار والصغار ، يأنسـون إليـه ويرتاحـون إلى معاملته ، ويثقون به كما كان يثق هو بهم أيضاً.

فقد كان إذا نودي لصلاة من الصلوات ، ترك البيع ، وربط حماره عند باب المسجد وأبقى ما عليه من بضاعة مكشوفاً تحت أعين الناس وفي مُتناول أيديهم ، ودخل إلى أداء الفريضة غير عَجْلانَ ولا مرتاب .

وكانت «رتيبة» تترقب مَقْدَمه كما يترقب الصبية الصغار مَقْدَم العيد ، فهي قد اعتادت أنْ تبيعه عباءاتها بثمن حسن ، وأن تشتري منه بعضاً مما يحمله من طيباتِ «حلبَ» ، وأن نسمع عقب وصوله إلى القرية فيضاً من أخبار حركة الشمال يلقيها نُتَفاً هُنا ونُتفاً هناك فلا تلبث أن تتجمع وتصبح رواية متناسقةً متكاملةً .

حقّا إنّ «الحاجّ» لم يَطْلُعْ على الناس في القَدْمَةِ السابقة بجديد لا يعرفونه ، أما في هذه المرّة فإنهم عرفوا منه الشيء الكثير :

فلقد شاع بينهم أن الزعيم «هنانو» بعد أن أرسى قواعد حركته في منطقتي «كَفَرْ تَخارِيمَ» و «سَلَقِينَ» ، اتخذهما مُنْطَلَقاً إلى غاياته الكبرى ، فخاض مع الفرنسيين عدداً من المعارك الضارية كان ينتقل فيها من نصر إلى نصر ، بينما يبوء خصمه العنيد بالخِذلان بعد الخِذْلان .

وقد أغراه ذلك بأن يمد رقعة القتال إلى جبال «الزّاويَة» حيث الحصونُ المُمنّعةُ التي بنتها أيدي الدهر بقوة وإحكام ، والمسالكُ الوعرةُ التي خطّتها سواعد الأنواءِ بقسوة وعنف ، والقرى المُمرّدَةُ [1] التي أقامها الأجداد على القمم والسفوح،

(١) الممردة : المرفوعة المسواة .

وكأنهم أعدوها لتصمد في وجه العدوان ، ثم أسكنوها من ذريتهم رجالا أشداء ، أخذوا عن الصخر صلابته ونقاءه ، وعن الذُّرى شموخها وإباءها ، وعن المسالك الوعرة تمردها وعزتها .

هنالك في جبل «الزاوية» وقف «إبراهيم هنانو» وقفتَه الثانيةَ بعد أن سبقته إلى المنطقة أخبار انتصاراته ، وهتف في الناس بهُتاف الحرية والمجد ، فما أسرع أن ردد الصيد الكماة نداءه ، وقالوا : لبيك «إبراهيمُ» ، لبيك «أبا طارق» ، وجعلوا يتدفقون عليه من كل حدب وصوب لينضووا تحت لوائه ، وهم لا يرجون غير مجد الوطن ، ولا يبتغون إلا مرضاة الله .

لقد توافرت لـ«إبراهيم» السواعد القوية المفتولة ، والقلوب الطاهرة المؤمنة ، والنفوس الطيبة الزكية ، بيّد أن المعضلة الكبرى كانت في الحصول على الذخيرة والسلاح ، وهما وقود الحرب ، وعدة النصر ، فلقد عقد الفرنسيون العزم على أن يَسدّوا عليه أبواب الحصول على العتاد باباً بعد آخرَ ، ووجدوا أن هذه هي وسيلتُهم الوحيدةُ للقضاء على حركته ، بعد أن يئسوا من إخماد نارها عن طريق المعارك ، وصمموا على أن يخوضوا معه غمار موقعة حاسمة يكون أعظمَ جندهم فيها فَقَدُ الذخيرة عنده .

وهبّ «إبراهيم» يبحث عن أيّ سلاح في أيِّ مكان بأيِّ ثمن وانطلق نفر من رجاله يضربون في الأرض ابتغاء ذلك .

ولقد كان يَعْجبُ «هنانو» أشدَّ العجب من تأخُّر عدوه عن منازلته مع ما يعرفه من نقص السلاح عنده ، فجاءت عيونُه المبثوثةُ في كل مكان تحل اللغز وتقول له : إن القيادة الفرنسية في المنطقة تشكو من نقص العتاد كما نشكو نحن ، وإنها بعثت تطلب المددَ من القيادة العامة ، لتخوضَ معنا معركتها المأمولةَ المُرَجَّاة .

اهتم «هتانو» بهذا النبأ اهتماماً بالغاً ، واختار صفوةً من رجاله أولي بأس وقوة، وأرسلهم في مهمة سرية خطيرة بعد أن اجتمع إليهم طويلاً ، وناقشهم في طبيعةِ العمل الذي أنيط بهم ، ورسم معهم خطوطه الكبرى ، وزوّدهم بتوجيهه ، ورجا لهم النجاح والتوفيق .

جهزت القيادة الفرنسية العامّة قافلة جرّارة ضخمة مؤلفة من ثلاث مئة وستين جملاً ، حمّلتها ضروباً من أحدث الأسلحة وأشدّها فتكاً ، وصنوفاً من أجود الذخيرة وأقواها تدميراً ، وكميات من أفضل ما يملكه الجيش الفرنسي من عتاد الحرب ، وبعثت بها إلى أرض المعركة ، وأرسلت مع القافلة كتائبَ مُصْطَفَاةً من خيرة جنودها لتحميهَا من الغوائل التى قد تَعْترِضُ سبيلها في طريقها الطويل ، وتوصلها سالمة إلى مأمنها ، ثم تنضم إلى فرق الجيش الفرنسي العامل هناك .

وقد شاء الله أن يعرف المغاوير بن أمر القافلة ما يجب أن يعرفوا ، بعد بحث عرّضهم للخطر أكثرَ من مرة ، وأن يقفوا على الطريق الذي سلكته بعد أن كادوا يَنْفُضونَ أيديَهم يأساً منها . وأخذوا يتتبعون خطاها وهي لا تعلم من أمرهم شيئاً ، وجعلوا يُحصون رجالها ، ويتدارسون أوضاعها ، ويوازنون بين ضعفهم وقوتها ، وقلة وسائلهم ووفرة وسائلها .

وقد صح عزمهم على أن يتركوها تقطع الشطر الأكبر من الطريق علّه يدركها الإعياء وينال منها الجُهْد ، وأن يتربصوا بها حتى تبلغ موقعاً ملائماً يتيح لهم الهجومَ عليها ، والظَّفَرَ بها .

وكانت القافلة تُغذُّ[1] السير لتقطع (الجبل الوَسْطَانِيَّ) قبل أن يجنَّ عليها الليلَ فتُضْطرَّ للمبيت في تلك المنطقةِ الموحشةِ ، التي حذّر العارفون قائدَ القافلة من

(١) تغذ السير : تسرع فيه .

جوها القارس ، وخوّفوه من وحوشها الكاسرة ، وبصّروه بما يَكْمُنُ في مسالكها الوعرة من مخاطر .

وكان المجاهدون يتمنّون على الله أن تُضْطَرّ القافلة إلى المبيت فيها ، فتلك فرصتُهم السانحة التي لا تخيب ، وهذه بغيتهم التي طالما رَجَوْها منذ أخذوا يقتفون آثار القافلة .

ولقد زادهم رغبة في أن يلْقوا عدوهم في هذا المكان أنّ عدداً كبيراً منهم كان من أبناء المنطقة نفسها ، ربُّوا في أكناف جبالها كما يُربيّ الأبناء في حجور آبائهم ، وعرّفوا مداخلها ومخارجها كما يعرفون بيوتهم .

وَدَهَمَ اللّيلُ القافلةَ قبل أن تتمكن من اجتياز المنطقة ، فوجدت نفسها أمام مسالك متداخلة لاتعرف أين تذهب بها ، ورأت أنه لا بُدَّ لها من أنْ تبيت فيها ، ثم تستأنف السير في ضوء النهار المُبْصِرِ .

أنَاخَت القافلة جمالها إلى الأرض ، غير أنّها لم تُلْقِ الأحمال عن ظهورها ، والتجأ كل ثلاثة من رجالها إلى جمل ألصقوا أجسادهم بجسمه طلباً للدِّفءِ ورغبةً في الحماية .

وما كاد يستقر قائد الحملة ورجالهُ قليلا على الأرض ، حتى تأكدوا من صحة ما قيل لهم من قبل .

فالمنطقة تعصف فيها ريحٌ صرصرٌ عاتيةٌ ، تنْزَع الناس كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهي تهبُّ من الجهة الغربية في اتجاه الشرق قويةً شديدةً ، ثم لا تلبث أنْ تصطدِمَ بالجبال فتتحولَ عنها إلى المعابر ، وتتجمعَ فيها عنيفة كاسرة .

وبنات آوى تعوي عُواءً كئيباً لا يهدأ ولا يفتُر ، فهي تتناوب العُواء فيما بينها جماعة بعد جماعة وكأنها على اتفاق على ذلك .

وأخـذت ظلمـة الليل الداجي ، وإعْوالُ الريح المخـيفُ ، وعُواء بنات آوي الكئيبُ تفعل في الجنود فعلها فتثيرُ في نفوسهم الخوف وتبعث في أجسادهم القشعريرة .

ولما اطمأنَّ المغاوير إلى أن القافلة قد استقرت في المكان الذي يرجون ، رسموا خِطَّتَهُم بسرعة نادرة ، واقتسموا ما معهم من ذخيرة اقتساماً عادلاً ، ووزعوا أنفسهم على المواقع توزيعاً محكماً ، واتخذوا من الصخور المبثوثة في كل شبر من الأرض متاريسَ يحتمون بها ، وأطلُّوا على عدوهم من جهات ثلاث .

أما الجهة الرابعة فقد كانت تشرف على منحدر سحيق ، لو قدر لرجال القافلة جميعاً أن يَهووا فيه لما نجا منهم أحد .

تسلل المغاوير في يقظة وحذر حتى بلغ كلٌّ منهم مَكْمَنَهُ ، وصوبوا بندقياتهم من خلف الصخور نحو صدور أعدائهم ، وتلبثوا ينتظرون الإشارة بإطلاق النار .

وما أن أطلق قائدهم الرصاصةَ الأولى حتى فتحوا أفواه بندقياتهم على القافلة في شدة وضراوة ، وأمطروها وابلاً غزيراً من رصاصهم المُسْتَعِرِ ، فهبَّ جنودها وَجِلينَ مذعورينَ ، وقد اختلطت صيحات قتلاهم بأزيز رصاص المجاهدين ، ومدوا أَيْدِيَهُم إلى مدافعهم الرشاشة ليردوا النار بعشرة أمثالها ، فلم يجدوا أمام عيونهم غير الصخورِ الملس ، وفوهاتِ البندقيات التي تقذف الموت .

وحاول الجنود أن يفروا بأرواحهم من ساحة المعركة ، فرأوا أن المجاهدين قد سدوا في وجوههم السبل ، ولم يتركوا أمامهم غير ذلك المنحدر السحيق ، وأَلْفَوْا أنفسهم مضطرين إلى الصمود في أماكنهم ، وإطلاق رصاصهم المسعور في كل اتجاه ، إذ لم يكن لهم هدفٌ معيّنٌ يصوبون مدافعهم نحوه .

واستطاع المجاهدون أن يكشفوا في ضوء القذائف التي أطلقها الفرنسيون ساحة المعركة ، وأن يروْا عدوهم رؤية واضحة ، وأن يقفوا على مدى ما أُوْهنوا من جَلَدِه ومبلغِ ما أنقصوا من عَدَدِه .

ولما نفدت الذخيرة كما كان مقدراً لها من قبل ، وثب المغاوير على عدوهم كما تثب الأسود على فرائسها ، وانقضوا عليه من الذرى كما تنقض الصقور على صيدها ، وتدافعوا إليه من المرتفعات كصخور حطّها السيل من علٍ ، وامتشقوا في وجهه سلاحَهم الأبيضَ ، فجعل يلتمع في أيديهم كما تلتمع الشهب في ظلمة الليلة الحالكة ، وخاضوا معه معركة قلّما عرف تاريخ الحروب ما هو أشدّ منها شراسة وبأساً، فلقد الْتفّتْ فيها السواعد بالسواعد ، والْتحمَت الصدور بالصدور ، واعتنق الرجال مع الرجال ، ولم تعد تسمع في ساحة القتال إلاّ زمْزمةَ[1] المهاجمين ، وهَمْهمةَ المدافعين وأناتِ الجرحى ، وصرخات القتلى وصليلَ النصولِ على العظام .

وأسفر الليل عن صبح أغرّ قلما شهدت له أصْباحُ تلك المنطقة مثيلا ، وانجلت المعركة عن يوم كتب الله فيه لجنده العزة والنصر ، وقضى على عدوه بالإبادة والخذلان .

ووقف المجاهدون يؤدون لله صلاة الشكر ، وهم لايكادون يصدقون أن مثلَ هذا العدد الكبيرِ من قتلى العدو يمكن أنْ يقع في ليلة واحدة ، وأن هذه المقاديرَ الهائلة من ذخيرته وسلاحه قد غدت ملك أيديهم ، وأن ثلاثَ مئة وستين جملاً – بعدد أيام السنة كلها – قد وقعت بما عليها من العدة والعتاد غنيمة في أيديهم .

تباركتَ يارب فكم من فئة قليلة غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله ، والله مع الصابرين .

---

(١) الزمزمة : الدوى وضجيج الرعد أيضاً .

الفصل الثامن

هزت هذه الأنباء نفوس الناس جميعاً ولاسيما «رتيبةَ» ، وأخذوا يرددونها مرات ومرات ، فلا يَملون روايتها، ويتفننون كلَّ مرة في تنميقها ما وسعهم التنميق، وجعل الواحد منهم يستمع إليها مثنى وثُلاثَ ورُباعَ بشوق وكأنه لم يسمعها من قبل .

غادر «الحاجُّ» القريةَ بعد أن باع ما باع ، واشترى ما اشترى ، وبعد أن ترك وراءه من الأخبار ما ملأ القُرى ، وشغل الناس ، وطالت غيبته هذه المرة حتى ظن أهل «حَرَسْتا» أن مكروهاً قد أصابه ، أو أن قرية أخرى قد استطاعت أن تجذبه إليها، وتغريه ببيع تجارته فيها .

وفي ذات صباح سمع أهل «حَرَسْتا» صوتَ «الحاجِّ» ينادي على بضاعته فما أسرع أن خفوا إليه ، وما أكثر ما ألْقَوا عليه من الأسئلة ولكنهم لم يفوزوا منه بما ينقع غُلّتَهم ولم يجدوا عنده ما يروي ظمأهم إلى معرفة أخبار المجاهدين في الشمال

بيد أنه ما كاد يُمضي بينهم يوماً واحداً حتى ذاعت في القرية أنباء مثيرة ، فلقد روى الناس أن «هنانو» بعد أن ظفِر بالسلاح والعتاد إثْر معركة القافلة الشهيرة ، بادر إلى تدريب رجاله على الأسلحة الحديثة ، وعكف على تنظيمهم من جديد ، وخاض بهم مع الفرنسيين عدداً من المعارك الظافرة ، كان أكبرهَا خطراً وأبعدهَا أثراً معركةُ «جبَل الأرْبعينَ» .

و «جبل الأربَعين» هذا قطعةٌ من جبل «الزّاوِيَة» ، خلَعَتْ يد البارىء المصور عليه أزهى الحلل ، وزانته بأجمل الوشى .

يُقبلُ الربيع فيشتعل بالنُّور الأبيض ، نَوْرِ المَحْلَبِ والكرَزِ ، ويلمُّ الصيف فيستحيل الزّهرُ النّضيرُ إلى ثمر متألِّق ، تتدلى حباته الحُمْرُ من بين أوراق الأشجار كما تتدلى الأقراط من آذان الحسان ، وتحت سفح الجبل الأشم يمتدّ سهل منبسط ، دبّجتهُ يد القدرة الإلَهية بالأخضر والأصفر من نضير الزرع ، فبدا كبساط رائع الأصباغِ بهي الرُّواء .

وعند نهاية الجبل وبداية السهل ترقدُ بلدة «أرِيحا» عروس مصايف الشمال آمنةً مطمئنةً تسند رأسها إلى سفحِ الجبل وتُريح جسدها وقدميها على السهل ، وتمد يمناها إلى الحقول فتصيب منها حصيداً وحبًّا وترفع يسراها إلى الروابي فتتناول منها فاكهةً وثمراً ، متاعاً لها ولمن حولها من سكان المدن والقرى .

وقد ربض المجاهدون على ذرَى «جبل الأربَعين» كما تربض الأسْدُ في غيلها، واتخذوا من حصونه المُمنَّعةِ معاقِل تقيهم هجمات العدو ، ومن مغاوِرِهِ المنحوتَة في الصخر مخازِنَ لمؤونتهم ، ومشافِيَ لجرحاهم ، أما السهل فقد احتله الفرنسيون .

وهكذا فقد وقعت بلدة «أريحا» بين فكي (الكماشة) فالمجاهدون في أعلاها والفرنسيون في أسفلها .

وقد عزم الفرنسيون على اختراقها وهم في طريقهم إلى لقاء الكُماة في الجبل الأشم واتخاذ مبانيها درعاً يقيهم رصاص الأبطال ، وسَعَوْا إلى إشراك المجاهدين معهم في تدمير البلد الطيب الوادع ، وتخريب بيوته على رؤوس السكان الآمنين من النساء والشيوخ والأطفال ، ليثيروا نقمة الشعب على حُماته ويوغروا صدور الناس على

الذّادةِ عنهم ، ويقضوا على روح التعاون معهم ، ويحولوا دون إمدادهم بالقوت والمؤونة .

وبدا أن الفرنسيين قد أصابوا نجاحاً في خطتهم الخبيثة هذه ، فقد مهدوا لهجومهم الكبير بحمَمٍ من قنابل مدافعهم قذفوها ذات اليمين وذات الشمال ، فبلغ بعضها الجبل ، وسقط بعضها الآخرُ على المدينة ليزرَع فيها الهلاك والموت زرعاً ، وأطلقوا طائراتهم في الجوّ لتُلقيَ الدمار على الأرض وتبعث الرعب في النفوس .

وعزم المجاهدون على صدّ الغزاة عن العرين مهما يكن الثمن غالياً ، ودارت بين الفريقين معركة عنيفة ما لعنفها نهايةٌ ، ضاريةٌ ما في ضراوتها هوادةٌ ، وكثر بين الفريقين الهجوم والدفاع ، وتوالى على ساحة المعركة الكرّ والفرّ ودارت الحرب سجالا لم يُكْتَبْ فيها لأيٍّ من الفريقين نصرٌ حاسمٌ .

وتحقق للفرنسيين ما أرادوه فأصبحت البلدة الوادعة ملتقًى لقذائف العدو ورصاص المجاهدين في وقت معاً ، وغدت عرضةً للتدمير بأيدي الأبناء والأعداء على السواء .

ورأى الحُماةُ ما سينزل بالمدينة المجهودة من هلاك ، وعَرَفوا أن استمرار المعركة على هذا النحو سيقضي عليها قضاءً مبرماً ، وأن في ذلك هزيمةً لهم أمام مواطنيهم: مهما تكن النتائج العسكرية التي ستسفر عنها المعركة ، لذلك صمم المجاهدون على أن يفعلوا شيئاً من أجل إنقاذ المدينة من مصيرها المحتوم .

وما هي إلاّ ساعة أو بعض ساعة – والحرب قائمة على قدم وساق – حتى فوجىء الناس بارتفاع عدد من الرايات البيض على سطوح بعض المنازل في المدينة علامة التسليم . وما أن رآها الفرنسيون حتى كفوا عن إطلاق النار وفرحوا بهذا النصر الهين الرخيص فرحاً كبيراً ، وما أن رأى المجاهدون توقف عدوهم عن القذف حتى امتنعوا عن إطلاق النار هم أيضا ، واستبشروا بنجاة المدينة .

ثم ما أسرع أن أمر «أبو طارق» رجاله بالانسياب من شعاب الجبال المتفرقة نحو السهول حيث يعسكر العدو ، بعد أن حدد لكل فرقة مكانها وعملها .

وما أسرع ما وجد الفرنسيون جموعهم مطوقةً من كل جهة، وما أشد ذعرهم حين سمعوا عدوهم يهلل ويكبر بصوت أجَش يشق الأسماع والقلوب شقًّا ، وما أعظم خيبتهم حين وجدوا أنفسهم مسوقين إلى خوض معركة جديدة ، لا تستند إلى المدافع التي يملكون منها مالايملك عدوهم ، ولا تعتمد على الطائرات التي كانت تحميهم وتشد أزرهم ، وإنما تعتمد على الحُسام المسلول ، والساعد المفتول ، والقلب العامر بالإيمان ، والنفس التواقة إلى لقاء وجه الله ونيل مرضاته .

عند ذلك عرَفَ الفرنسيون أن الرايات التي رُفعت إنما كانت من خُدَعِ الحرب ، وأن هؤلاء المجاهدين الذين امتشقوا سيوفهم في سبيل الله ماكان لهم أن يُغْمِدُوها وفي عروقهم دماءٌ تتجدد ، وفي صدورهم نفس يتردد .

ودارت بين الفريقين معركة ضروس الأنياب عبوسُ الوجه أبدى المجاهدون فيها من ضروب الشجاعة ما سيظل مكتوباً في تاريخ البطولات إلى الأبد .

فلقد كان على كل مجاهد منهم أن يلقى عشرة من الفرنسيين وأن يتغلب عليهم ، وبغير ذلك لن يكتب لهم الفوز .

وكان الأبطال كلما استشعروا هول المعركة ، وخافوا أن يُفْلِتَ من أيديهم النصرُ انطلقت من أفواههم صيحة : الله أكبر ، الله أكبر ، فرددت صداها البِطاحُ والرَّوابي ، وبعث رجعها في قلوب الكماة الحمية والإيمان ، وأثار هديرها في سواعدهم القوة والعزم ، وأضاء لألاؤها أمام أبصارهم أبواب الجنة فيتدافعون نحوها كما يتدافع الظِّماءُ إلى الماء في يوم قائظ ، ولسان كل منهم يردد قولهَ جلَّ شأنُه : « وعَجِلْتُ إليك ربي لترضى » .

وبينما كانت المعركة مستعرة الأوار ، محتدمة اللّظى ، اكْفَهَرّ وجه السماء بعد إشراق ، وتلبدت صفحتها بالغيوم الدُّكنِ بعد وضاءة ، وهبّتْ من الجنوب ريح صرصرٌ عاتية تصفع الوجوه صفعاً ، وانهمر من السماء بَرَدٌ ما عرفت مناطق الشمال أشد منه وقعاً ، ولا أكْبرَ حجماً ، ولا أصلب جسماً ، واختلط إعوال الريح بأصوات وقع البرد على الأرض ، وامتزج تَجَهّمُ الجو بعبوس المعركة ، واشتجرت لسعات البَرَدِ مع حزّ المدى والخناجر ، والتقى دَوِيُّ التكبير مع هزيم الرعد ، فخيل إلى المجاهدين أن الله قد أمدهم بجنود لم يروها ، فازدادوا قوة على قوة ، وحسب الفرنسيون أن السماء تظاهر الأرض في حربهم فزُلْزِلَت نفوسُهمْ ، وألقى في قلوبهم الرعب .

واشتدت صَدْمةُ الحرب ، ووطأة البرد على الفرقة «السنغالية» من جند العدو ، فَوَلّوْا أدبارهم مذعورين خائفين ، ورفعوا أيديهم متخاذلين مستسلمين .

وكما يتداعى البُنْيانُ إذا انقضّ ركن من أركانه أخذت تتساقط قوى العدو قوةً بعد أخرى وتستسلم كتائبه كتيبةً بعدَ كتيبة فأسر المجاهدون من استسلم ، وأجهزوا على من صمد وكابر ، وانجلت المعركة عن نصر فرحت به قلوب الذين آمنوا فازدادت إيماناً ، وانكشفت السماء عن وجه طَلْق ضاحك وأفق متألق وضاح .

ووقف القائد العظيم في أرض المعركة يؤدي صلاة الشكر ، ويمرّغُ جبينهُ على ثرى الوطن الحبيب عرفاناً بما أفاء الله عليه وعلى جنده من غنيمة ونصر .

وقاد «هنانو» أسرى المعركة إلى معقل الجبل الأشم أسراباً أسراباً ، وعاملهم كما عامل «صلاح الدين» أسلافهم يوم «حطينَ» فأكرم مثواهم ، وداوى جرحاهم وأطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف .

وكان فيهم عدد من ذوي المكانة والرأي ، فعرفوا من أمر الزعيم مالم يعرفوا من قبلُ ، وسمعوا من كلامه غير ماعُزِيَ إليه ، ورأوا في قسمات وجهه وومضات عينيه، وصدقِ حديثه ، وحكمة تصرفاته ما ملأهم إعجاباً به ، وإكباراً له .

وكان بين الأسرى جريحان من كبار رجال الحملة ، استعصت جراحُهما على مايملكه المجاهدون من طب ، فجهز «هنانو» كتيبةً من فرسانه ، وأمرها أن تحملهما إلى أقرب معُسْكَرٍ من معسكرات العدو ، وزودها بتوصياته .

فانطلق الفرسان بالجريحين في خفّةٍ وحذر ، وساروا بهما حتى بلغوا أول مكان تحت سيطرة الفرنسيين فوضعوهما بقربه ، ثم كمنوا في أماكن تخفيهم عن العيون، وتقيهم شر الهجمات ، وتتيح لهم رؤية الجريحين ، ثم أطلقوا ثلاث رصاصات في الفضاء ليحملوا الفرنسيين على البحث عن مصدر الطلقات ، ويوصلوهم بذلك إلى مكان الجريحين اللذين أشْفيا على الهلاك .

وبقي رجال الكتيبة في مكامنهم حتى رأْوا حراس المعسكر يلتقطون الرجلين، عند ذلك ولّوْا وجوههم شطرَ معاقلهم في الجبل المنيع فخورين مرتاحين لما أدّوْا من واجب إنساني نبيل .

أخبر الجريحان قومهما بما لقيا من ضروب الإكرام وألوان المروءات وبصّراهم بما شهدا من رجاحة عقل القائد المسلم وسَعَة صدره وبُعْدِ نظره ، ووصفا لهم مناعة حصونه وعزة معاقله ووعورة مسالكه ، وحدثاهم عن بأس رجاله ، ودقة تنظيمهم ، وشدة تعلقهم بقائدهم وفرط حبهم لَه وطاعتهم إيّاه ، وحضاهم على مفاوضته ...

وصادفت دعوة الجريحين إلى مفاوضة «هنانو» هوى في نفس القائد الفرنسي، فقد كان راغباً في أن يستردّ أسراه ، حريصاً على أن يتم ذلك قبل أن تصل أنباء أسرهم إلى فرنسا فيجد منافسوه في ذلك ما يعينهم على النيل منه ، والعمل على إزاحته عن منصبه ، ليحلوا محلّه ، فهو يعرف مدى تكالبهم على هذا المنصب، ومبلغَ ما يؤملون أن يجرّه عليهم من مغانمَ .

وكان في الوقت نفسه يكره هذه المفاوضة ، ويَعُدُّها اعترافاً بشرعية هذه الثورةِ، وإذعاناً لقوتها وبأسها ، ويجد فيها وسيلة لجعل «هنانو» يقف معه على قدم المساواة في مفاوضات متكافئة .

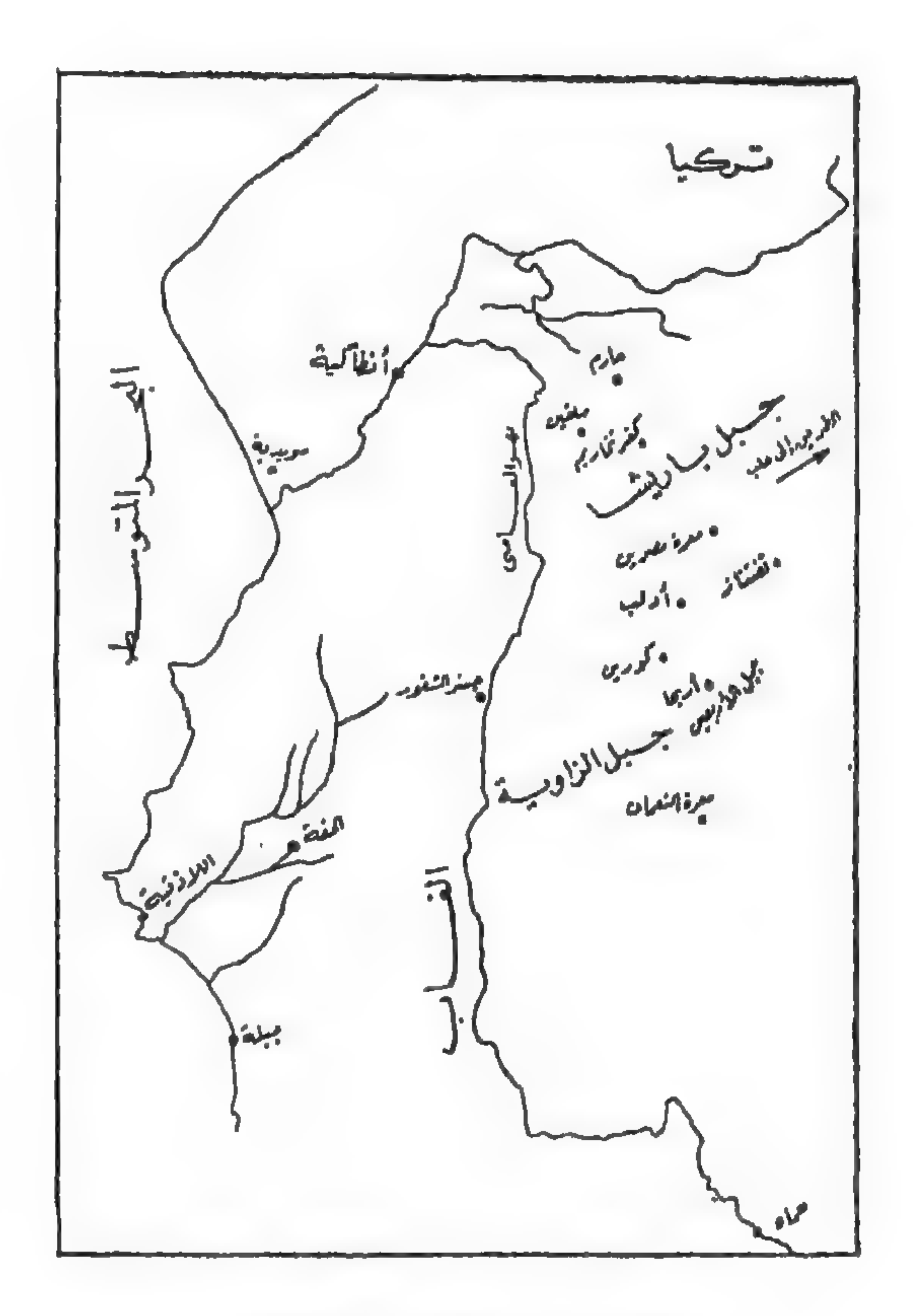
ثم ما لبث أن رجّح جانب التفاوض ، وأرسل رُسُلَه إلى «هنانو» يدعونه إلى ذلك ، فجمع «هنانو» أركان حربه ، وقادة كتائبه ، وشاورهم في الأمر ، فاستقر رأي الأكثرية على المفاوضة ، ذلك بأنهم طلاب حق وحرية ، وليسوا أرباب حرب وعدوان .

وعقد اجتماعان تمهيديان بين القائد الفرنسي وسفراء «هنانو» وُضِعت خلالهما الأُسس التي تُبنى عليها المفاوضات، وحُدّدت فيهما الشروطُ التي تتم بها.

وكان في رأسِ هذه الشروط ضمانٌ سلامة «هنانو» ورجاله ممن سيشتركون في المفاوضات ، وعدمُ الغدر بهم ، .. فأقسم المفاوضون الفرنسيون بالله جهد أيمانهم على احترام هذا الشرط ، وحلفوا بشرف فرنسا على ألاّ يصيبوا أحداً من المفاوضين بأذًى مهما تكن النتائج .

وحُدّد مكان الاجتماع في قرية «كُورِينَ» التي لا تبعد كثيراً عن «أريحا» ، وفي اليوم الموعود توجّه «هنانو» مع كَوْكَبَة من أركان قيادته إلى القرية ، فما كاد يبلغ حواشيَها حتى وجدها مُطوَّقةً بالمئات من الجند شاكي السلاح ، مَحُوطةً بالعشرات من المدافع مُصوَّبةَ الفوهات ، فقد بدت وكأنها أُعِدّت لخوض معركة وشيكة الوقوع.

وعند مدخل القرية تلقاهم جُنْديٌّ مُدَجّجٌ بالسلاح ، وأشار إليهم أن يتبعوه فساروا وراءه إلى أن بلغوا مكان الاجتماع وهناك خلّفهم وحدهم ومضى دون أنْ ينبسَ ببنت شفة .



«المنطقة التى سيطر عليها الثوار السوريون بزعامة هنانو»

دخل «هنانو» ورفاقُه المكان فإذا هو حجرة كبيرة مِن بيت ريفي واطىء السقوف متآكل الجدران ، احتله الفرنسيون بعد أن أجْلَوْا عنه ساكنيه ، وقد علقت في صدر الحجرة صورة رجحوا أنها لـ«رئيس جمهورية فرنسا» ، ووُضِعَتْ وسطها منضدةٌ كبيرة مستديرة أعدّت لرسم المخططات الحربية ، وقد غُطِيَتْ بقطعة من النسيج المُلَوَّن فيها الأزرقُ والأبيض والأحمرُ ، رَمْزا لعلم «فرنسا» ، وصُفَّتْ حولَها ، كراسٍ عاليةُ المساند حتى لتكاد ترتفع على رؤوس الجالسين ، ووُضِعَ فوقَها هاتف تاهت أسلاكُه بين قوائم المنضدة في غير انتظام ، ووقف على بابها حارسان يحملان سلاحاً حديث الصنع لم ير المجاهدون له مثيلاً من قبل .

وجلس الزعيم ورجالُه على عدد من الكراسي المتجاورة، وخيّم عليهم صمت فيه جلال ورهبة ، ودارت بين عيونهم أحاديثُ كانت أبلغَ من كل كلام ، وبدأت المخاوف تأخذ طريقَها إلى قلوبهم ونفوسهم رويداً وهم يريدون أن يدفعوها عنهم بجميع ما يملكون من وسائل .

فلقد غَدَوْا شبه أسارى في قرية محميّة بالمئات من الجنود ، وأصبحوا شبهَ مسجونين في حجرة يحميها سجانان ومن ورائهما مئاتُ السجانين ، أُضف إلى ذلك كله أنه حِيلَ بينهم وبين رجالهم من المجاهدين .

وبينما هم على حالتهم هذه سمعوا جَلَبَةً خارجَ الحجرة فأطلوا من نافذتها الصغيرة ، فرأَوْا قائداً كبيراً يحف بعد عدد من رجاله ، عرفوا منهم أحد الرُسل الذين اشتركوا معهم في المفاوضات التمهيدية وكان برتبة مُقَدَّم ، فاطمأنت نفوسهم بعضَ الاطمئنان .

دخل القائد الفرنسي الحجرةَ دونَ أنْ يُحَيِّيَ بلسانه أو يشيرَ بيده ، وجلس في الطرف الآخر من المنضدة قُبَالَةَ «هنانو» ورفاقِه دون أن يلتفت إليهم أو يثبتَ نظرهُ في وجه أحد منهم .

ثم وضع فخذا على فخذ ، وعلا ساقاً بساقٍ ، وتطاول بعنقه مصعّراً خده للجالسين أمامه ، ثم مد ثلاثة من أصابع يده اليُمْنى إلى جيب صَدْرَتِه فأخرج منه (غليونه) الخشبيَّ الغليظ ، ولما استوى على كفه مد يسراه إلى جيب سترته الداخليِّ فأخرج حافظةَ التبغ وجعلَ يملأُ (الغليونَ) بأناة وبطء مُتَعَمَّدَين دونَ أن ينبّس بكلمة .

وخيم على الحجرة صمتٌ رهيب كنتَ لا تسمع فيه إلا فحيحَ أنفاس القائد الفرنسيِّ ، وهي هابطةٌ صاعِدة ، وسُعالَه المتقطع كُلّما عبَّ من دخان غليونه عبّةً ملأت رئتيه .

ورانت على الجو كآبة بغيضة ، وارتسمت على وجه «هنانو» ورفاقه علاماتٌ الغيظ المقرون بالنّدم على ما فرّطوا في جنّب أنفسهم وجنّبِ أمتهم يومَ صدّقوا ما نمقه لهم المفاوضون الفرنسيون من معسول القول ، وحينَ وثِقوا بما عقّدوه لهم من غليظِ الأيمان .

وجعل «هنانو» يوزع نظراتِه بين هذا القائد المتغطرس المتجبر ، وبين ذلك المُقَدَّم الذي دارت معه المفاوضاتُ التمهيدية وكأنه يسأله أن يقول شيئاً يقطع به حبل الصمت ، وينقذُ الموقف .

وبعد عشر دقائق خُيلَ إلى المجاهدين أنها أطولُ من أعمارهم كلها التفت القائد الفرنسي يخاطب «المقدم» قائلا :

من هؤلاء ؟!

فتمتم المقدم قائلا :

سيدي هؤلاء قادة الثورة ، وهذا زعيمهم «إبراهيم هنانو» .

وأشار بيده إليه فقال القائد :

وما الذي أقدمهم إلى هنا ؟!

فقال المقدم .

سيدي ، لقد جاءوا للتفاوض معكم كَما تَعْلَم .

وشُدِه «هنانو» مما سمع ، فقد كان يعرف من الفرنسية ما يمكنه من فهم ما يقولون ، غير أنه آثر الصمت حتى يعلم ما يدور بينهم من حديث .

واستأنف القائد كلامه مع المقدم قائلا :

أجئتني بمثل هؤلاء حتى أفاوضهم باسم فرنسا ؟!

فقال الضابط في صوت خافت :

سيدي ، هولاء هم قواد الثورة ، الذين أكرموا الأسرى ، وحملوا الجريحين ، وتَمَّتْ معهم المفاوضات التمهيدية .

فقال القائد :

قل لهؤلاء إنه ما من قوة على وجه الأرض تستطيع الوقوف في وجه فرنسا .

قل لهم : إني آمرهم ... آمرهم قبل كلّ شيء أن يعلنوا استسلامهم لنا دون قيد أو شرط ، وأن يعترفوا بخضوعهم لسلطتنا دون تَحَفظ، وأن يسيروا أمامنا إلى معاقلهم في الجبل لتسليم السلاح ، وعند ذلك سننظر في أمر العفو عمن يستحق العفو منهم .

ثم التفت إلى الترجمان وهو يقول :

أعِد على هؤلاء ما قلتُه آنفاً ، واطلب إليهم أن يعلنوا رأيهم فيه الآن وبكلمة واحدة هي (نعم) أو (لا) فتوجه الترجمان بالحديث إلى «هنانو» ونقل إليه إنذار القائد فتلقاه رابط الجأشِ هادىءَ النفس .

ودارت بين الفريقين كلماتٌ قليلة أبدى فيها «هنانو» من براعة القولِ ورصانة التفكيرِ ، وبُعْدِ النظر مالا يتهيأ في أمثال هذه المواقف إلا لأفذاذ الرجال .

ولكنَّ ذلك كلّه لم يغير من الأمر الواقع شيئاً ، فلقد أيقن «هنانو» أنه مقتول هو ومن معه لا محالةَ ، وأن حركته مقضيٌّ عليها قضاءً مبرماً . ولاح لهم الموت ماثلاً أمام أعينهم ، وهو فاغر فمه مُكَشِّرٌ عن أنيابه ، وأخذوا أنفسهم بالاستعداد للقائه ، لكنهم كانوا يفكرون في طريقة تجعل عدوهم يدفع ثمن أرواحهم غالياً .

في هذه اللحظات الرهيبة التي كان على «هنانو» أن يقول فيها كلمة (نعم) أو (لا) دون إبطاء اقتحم غرفةَ الاجتماع ضابط فرنسي مضطرب الحركات متلجلج الألفاظ ، وقبل أن يؤديَ التحية - العسكرية بادرَ يقول :

سيدي القائد ، إن الثوارَ قد زحفوا نحونا من الجبل الغربي بجيش كثيف جرار، يحمل أثقالا من المعدات الحربية على ظهور البغال .

عند ذلك اعتدل القائد الفرنسيٌّ في جلسته ، وأنزل ساقاً عن ساق وطامن قليلا من كبريائه ، ووجه حديثه إلى «هنانو» بوساطة الترجمان قائلا :

كيف تزحفون على مكان الاجتماع بهذا الجيش ؟!

أليست بيننا وبينكم هدنة ؟! ألسنا قد اجتمعنا هنا للتفاوض والتفاهم ؟ .

فأفرغ الله السكينة على قلب «هنانو» والتفت إلى أحد رجاله يأمره بالخروج لاستطلاع الخبر ، فصدع هذا بالأمر ، وخرج ثم ما لبث أن عاد مسرعاً ، وأسر في أذن الزعيم ببضع كلمات . فالتفت «هنانو» إلى القائد الفرنسي وقال له بهدوء واثق:

---

(١) أسقط في يد فلان : تحير .

أرجو أن يعلم السيدُ القائدُ أننا لم ننقض هدنةً ، ولم نَخْفِرْ عهداً ، وكل ما في الأمر هو أن رجالنا استبطؤوا عودتنا ، ورأوا أنَّ الأجل الذي حددناه لرجوعنا قد حل . ثم نهض واقفاً وهو يقول :

وقد آن لنا أن نعود إليهم لننقل لهم ما تم معنا .

ثم توجه نحو باب الغرفة مع رجاله وهو يقول :

ولعلنا نكون في اجتماعاتنا المقبلة أكثرَ تفاهما وأعظمَ نجاحاً في الوصول إلى حلول أفضل .

غادر «هنانو» وصحبهُ غرفة الاجتماع بخطوات ثابتة جريئة ، وأسْقطَ[1] في يد الجند المدججين بالسلاح ، وقلوبُهم تدق في صدورهم دقّاً يكاد يسمعه من حولَهم ، وتخلصوا من النطاق المضروب حولَ القرية كما تتخلص الفرائس من شباك الصائدين ، ولم يكن في وسعهم آنذاك أنْ يفكروا في أمر هذا الجيش المزعوم ، فلما بلغوا مأمنهم اكتشفوا هم كما اكتشف أعداؤهم أيضاً أن الجيش الذي هزّ قلوب الفرنسيين هزّاً ، وغيّر من منطق قائدهم ، وبدّل من تصرفاته لم يكن إلا لواءً فرنسياً قادماً من الغرب لنجدة القوات الضاربة في منَطقة «أريحا» .

* * *

سافر «الحاج» بعد أن خلف وراءه هذه الأخبار التي كانت أشدّ إثارة للناس من تلك الأنباءِ التي انتشرت إثْرَ قَدْمَته السابقة ، فقد تلقوها جميعاً – ولاسيما «رئيبة» – كما تتلقى الزهرة الذابلة قطراتِ الندى ، فانتشت بها نفوسهم ورقصت لها قلوبُهم وتغنت بها أفواههم ، وجعلوا يرددونها ، ويستعيدونها ويبنون عليها عظيم الأماني وجليل الآمال .

طالت غيبة «الحاج» هذه المرة أكثر مما كان مقدراً لها أن تطول ، وأخذت تتوالى على الجنوب أنباء عن حركة الشمال تفرح العدو ، وتترح الصديق ، وأخذ الناس يفزعون بآمالهم إلى كذب هذه الأنباء ، ويعقدون الرجاء على ذلك .

وكانت «رتيبة» على رصانتها ورزانتها لا تخفي قلقها على مصير الثورة وأبطالها الأبرار ، فقد كانت ترى في كلٍّ منهم صورة حية لأبي عُبادة في رجولته ومروءته وصِنْوا له في شهامته وصدق جهاده . وكانت لا تجد غضاضةً في أن تسأل عن حركتهم من يعلم ومن لايعلم .

فقد تناهى إلى الجنوب أن فرنسا قد هالها ما مُنيت به من هزائم وأفزعها ما أصيبت به من انكسارات ، وأن صحف «باريس» المعارِضَةَ أخذت تكيلِ تهم التخاذل والتقصير لوزارة الحربية التي عجزت عن تأديب حفنة من العصاة العُزل ، وجعلت تهزأ من الجيش الفرنسي الجرار العاملِ في «سورية» ، وتقول إنّه يستورد الأسلحة من «فرنسا» ، ويقدّمها للعصاة لكي يحاربوه بها ، فعزمت وزارة الحربية على أن تسلك جميع السبل للقضاء على الثورة ، وأن تفعل من أجل ذلك ما يباح في شِرْعَةِ الحرب وما لا يباح .

فاستقدمت للقضاء عليها عدة ألوية من المستعمرات فيها الأَسْوَدُ والأبيض والأصفر ، وندبت لهذه المهمة نفراً من القادة الذين لم تَفُتَّ في عضدهم الانكسارات السابقة ، وأعدت لذلك من عدة الحرب ووسائل الفتك ما يضمن لها النصر .

بيد أنها لم تعوّل على ذلك كله بقدر ما عولت على ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية في المدن والقرى والدساكر ، فقد وجدت في ذلك الوسيلةَ الوحيدة التي تكفُل لها الغَلَبَةَ ، وتُلينُ بها قناة المجاهدين .

وقذفت فرنسا بقوتها هذه إلى ميادين القتال فتلقاها المجاهدون في جميع المعارك بالبأس والمجالدة والصبر ، وبثّتْ عيونها في كل مكان فعرفت المدن والقرى التي ينتمي إليها المجاهدون ، وأحصت من فيها من أولادهم وأزواجهم ، وآبائهم ،

وأمهاتهم ، وإخوتهم وأخواتهم ، وبعثت زبانيتها إلى تلك المناطق وهم يحملون في أيمانِهمُ الخسَّةَ والنذالة والجبن ، وفي شمائلهم البطش والوحشية والانتقام .

فكانوا إذا دخلوا قريةً من هذه القرى التي ينتمي إليها المجاهدون جمعوا الأطفال الصغار ، والصبايا الصغيرات في صفوف طويلة ، وأخرجوا أمهاتهم وأخواتهم وذوي قُرباهم ليشهدوا مصارعهم بأعينهم .. وسلطوا عليهم كلابهم الكبيرة المسعورة تنهش أجسادهم الغضة ، وأغْرَوْا بهم جنودهم السفاحين يُلْهبُون ظهورَهم الصغيرةَ بالسياط ، حتى إذا اشتد بكاءُ الأطفال وعويل الأخواتِ واسترحامُ الأمَّهات أطلقوا عليهم الرصاص ، وعلقوا أجسادهم الناحلة على الأشجار وتركوها أياماً ثلاثة في العراء .

كانت الأم ترى وحيدَها وقد تدلى جسده من غصن شجرة . وانتفخت جثته حتى ضاعت معالمها ، وحامت حوله الهرر الجائعة والكلاب السغبة ، وحطت عليه أسراب الذباب ، وجماعات النمل وهي لا تستطيع أن تصلَ إليه ، أو تدنوَ منه .

ثم يدخلون قرًى أخرى فيحرقون بيادرها ، ويجتثون أشجارها ، ويخربون بيوتها .

وقد كان لهم في ذلك منطقٌ عجيب يبرِّرُ وحشيتهم ، ويسوِّغ ما يقترفون من جرائمَ يسودُّ لها وجه التاريخ ويندى جبينه .

فالأطفال في شرعهم مذنبون لأنهم لم يرشدوا الجيش الفرنسي إلى الأماكن التي يعسكر فيها آباؤهم المجاهدون .

والبيوت في قانونهم آثمة لأنها لم تلفظ من بات فيها من المجاهدين في ليل . والأشجار في عُرْفهِم مجرمة لأن مقاتلا اتَّخذ من جذع واحدة منها ترساً يحتمي وراءه ويُصْلي جندهم نارا .

أما البيادر فهي لا تقل جريرةً عن أولئك جميعاً ؛ فمن قمحها قد يأكل المتمردون .

وأخذت تصل هذه الأخبار إلى المجاهدين فيتلقَّوْنَها بالصبر على قضاء الله ، والرضا بابتلائه ، ثم ما لبثَ أن اشتدَّ عليهم الكربُ حين رأوا في أعين الناس ضراعات صامتةً في أن يطووا لواء ثورتهم إلى أن يجتمع لهم من أسباب القوةِ ووسائلِ الحرب ما يُمَكِّنُهم من دفع الأذى عن السكان الآمنين .

وثَقُلَتْ على البقية الباقية منهم الوطأةُ حين وجدوا القوة المختارة من إخوتهم في الجهاد يُلْقون بأيديهم إلى التَّهلُكَةِ في ميادين القتال فيُستشهدون قافلة إثر قافلة ، وكأنهم لايريدون أن يطوي علم الجهاد وهم على قيد الحياة .

ولما رأى «إبراهيمُ هنانو» ما يحُل بالقرى الآمنة من فتك وتدمير ، وما ينزل بالنفوس البريئة من قتل وتعذيب ، وأبر أشباله يتَخَطَّفهُم الموتُ واحداً إثْرَ آخر ، قرر أن يطويَ لواء حركته إلى حين ، وأن يتفرقَ هو ومن معه في فجاج الأرض ، وأن يتواروْا مُدَّةً عن الأنظار ليستأنفوا الجهادَ في أسْلوب جديد ، وهم فخورون بما أدَّوْا لوطنهم من حق ، معتزون بما قدموا لأمتهم من شهداء ، مطمئنونَ إلى أن كل رصاصة أطلقوها قد أصابت من عدوهم مقتلا ، وأن كل معركة خاضوها ستكون لَبِنَةً كبرى في بناء صرح حريتهم العتيد .

الفصل التاسع

خرج «عُبَادَةُ» من لفائف الطفولة كما تخرج زهور الربيع من أكمامها ، وتفتح للحياة كما تتفتح زنابق الحقل ، فتّشيع في البراري السحر والعطر ، وتُذيعُ في الكون سِرَّ الحياة العَبِقَ ، بعد أنْ طوته في صدرها طَوالَ أيام الشتاء .

وقد أمدّته السنة الأولى من حياته بالعذوبة التي تفيض من بسمات ثغره ، والبِشْر الذي يلوح على قَسَمَاتِ وجهه ، والحركة التي بدّلت وحْشَةَ البيت إيناساً ، وأحالت كآبته بهجة وإشراقاً .

فقد أخذ «عبادة» يزرع أطراف الحجرة الصغيرة بقدميه العاريتين ، وهو يستند إلى الجدران بكفيه المُكْتنزتين الورديتين ، ثم يقف من حين إلى آخر ، هنا أو هناك ، ويلتفت إلى الوراء ليتأكد من أن أمه تراه ، وليلّحظ ما يرتسم على وجهها من سنا البهجة ، وما يبدو على مُحياها من ومضات السعادة . ثم لا يلبث أن يستأنف سيره من جديد وهو يزقزق كما يزقزق الكناريُّ الصغير حين يتعلم التغريد .

كان «عبادة» يفعل ذلك سحابةَ نهاره وطرفاً صغيراً من ليله ، وهو لايكادُ يهدأ أو يفتر إلا قليلا ، وكانت أمه تتابع خُطُواته بنبضات قلبها ، وتساير حركاته بنور عينيها ، فتذهل عن نفسها وعن نولها ، وتسبح في حُلُم رائع طويل .

وقد غدا «عبادة» شغل صويحبات أمه جميعاً ، فأصبحن لا يفترن عن زيارتها كلَّ يوم مرَّة أو أكثر من مرة ، ليسعدن بالتحية التي كان يلقاهن بها كلما دخلن الدار .

فقد كان إذا صافحت عيناه وجه إحداهن تألق ثغره الريان بابتسامة ساحرة ، وانطلق فمه الدقيق يردد بُغامَه العذبَ الجميل في تدفّق وتحدر ، وأخذ رأسه الجميل يتوس ذات اليمين وذات الشمال في حركة مطّرِدَة سريعة علامة الترحاب ، فلا تملك الواحدة منهن إلا أن تهجم عليه وأن تشده إلى صدرها ، وأن توسعهَ لثماً وضمًا .

ثم أمدته السنة الثانية بالكلمات الصغيرة المحرفة ، تنطلق من شفتيه فيذوب لنبراتها شغاف قلب «أم عبادة» ، وبالحركة الدائبة ، حتى أخذ يقلب البيت رأساً على عقب في لحظات .

وما كاد يتم الثالثةَ من عمره حتى غدا طفلا يملأ السمعَ والبصر .

فقد أتقن طائفة كبيرة من الكلمات ، كان أعْذَبَهَا جرسا ، وأطْرَبَهَا وقعاً على سمع «أم عبادة» كلمةُ (ماما) فهي نشيدها الساحر ، ولحنها الشاعر ، وأغرودتها الحلوة الجميلة .

أما كلمة (بابا) فما قالها «عبادة» لأحد ، ولم يسمعها حتى سنته الثالثة من أحد أيضاً .

ثم توالت الأيام سِراعاً ، وأخذ «عبادة» يخرج إلى الباحة الصغيرة الممتدة أمام الدار، ويقف مع لِداته وأترابه فيلعب معهم ويلعبون معه ، ويسمع منهم ويسمعون منه ، ويأخذ عنهم ويأخذون عنه .

وكان في جملة ما سمعه من أترابه هؤلاء كلمة (بابا) فقد رآهم يرددونها في كل مناسبة ، فإذا اعتدى عليهم أحد فـ (بابا) يضربه ، وإذا أعجبهم شيء فـ (بابا) يشتريه ، وإذا عاقهم أمر فـ (بابا) يفعله ، وإذا ذُكِرَتْ أمامهم نزهة فـ (بابا) يأخذهم إليها .

وخيَّل «العبادة» في بادىء الأمر أن بعض الأطفال له (بابا) ، أما بَعْضُهُم الآخر فليس له شيء من ذلك ، ثم ما لبث أن عرف أن لكل طفل (بابا) . وعند ذلك بادر أمه سائلاً :

أين (بابا) يا أماه ؟

فبدت على «رتيبةَ» علامات الاضطراب والحيّرة ، وقالت :

إنه مسافر يا «عبادة» .

فقال :

وهل تطول غيبته يا أماه ؟

فقالت :

قُمْ ، كل يا «عُبادة» فأنت لم تأكل اليوم شيئاً ، ولقد اشتريت لك حلوى من سوق الجمعة .

فقال :

ولكنك لم تجيبي يا أماه ، هل تطول غيبة (بابا) ؟

فقالت :

قد تطول يا «عبادة» ..

فسكت قليلا وكأنه يفكر فيما قالته له ثم أردف قائلا :

أنا أحب (بابا) ، أنا اشتقت إليه كثيراً ، أنا أريد أن أطعمه من الحلوى التي اشتريتها لي من سوق الجمعة ، وسأحفظها له حتى يعود .

فخنقتها العبرات وهي تقول :

بل كلها يا «عبادة» ، ويوم يعود (بابا) سنشتري له حلوى غير هذه .

فقال :

كلا ، لن آكلها .. ، سوف أحتفظ بها حتى يعود ، فأنا أحب (بابا) ، أحبه كثيراً ، أحبه أكثر من عيني .

ومنذ ذلك اليوم و«عبادة» يصعد إلى سطح الحجرة المطل على الطريق التي تربط القرية بالعالم الخارجي ، ويجلس القُرْفصاء ، ويَمُدُّ بصره بعيداً إلى الأمام وهو ينتظر عودة (بابا) دون جدوى .

وتوالت الأيام وتتابعت الشهور ، وأخذ «عبادةُ» يُمْسِك شيئاً فشيئا عن ذكر (بابا) ويُقِلُّ من انتظاره ، فكأنه قد يئس من أَوْبَةِ هذا المسافر وملّ ترقبه .

ثم نَهَدَ «عبادة» نحو السادسة من عمره ، فرأت «رتيبةُ» أن تبعث به إلى كتّاب القرية ، ليحفظ شيئاً من القرآن الكريم ويتعلم مبادىء القراءة والكتابة .

وأخذت تتأهب لذلك اليوم العظيم، فاشترت لـ«عبادة» كراسة للهجاء، وجزءاً من القرآن الكريم يضم السور القصار، وخصصت طرفاً من يوم الجمعة، صنعت له فيه محفظة من بقايا نسيج مخطط ملون، وهو مُلازِمٌ لها لا يفارقها، مُلِمٌ بها لايغادرها ، يشهد حياكة المحفظة غرزة غرزة ويستعجل إنجازها لحظة بعد لحظة .

ووضعت «رتيبة» الكراسة والجزء في الحقيبة ، وجعلت لها قلادة أُدخل «عبادة» رأسَه فيها ، فتدلت على جنبه كما يتدلى الوشاح من عاتق غادة حسناء . وجعل يختال بها طَوالَ ذلك النهارِ الذي سبق ذهابه إلى الكتاب . فلما حان موعد نومه أبى إلا أن يُنيمها معه في فراشه ، وأن يُغْفِيَ ويدُه موضوعةٌ فوقها .

واستيقظ «عبادةُ» مع أسراب العصافير ، فوجد أمه قد أعدت له الخبز الساخن والزيت والصعتر ، ليتناول منها فطوره ، ويأخذ معه زاد يومه .

ومضت «رتيبة» بـ«عبادة» إلى الكتاب مبكرة ، وهي تكاد تتعثر في خطاها من شدة الفرح الذي أربى على جميع ما أحست به من أفراح في أيامها الخوالي .

وانضم «عُبَادَةُ» إلى هذا السرب الجميل من أطفال القرية وأخذ مكانه على ذلك الحصير الذي أكلته أظافر الصغار بهمة لا تعرف الكلل. فكشف من أرض الحجرة أكثر مما ستر .

غير أنه انكمش على نفسه والتزم الصمت في بادىء الأمر ، ثم ما لبث أن اقترب من ثُلّة ضمت فريقاً من صبية الكُتّاب القدامى ، وجعل يردد معهم ما تنطق به ألسنتهم من كلام لا يفهم له معنى . فلقد كان هؤلاء الصغار يقطعون يومهم في الكتاب بقراءة أحرف الهجاء تارة ، وتلاوة بعض السور القصار تارة أخرى .

وكانوا من حين إلى آخر ينصرفون عن هذا أو ذاك ليتعابثوا ، أو يتحدثوا عن آبائهم وما جلبوا ، وإخوتهم وما صنعوا ، وأمهاتهم وما خطن لهم من ثياب ، أو طهون من طعام .

والشيخ ساهٍ عما يفعلون ماضٍ في تعليمهم وفق قاعدته الذهبية التي درج عليها منذ أنشأ كتابه وهي تقضي بأن يعلمَ السّابقُ اللاحِقَ ، وأن يتلقى من لا يعرف عمن يعرف ، وبذلك يتاح له أن ينصرف عنهم إلى شأن يغنيه ، أو يستسلم إلى سنة من النوم لا يوقظه منها غير سكوتهم المفاجىء .

وهم لايسكتون عادة إلا إذا أمّ حجرة الكتاب طارق غريب ، فعند ذلك تهدأ حركتهم وتَشْرَئِبُّ أعناقهم وتسكت ألسنتهم وتشخص أبصارهم ، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى ما كانوا فيه من لغط وقراءة وعبث .

وبينما كان أفراد ثلة «عبادة» يتحدثون عن آبائهم وما سيشترونه لهم في العيد،

شاء هو أيضاً أن يتحدث عن أبيه المسافر ، ومتى يعود ، وعما سيجلبه له من حذاء لامع ، وأثواب زاهية جديدة .

فالتفت إليه صبيٌ كان أكبرَ منه سِنًا وأكثرَ وَعْياً وفاجأَه بقوله :

ولكن أباك ميت .

فقال عبادة في حدة :

كلا ، إنه مسافر ، وسيعود قريباً .

فقال الصبي :

بل إنه ميت ، ميت – والله – قتله الفرنسيون .

فَطَفَرَتْ من عيني عبادة دمعتان كبيرتان ، وشكا الصبيٌ إلى شيخ الكُتَّاب قائلا :

سيدي الشيخ ، هذا يقول أن أبي قد مات .

فقال الشيخ للصبي في حدة :

أيها الغبي ، لا تقل عن أبي «عبادة» إنه مات ، وإنما قل إنه استُشْهِدَ ، فأبو «عبادة» قد قتله الفرنسيون غدراً فمات شهيدا .

وما كاد «عبادة» يسمع ذلك حتى أجهش في البكاء ، فرقَّ له قلب الشيخ وأدناه منه ، وجعل يمسح رأسه براحته ، ويسترضيه حتى كف عن النحيب وقبع إلى جانبه ، وانطوى على نفسه ، وظل على حاله هذه حتى حان موعد الانصراف.

ولما رجع عبادة إلى البيت كان قد انكشف له السر الذي ظل يجهلُه زمناً طويلاً ، وحُلَّ أمامه اللغز الذي خفي عليه ، وأدرك أن أباه المسافر لن يؤوب من سفرته .

وما إن رأى أمه حتى بادرها معاتبا في حزن وهو قول :

كيف تقولين يا أمّاه إنّ أبي مسافرٌ ؟!

فأدركت «رتيبةُ» ما يَكْمُنُ وراء هـذا السـؤال ، وَعَرَفَتْ أنّ ما كانت تخشـاه قد وقع ، وقالت في هدوء ظاهر :

نعم ، إنه مسافر يـا«عُبـادةُ» ، لقـد استُشْهِد وسافر إلى الجنة ، وهو ينتظرنا هناك، وسنلتقي معه في يوم من الأيام .

فقال «عُبادةُ» :

وهل سنموت نحن أيضاً ؟!

فقالت «رتيبة» :

نعم يا«عبادة» ، ولكن بعد عمر طويل إن شاء الله .

فقال «عُبادةُ» :

أحقًا ما قاله الشيخُ من أن الفرنسيين قتلوا أبي ؟

فقالت «رتيبة» :

نعم يا«عبادة» ، إنهم هم الذين قتلوه .

فقال «عبادة» :

وما الذي فعله حتى يقتله الفرنسيون ؟

فقالت «رتيبة» :

إنه لم يفعل شيئاً يابنَيّ ، وإن الله سوف ينتقم لنا منهم .

فقال «عبادة» :

ولكن ، أين الفرنسيون الذين قتلوا أبي ؟

فقالت «رتيبة» :

إنهم هناك في «المِزّة» ، في «دمَشْقَ» ، في كل مكان يابني .

فقال «عبادة» وقد تحدرت الدموع من عينيه :

أنا أريد أن أراهم ياأماه ، أريد أن أميتهم ، أريد أن أضربهم بالحجارة .

فضمته «رتيبة» إلى صدرها ، وجعلت تَصْرِفُه عمّا هو فيه ، وقدمت له ما أعدت من طعام ، وذهبت به إلى فراشه لينام .

* * *

غفا «عبادةُ» على أحلام يومه السود مُنْكَسِرَ الفؤادِ محزونَ النَّفْس ، وجلست «رتيبة» إلى جوار فراشه تبكي بُكاءً أخرس يُمزّق الأحشاء ، ويفتت الأكباد ، وأخذت دموعها تسح على خديها سحًّا فتمسحها من حين إلى آخرَ بطَرَفِ منديلها الأبيض المتدلى من رأسها على منكبيها وهي تقول في نفسها :

ماذا كان يضير القَدَرَ لو أنه أبقى لهذا الصبي الصغير أباه ، وحفظ لهذا البيت الصغير عائله ؟

تباركت حكمتُكَ يا ألله ، ما الذي فعله هذا الطفل حتى يهْصر قلبَه الأسى ، وتحرق عينيه الدموعُ ؟ ما الذي جنته يداه حتى يتجرعَ كؤوس اليتم قبل أن يبصرَ النور ، ويملأ رئتيه من نسيم الحياة .

ماذا كان يحدث يارب لو أن تلك الرصاصة التي اغتالت والد هذا الغلام قد انحرفت عنه قليلا ذات اليمين أو ذات الشمال ؟

تبارك عدلك يارب ، لِمَ تُمْهِلُ الظالم فلا تنتقم منه ؟ وتُهْمِلُ المظلوم فلا تنتقم له ، ولكن ... لابد أن لك في ذلك كله حكمةً لا تدركها أفهامنا ، ولا تحيط بها عقولنا .

أستغفرك يارب ، أستغفرك من وساوس الشيطان ، وأتوب إليك من نزغاته فنحن عبيدك ، وليس لنا إلا الرضا بقضائك والصبرُ على ابتلائك ، لك العُتّبى [1] يارب حتى ترضى ، لك العتبى يارب حتى ترضى .

وأمضت «أم عبادة» ليلَها كُلَّه وهي غارقة في هواجسها وبقيت على حالها هذه حتى انبلج نور الفجر .

ووقف مؤذنُ القرية يدعو الناس إلى أداء الفريضة ، فنهضت من مجلسها الذي لم تبارحه منذ أغفى «عبادة» في أوَّل الليل ، وهي ترفع كفيها إلى السماء تسأل الله أن يفرغ على قلبها الصبْرَ ، وأن يحفظ لها «عبادة» بعينه الساهرة التي لاتنام .

---

(١) العتبى : الرضا .

الفصل العاشر

بزغت الشمسُ من وراء الأفق ، فأشرقت السمواتُ والأرض بنور ربها ، وأخذت أشعتُها الذهبية تصافح ذوائبَ الأشجار ورءوس الزرع فتبعث فيها رَعْشَةَ الحياة وتذيبُ عنها قطرات الندى .

وخرجَ الفلاحون إلى حقولهم يبثونها آمالهم الخُضْرَ ، ويعطونها جهدَهم السخيَّ ويسقونها عرقهم الطاهر .

واستيقظ «عبادة» حين مسّ جبينَه أولُ شعاع من أشعة الشمس ، فهبت « رتيبة » تغْسِل وجهه ويديه ، وأخذت تُعد له ثيابه وفطوره وتُهيِّىء زاد يومه .

وقد كانت مع ذلك مترددة في إرساله إلى الكُتَّابِ خشيةَ أنْ يستعيدَ مع الصبيان حديث الأمس ولكنها عادت تقول لنفسها .

إذا أنا لم أُرسِلْه اليوم ، فسوف أرسله غداً أو بعد غد .

ثم ما الفائدة من إبقائه في المنزل بعد أن عرف ما كان لابد له أن يعرفه مهما يطُل عليه الأمد .

أُضف إلى ذلك أن «عبادة» سيتلقى الأمر بالإذعان شيئاً فشيئاً ، ثم إنه ليس بأول غلام أصيب باليُتْم ولن يكونَ آخر غلام أيضاً ، والرسولُ صلوات الله عليه قد عاش يتيما ، وله في رسول الله أسوةٌ حسنة .

أمّا «عبادة» فقد استقبل يومه استقبالاً طيباً يدل على أنه قد نسي قصة أمس نسياناً تاماً . فاطمأن خاطر «رتيبة» إلى ذلك ، وصح عزمها على إرساله بعد تردد

فوشّحته بمحفظته الزاهية ، وزودته بما أعدت له من طعام ، ووقفت بالباب تشيعه ببصرها حتى بلغ الكتّاب الذي لم يكن يبعد عن دارهم كثيراً .

وعادت «رتيبة» إلى بيتها تسوي متاعه ، وتنظف حجرتيه الصغيرتين ، ثم انقلبت إلى نولها ، تريد أن تنجز عباءةً رُكّبَتْ عليه بأسرع ما تستطيع وهي تود أن تدرك آخر سوق جمعة يُعْقَدُ قبلَ العيد ، لتبيعها فيه وتحصل على دراهمَ تمكنها من شراء كساء جميل لـ«عُبادَة» يلبَسهُ في العيد ، وحذاء أحْمَرَ يباهي به لِداته وأتْرابَه ، ومؤونة دأبت على استدراكها في أمثال هذا الموسم ، لكيلا تظهرَ أمامَ أهلِ القرية بالمظهر الذي يجعلها موضعاً للإشفاق ، أو هدفاً لصدقات المحسنين .

وكان اقترابُ عيد الأضحى سبباً في أن يكثر أبناءُ القرى المجاورة لـ«دمشقَ» مِنْ زيارتها ، وكان رجال «حَرَسْتا» ونساؤها يترددون على العاصمة ليبيعوا بعضَ محصولاتهم ، ويشتروا ما يحتاج إليه العيد من مؤونة ومتاع ، وقد عاد هؤلاء إلى أهْليهم ذاتَ مساء ، وهم يحملون أنباء ثورة جديدة ، قيل إنّها ليست ثورة موضعية كتلك الثوراتِ العشرين التي وقعت خلال عام واحد في أنحاء متفرقةٍ من «سوريةَ» ضد المستعمرِ الغاصب ، وإن الشرارة الأولى لهذه الثورة قد انطلقت من جبل العرب ، وأن الكُماةَ الأباةَ من أبناء الجبل الأشم ، قد اتفقوا مع الصّيد الأعزة من أحفاد بني أمية في «دمشق» على إضرام هذه الجذوة اللاهبة ، وحَمْلِ شُعْلَتِها المقدسة في طول البلاد وعرضها ، والسير بها قُدماً حتى تَعُمَّ البلاد ، وتغدوَ ناراً مُسَعّرة تأتي على عروش الطغاة الغزاة ، ونوراً وهّاجاً يضيء للمواطنين سبيل الحرية والمجد .

بل إنّ واحداً من أبناء القرية ظفر بمنشور من هذه المنشوارات التي كانت توزع في «دمشق» ، فدسه في طيات ثوبه .

ولما عاد إلى القرية أخْرَج المنشور وجعل يبحث عن واحد ممن يعرفون القراءة والكتابة ليخبرة بما فيه ، فما أسرع أن عرف سكان «حَرَسْتا» جميعاً ، ولا سيما

«رتيبة» ، أنه منشور موجه من قيادة الثورة إلى المواطنين في «سورية» ، وأنَّ مما جاء فيه:

باسم الله العلي العظيم :

أحييكم أيها المواطنون وأحيي فيكم الأنفة والإباء ، وأستصرخ منكم أمّة عريقة مشت على مناكب الدهر محميّة الذمار ، ما حملت عاراً ولا كان بحماها شنَار[1] ، وأستنفركم لحومة الجهاد المقدس يا خيرَ من حمى الوطن ، وكنتم عنه ذادة أبطالا ، ونفرتُم إلى مواطنِ الشرف الأبي خفافاً وثقالاً ، وأناديكم من معاقل الجبل المنيع وهو داركُم وسلاحُكُم وحرزكم وملاذكم ، أن هبوا إلى المنافحة عن أوطانكم أوطان آبائكم وأجدادكم ، وحطموا أغلال الاستعمار في دياركم فقد هبّت رياحكم فاغتنموها ، ودرّتْ ضروعُ أيامكم فاحلبوها .

وبعضُ الحلم عندَ الجهلِ للذلة إذعانُ

وفي الشر نجاةٌ حين لا ينجيك إحسانُ

أما بعد أيها المواطنون . فإن ثورتَنا هذه ثورةٌ عتيدة بعيدةُ المدى شريفةُ الغايات نصابُها النفوس والأرواح والسلاح والعزمات الصادقات ، وهي خالصة لوجه الله والاستقلال والحرية ، ففي سبيل تحرير بلادنا الغالية حياةَ الأعزةَ نحيا ، وفي هذا السبيل موتَ الكرام نموت .

فيأيها السادة الأماجد ، أهل النجدة والنخوة ، وحدوا مساعيكَم ، وتعاقدوا بقلوبكم ، وتقلدوا سلاحكم ، وانشروا ألويتَكم ، واركبوا خيولَكم ، وصابحوا العدوّ الجائسَ خِلالَ دياركم ، وخذوا عليه الطرق ، وارصدوا له في المكامن ، واقطعوا الأسلاكَ ، وانسفوا الجسور ، واهبطوا على مخافره في كل مكان ، واقتلوه حيث ثقفتموه ، واغنموا سلاحه وعتاده ، وكونوا عليه جميعاً يداً واحدة ، واصبروا في القتال والجلاد ، إن الله مع الصابرين .

(١) الشنار : العيب .

فإلى اليوم الذي لاح صبحه يا أباةَ الضيم وعُيّافَ الذل ، إلى اليومِ الذي تتحرر فيه البلاد وتتوحد مستردة استقلالها المسلوبَ .

التوقيع : قائد جيوش الثورة السورية العام

* * *

ومنذ ذلك اليوم أخذت أنباء انتصارات المجاهدين في جبل العرب تتوالى بسرعة مذهلة ، وجعلت أخبار سقوط المعاقل في أيدي الكُماة المغاوير تُسابقُ الزمن ، حتى دانَ لهم الجبل المُمنّعُ من أقصاه إلى أقصاه ، وطُهِّرتْ ربوعهُ الشُمُّ من رِجْسِ الغُزاة في مدة ما كان يرجوها أشدُّ الناس تفاؤلاً .

ولم يبق في وسع الفرنسيين أن يختقوا أخبار هذه الثورة لقوّة بأسها واتساع رقعتها ، فهي قد عمت الجبل ، وامتدت إلى بعض المناطق المجاورة له .

وتناقل الناس من قِصص بطولاتِ المجاهدين ما لم يُسْمَعْ بمثله في الأساطير .

فهؤلاء فتية يتبارون في شق جسد الفارس من جند العدو شقين متساويين بضربة سيف واحدة فيفوزون في المباراة جميعاً .

وأولئك شبان يراهنون على أن يثبوا على الدبابة الفرنسية وهي تطلق نيرانها ، وأن ينقّضُوا على قائدها قبل أن يرتدّ إليه طرفه ، وأن يأخذوه وإياها غنيمةً للمجاهدين ، فلا يجدون بين الناس من يراهنهم على ذلك .

ونسى المواطنون في غَمْرة هذه الأحداث العيدَ وأفراحه ، فقد كانت أخبار النصر بالنسبة إليهم عيداً أكبرَ من كل عيد ، وفرحةً أعظمَ من كل فرحة .

فهي قد أحيت مَوَاتَ آمالهم ، وأيقظت هاجع ثاراتهم ، وأعادت إليهم ثقتهم بأنفسهم ، وجعلتهم يشعرون من جديد أنهم أبناء أمة إذا ما خلا منها سيد قام سيد، وإذا ما خَبَتْ فيها جَذْوَةٌ أُضرِمَتْ جَذَوات .

الفصل الحادى عشر

أعلنت قيادة الثورة على العالم نبأ قيام حكومة عربية جديدة في «سورية» ، خذت شعارَها علماً رُباعيَّ الألوان : فيه الأخضر والأسود والأبيض والأحمر ، ي ألوانٌ تُشير إلى خُضْرة مرابع هذا الجزء من الوطن العربي وسوادِ وقائعه عبر اريخ وبياض صنائعه على الحضارة الإنسانية وحُمْرَةِ ما أراق في سبيل استقلاله من ئي الدماء .

ولم يكن ذلك النصر المؤزّر ليشغَل قيادة الثورة عن تحقيق أهدافها الكبرى في حرر والوحدة ، فانطلقت تواصل كفاحها الباسلَ ، ومضت تشق طريقَها الوعر لويل ، فمدت نطاق حركتها إلى الغوطة الغناء ، ونقلت معاركها الضارية إلى أرضِ فتنة والسحر ، وكانت تبغي من وراء ذلك تطويقَ العدو الجاثم في «دمشق» ، ريرَ عاصمة البلاد .

وأذَّن في الغوْطة مؤذن الجهاد فنَفَرَ الناسُ إليه خفافاً وثقالاً ، ولبَّوْا نداءَه نساءً جالاً ، وقد تقلدوا سلاحهم ، وتوشحوا بأكفانهم وباعوا الله نفوساً عزيزة كريمةً نة عرضُها السمواتُ والأرض ، واستودعوه الأهلَ والولد .

وجُنَّ جنونُ القيادة الفرنسية في «دمشقَ» لسماع هذه الأنباء ، فأخذت تُعد دة للقاء المجاهدين ، وتجند الكتائب لحربهم ، وتبذل المال لتشتريَ من يكون عيناً بهم ، فلم تجد بين المواطنين من يرغب عن أمّتِه ووطنه ، ويرضى ببيع نفسه يطان مهما يكن الثمن غالياً .

عليهم ، فلم تجد بين المواطنين من يرغب عن أمّتِه ووطنه ، ويرضى ببيع نفسه للشيطان مهما يكن الثمن غالياً .

ورأت أن تبادرَ هذه الحركة بالبطش ، وأن تعاجلَها بالفتك ، وأن تواجهها بالقسوة علّها تبثُّ في قلوب الناس الخوف ، وتزرع في أفئدتِهِم الذعر ، فتحول دونهم ودون الانضمام إلى الثورة أو تأييدها .

والتقى الجمعان على أرض الغوطة أوّلَ لقاء ، فرأى الفرنسيون أنهم يخوضون مع عدوهم لوناً جديداً من المعارك هو معارك الغابات ، وجدوا فيه من القسوة والعنف أضعاف ما كانوا يجدون في حرب الجبال .

فقد كانت أشجارُ «الغوطة» الباسقةُ دروعاً تقي المجاهدين نيران رشاشاتهم ، وأغصانُها الكثيفةُ الملتفة حجاباً يدفع عن المناضلين غوائل طائراتهم ، وجذوعُها الضخمة الراسخة حواجزَ تحمي المنافحين من فتك دباباتهم .

لقد دخل الجنود الفرنسيون أرض المعركة فلم يروا أمامهم عدوّاً يحاربونه ، أو مجاهداً يلاقونه ، حتى إذا اطمأنت نفوسُهم إلى خلو المنطقة مما يريب وألقَوْا بسلاحهم وعتادهم إلى الأرض ، تحولت كل شجرة حولَهم إلى مارد يلقي في قلوبهم الرعبَ ، وغدا كُلُّ غصن من أغصانها معقلا يُساقِطُ عليهم الموت .

فتملكهم الذعر ، واستولى عليهم الهلع ، وأخذوا يطلقون رصاصهم الطائش في كل اتجاه ، وجعلوا يحاربون عدوا يراهم ولا يَرَوْنَه فيصيب منهم مقتلا ولا يصيبون منه شيئاً ، ثم ما لبثوا أن مُزِّقوا شرَّ ممزَّق ، ففريق قتل ، وفريق أسر ، وفريق لاذ بالفرار .

وقد هال القيادَة الفرنسية أن يُدْحَرَ جندُها في أول معركة من معارك الغوطة لما كانت تعلمه من أن الجولةَ الأولى في الحروب هي التي تُثَبِّتُ أقدام المنتصرين

وقد عز على هذه القيادة أن يؤوب جندها إلى «دمشقَ»، وقد علت جباههم ذلةُ الانكسار ، وأن يمروا بشوارعها وقد حملوا على كواهلِهم عارَ الهزيمة ، وأن يكون ذلك سبباً في أن يشق الناس عليهم عصا الطاعة ، ويبادروا إلى الانضواء تحت ألْوِيَةِ المجاهدين .

فرأت ألا تظهر أمام العاصمة بمظهر المنكسر المهزوم مهما يكن الثمن غالياً .

وتفتقت عقول رجالها عن الحلّ ، فاعتقلوا سبعين شيخاً من شيوخ القرى الآمنة المطمئنة وشدوا وثَاقَهم ، وقرنوا كلاً منهم إلى من يليه في صفٍّ طويل كما يُقْرَنُ الأسرى، ثم قبضوا على خمسة وعشرين شابا أخذوهم من السابلة [1] الذين مروا بهم في الدروب أو العمال الذين وجدوهم في المزارع والحقول فرموهم بالرصاصِ وحماوهم على خمسة وعشرين جملا ، ثم مروا بمضاربَ لبعض البدو ممن يؤمون «الغوطة» انتجاعاً للماء والمرعى فحرقوا بيوتهم ، ومزقوا أجسادهم ، ووضعوا أشلاءهم في مركبة .

ودخل الموكب الجبانُ «دمشق» يتقدمه الشيوخ السبعون حفاةَ الأقدام عراةَ الرؤوس مشدودي الوثاق يليهم خمسةٌ وعشرونَ جملاً على كلّ منها قتيلٌ مجرد من ثيابه ، ألْصِقَ بطنُه إلى ظَهْرِ البعير ، فتدلت قدماه على أحد جنبيه ورأسُه ويداه على الجنب الآخر ، ثم تلا ذلك أربعةُ جياد جَرَّت مركبةً شُحنَتْ بأشلاء القتلى .

وطاف الموكب في شوارع «دمشقَ» الكُبرى يحُفُّ به جنود فرنسا من جانبيه كليهما ، وظل في تَطْوافِه هذا أربعَ ساعات متواليات سيق بعدها الأحياء من شيوخه إلى مقاصل الجلادين ، والشبابُ من قتلاه إلى بعض الحُفَر .

---

(١) السابلة : المارون بالطريق .

وقد أخطأ الفرنسيون فيما قدروا ، فلم تهلع «دمشق» من الموكب وإنّما استفظعته ، ولم تجزع من المشهد وإنّما استنكرته ، ولم تجث على ركبتيها أمام السفاحين تطلب الرأفةَ وترجو الرحمة .

وإنما شحنت الجريمةُ النكراءُ قلبَها بالغيظ ، وأترعت الفَعْلَةُ الحمقاءُ فؤادَها بالحِقْد ، وأضرمت الحادثة الشّنْعَاءُ في صدرِها نارَ الضغينة والثأر .

ولقد زاد الجريمةَ بشاعةً في أعين الرائين ظهورُ أيْد على العَرَبة المشئومة دلّتْ على أنها لِبنيّاتٍ في عمر الورود ، أو صِبْيةٍ لم يجاوزوا العاشرة من سنهم ، فكان في ذلك إثارةٌ للحفائظ الهاجعة ، واستنهاضٌ للهمم الراقدة ، ودعوةٌ للناس إلى الجهاد ، ليس كمثلها دعوة .

أخذت الاجتماعات تُعْقَدُ في البيوت تحت جُنْحِ الظلام ، وجعل أصحابُ السابقة في الجهاد يتلاقَوْن سرّاً للتداول في الأمر ، وشرع الشبان أولو البأس والحمية يستعدون لخوض معركة البقاء والشّرف ، واتجه ذوو الرأي إلى وَصْلِ ثورة المدينة بثورة «الغوطة» ضماناً للنجاح وتوحيداً للجهد ، فوجدوا أنّ الفرنسيين قد خافوا من ذلك أشدَّ الخوف، فطوقوا «دمشق» من أطرافها جميعاً بالأسلاك الشائكة ، وأقاموا على منافذها المعاقل لمنع الدخول إليْها أو الخروج منها إلاّ تحت أعْيُنهم ، وبذلوا كُلَّ ما يملكون من حيلة لمنع اتصال قادةِ الثورة بزعماء الأحياء في «دمشق» .

وبات الجميع يترقبون انفجار البركان وهم لايعرفون متى يكون ذلك ، ولا كيف تتم .

الفصل الثانى عشر

أرخى الليل سدولَه على قُرى «الغوطة» ، ولفّها الظلام بردائه الأسود الكئيب، وتوقف إطلاق الرصاص قبيل العشاء بقليل ؛ فخيم على المنطقة سكون موح ، كان يقطعه من حين إلى آخرَ عواء الكلاب ، أو تبادل كلمة السرّ بين عَسَسِ المجاهدين الذين أخذوا يراقبون منافذ الطرق ويجوسون خلال الحقول والبساتين ليحفظوا الأمن بين المواطنين ، ويدفعوا عن المنطقة ما قد يبيته لها العدو من غدر .

وأوى الناس إلى مضاجعهم يريدون أن يصيبوا شيئاً من الراحة ، وأن يبثوا في نفوس صغارهم الطمأنينة ، وأن يستعدوا لِما يَحْمِله لهم الغد في ثناياه من أحداث .

وأغلقت «رتيبةُ» على نفسها باب بيتها ، وأحكمت إغلاقه ، ومضت نحو فراش عبادة تُسوي غطاءه ، وتطبع على جبينه قبلتها الأثيرةَ المعتادة .

وهمت بالمِصْباح تريدُ أن تطفئه فما كادت تبلغ مكانه حتى سمعت عدةَ طرقاتٍ خفيفة على باب الدار فتَسمرت في مكانها لاتبرحه ، وأصاخت بسمعها نحو الباب تريد أن تتأكد من أنه يطرق ، وداخلها شيء من الخوف ، وخُيل إليها في بادىء الأمر أنها وَهِمَتْ فيما سمعت ، ثم ما لبث أن أعيد الطرقُ كرّةً أخرى ، وكان في هذه المرة أشدُّ قليلاً من المرة السابقة .

لم يبقَ لدى «رتيبة» أيُّ شك في أنَّ أحداً بالباب ، فَدَلَفَتْ [1] نحوه على مهل وفتحته ببطء فطالعها رجل لم تتبين ملامحه في عتمة الليل ، ولاتظن أن لها به عهداً من قبلُ ، وبادرها بقوله :

---

(١) دلف : سار ببطء .

السلام عليك يا «أم عبادة» .

أنا «الحاج» يا «أم عبادة» ، أنا «الحاج» بائع الصعتر والصابون .

أنسيتني ؟!

أفسحي لي الطريق لأفضِيَ إليك بأمر هام .

ودفع الرجل الباب برفق قبل أن تأذن له «رتيبة» ، فلم تمانعه بعد أن عرفت في صوته نبرات «الحاج» التي لم تسمعها منذ سنوات ثلاث ، ووضع قدميه عندَ عتبة الدار الداخلية ، واستدار وراءه ليلقي نظرة على الطريق ويتأكّدَ من أنّ أحداً لم يره ، وأغلق البابّ بأناة وحذر .

نظرتْ «رتيبةُ» إلى الرجلِ الواقف أمامها في ضوء مصباح النفط الخافت فألفته حليقَ اللحية ، بينما كان «الحاج» ذا لحية قصيرة ، فخالطها شيءٌ من الريبة في أمره غير أنها ما لبثت أن ميَّزَتْ ملامحه رويداً ، فداخلها بعضُ الاطمئنان .

لم يترك «الحاج» فرصة لـ«أم عبادة» حتى تقول شيئاً ، وإنما انطلق يحدثها بطلاقة وتحَذُّرٍ خافتين وهو يقول :

عزمت قيادة الثورة على أن تحرر «دمشقَ» وتطرد منها الغزاة ، وقررت أن تتصل بزعماء الأحياء وذوي السابقة في الجهاد ، لتبلغَهم هذا القرار ، وتحَدّدَ لكلٍّ منهم نصيبه في المعركة المقبلة .

وغرضُها من ذلك أن يباغَتَ العدوُّ بالغزو الخارجي والثورةِ الداخلية في وقت معاً ، فيُضْطرُّ إلى تشتيت جنده بين المهاجمين من الخارج والثائرين في الداخل وعند ذلك تهِنُ قوتُه ، وتضعف وطْأته ويسهل الانتصار عليه .

وإن مثل هذا العمل الخطير لا يُكْتَبُ له النجاح إلا إذا توافرت له السرية ، والمباغتة ودقة التنظيم .

فالعدو قوي – يا «أم عبادة» – والعبءُ ثقيل ، والنصر يحتاج إلى تضافر القوى، وتعاون الجهود .

فانبسطت أسارير «رتيبة» ، وزايلها ما بدا عليها من اضطراب ، وهمت أن تقاطع «الحاجّ» بكلمة تبعث الطمأنينة في نفسه هو أيضاً فقال لها :

لا تقاطعيني يا «أم عبادة» ، فالوقت ضيق .

ثم أردف قائلا :

«إن قيادة الثورة بحاجة إلى عدد كبير من نسوة الريف اللواتي لا يبعثن الريبة والشك في نفس العدو ، وذلك للاتصال بـ«دمشق» المطوقة ، ونقل الرسائل بين قادة المناطق، والوقوف على أخبار تجمعات العدو ، ومعرفة الوجهة التي يتوجه إليها جنودُه، وحمل الذخيرة تحت الملاءات ، وفي سلال الفاكهة حين يقتضي الأمر .

وأنت يا «أم عبادة» خير من ينْدَبُ لمثل هذا العمل الخطير ، فلقد عَرَفْتُ كلَّ شيء عنك يومَ كُنْتُ أطوف ببضاعتي في قرى «الغوطة» ، لا لأبيع الصابون والصعتر وإنّما لأنقل أخبار ثورة الشمال إلى الجنوب ، ولم أكن إلا حلقة من سلسلة طويلة تمتد بين «حلبَ» و «دمشقَ» ، فلقد رأى قائد الثورة آنذاك أن يدفع افتراء العدو على حركته باطلاع المواطنين على الحقائق بدقة وانتظام .

ولقد كنت أحس من تطلعك إلي سماع أخبار حركة الشمال وانفعالِك بأحداثها ، وفرحتك بانتصار المجاهدين وإلحاحك على معرفة المزيد من أنبائهم ما شجعني على أن أقترح اسمك على قيادة الثورة للقيام بهذا العمل العظيم ، وأن

أطرق باب بيتك في هذا الليل المظلم ، بل إنني مازلت أذكر يوم سألتني في استحياء عن أنباء المجاهدين فلما لم أعطك منها ما يبل ظمأك أخذت تتمتمين بصوت خافت وأنت تقولين :

«ليت هذه الثورة كانت هنا في الجنوب فنسمع أخبارها عن كَثَب ونقدم لها ما نستطيع أن نقدم» .

فأشرق وجه «أمّ عُبادَةَ » لهذا الكلام ، وهمت مرة أخرى بالحديث ، وهي تريد أن تعلن له استعدادها للقيام بأيّ عمل تكلف أداءه .

فقال لها :

مهلا يا «أم عبادة» ، فالوقت ضيق – كما أسلفتُ – وأنا أعلم ما ستقولينه قبل أن أحضرَ إلى هنا وأحدثَك بحديثي هذا ... ثم تابع قائلا :

إن قيادة الثورة – كما أوضحتُ لك – قد قررت تحرير «دمشق» ، وكتبت هذه الرسالة إلى أحد المسئولين عن الحركة في المدينة ، وهي تعلق على إيصالِها إلى صاحبها أَهَمِيَّةً كُبْرَى .

ولا أجِدُني بحاجة إلى تذكيرك بضرورة المبالغة في السرية والإمعان في الحذر، فإنَّ انكشافَ أمرِ الرسالة يقضي على الخطة بالإخفاق ويعرض كثيراً من الأرواح للموت .

ثم سمّى لها الرجل ، وحدد مكانه ، وعيّن أوصافه ، وزودها بكلمة السرّ التي تلقيها إليه .

وعند ذلك أخرج الرسالة من طيات صَدْرَتِه ووضعها بين يدى «أم عبادة» وواعدها أن يلقاها في سوق القرية بعد غد صباحاً لتُسِرَّ إليْه بما تم معها وهو يسومُها عباءة من عباءاتها فذلك أبعدُ عن الشبهات .

وما كاد الحاج ينهي آخر كلمة من حديثه حتى توجه نحو باب الدار في حذر ، وفتحه بأناة ونظر في الطريق ليتأكد من خلوه من الناس ثم قفل راجعاً من حيث جاء .

أحكمت «رتيبة» إغلاق الباب بعد أن خرج «الحاج» من دارها ، وعادت مسرعةً إلى حجرتها الصغيرة وجلست على فراشها بجوارِ «عبادةَ» ، ووضعت الرسالة بيْنَ يَدَيْها ، وأخذت تفكر فيما هي مقبلة عليه من أمر .

فلقد داخلها شيء كثير من الغبطة لأن الله استجاب دعاءها ، وحقق رجاءها ، فنشبت هذه الثورة في الجنوب وقدر لها أن تسهم فيها ولو بنصيب قليل .

وخالطها كثير من الامتنان لأن «الحاج» اقترح اسمها على قيادةِ الثورة ، ورشحها للقيام بهذه المهمة .

وبعث في نفسها الطمأنينة أنّها تسير في الطريق التي سلكها «أبو عبادة» ، وتُتِمُّ المهمةَ التي كان يرجو أن يؤديهَا لو لم يوافه الأجل .

وأربى على ذلك كله شعورُها بأنها سوف تثأر لشهيدها الغالي من قَتَلَتِه ، وتَنْتَقمَ لابنها الوحيد من أولئك الذين جرعوه كؤوس اليتم قبل أن تكتحل عيناه بنور الحياة .

ثم ألقت نظرة على «عبادة» ، فارتد طرفها عنه ، وقد عراها شيء من الوجل أحال بشرها كآبة ، وبدّل غبطتها غمًّا ، ووجمت قليلاً كأنما كانت تفكر في أمر كبير عرض لها فجأة .

ثم جعلت تسائل نفسها قائلة :

ماذا يكون من شأن هذا الصغير لو أنه حيل بيني وبين الرجوع إلى القرية قبل انصرافه من الكُتّاب غداً ؟

وماذا يكون من أمره لو أني وقعت في يد العدو فألقى بي في غيابة السجن ؟

ولكن .. ولكن كيف أنكص عن أداء ما نُدِبْتُ إليه من واجب ؟!

ومن أين لي أن أنكل عن إنفاذ أمر وافقت على القيام به طائعة مختارة ، وارتبط بأدائه مصير خطة وأرواح رجال ما قاموا قومتهم هذه إلا ليذودوا عن الحياض، ويحفظوا الأعراض ، ويدفعوا عن المواطنين البغيَ والعدوان .

لو أن كل واحد من هؤلاء المجاهدين فكر في أمر أهله وبنيه كما أفكر أنا في أمر «عبادة» لآثروا السلامة ، وفضلوا البقاء إلى جانب أزواجهم وأولادِهم على ما يُعرِّضون أنفسَهم له من أهوال ، ولماَ وَجَد الطغاة المحتلون من يرميهم بحجر .

ثم من أين لي أن أرى «الحاجّ» وأن أعْلمه أنّني جبُنْتُ عن إيصال هذه الرسالة، وأنا لا أعلم له مكاناً ، ولن أتمكن من رؤيته قبل الأجل المضروب بيني وبينه في سوق القرية .

واصطرعت في صدر «أم عبادة» الوساوس ، واضْطرَبَتْ في نفسها الهواجس، وضاق فؤادُها بهذه المحنة التي عانت منها في هذه الليلة أضعافَ ما عانت في حياتها كلها من المحن والأحداث ، وباتت تتردد بين إقْدام تؤدي به حق الله عليها ، وإحجام تحفظ فيه على وحيدها اليتيم حياتَه وأسبابَ بقائه .

ولقد زادها اضطراباً وهَوْلاً ما كانت تحسه من أن عشرات الطبول جعلت تقرع في رأسها ، وأن مئات الأصوات أخذت تناديها من هنا ومن هناك بعضُها يدعوها أن تُقْدِمَ وبعضها الآخر يَهيبُ بها أنْ تحجم حتى كادت تَصْرَعُ وتجَن .

ولم ينتزعها مما هي فيه إلا صوت المؤذن ينساب في أذنيها عذباً رخيماً كما ينساب بارد الماء في حلوق الظماء ، وهو ينادي : حَيَّ على الصلاة حي على الصلاة ، فهبت واقفة ومالت على إبريقها فتوضأت منه وأحسنت الوضوء ، ووقفت بين يدي ربها تؤدي الفريضة بخشوع يبعث في نفوس المؤمنين الطمأنينة والسلام ، ويسكب على الموقنين برد الراحة .

وما إن قُضيت الصلاة ، حتى تناولت مصحفها - ودموعُها تسح من عينيها سحًا - وأخذت تتلو ما تيسر من أيات الله المحكمات حتى بلغت قولَه جل شأنه :

«قُلْ إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانُكم ، وأزواجُكم ، وعشيرتُكم ، وأموالٌ اقترفتموها ، وتجارةٌ تخشون كسادها ، ومساكنُ ترضَوْنها ، أحبٌّ إليكم من الله ورسوله، وجهادٍ في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين» .

فأعادت ذلك مثنى وثلاث ورباع وهي تمسح دموعها عن خديها وأفرغ الله على قلبها السكينة والرضا ، وبث في نفسها السلام والراحة ، وهيأ لها من أمرها رشدا .

وما هو إلا قليل حتى استيقظ «عبادة» من نومه ، وأقبل على أمه يتمسح بها، ويمرغ خديه على راحتيها ، ويحاول أن يندس في حجرها ، فدفعته عنها في حنوٍّ ورِفق ، وقامت تُعِدُّ له طعام صباحه وزادَ يومه ، وهي تتحاشى أن تصافح بعينيها تألق عينيه ، أو تطالع بنظراتها وضاءة وجهه ، خشية أن تجد في ذلك ما يوهي تجلدها ، أو يثنيها عما عزمت عليه .

وما أن فرغ «عبادة» من تناوُل طعامه ، وارتداء ثيابه حتى توشح بمحفظته وغادر البيت متوجهاً نحو الكتاب .

فحاولت «رتيبة» ألا تقف في الباب لوداعه كما كانت تفعل كُلَّ يوم ، ولكنها أحسّتْ أن شيئاً يجذبها إلى ذلك ، فقامت تشيعه بنظراتها ، وهي تسأل الله أنْ يكلأه بعنايته وأنْ يحوطه بحفظه ، وأن يصونه ويرعاه .

* * *

أعدت «رتيبةُ» سلتين ممتلئتين بالبيض ، وقدر لبن متوسط الحجم ، وصحن قشدة كبيراً ، ثم خبأت الرسالة في طيات ثوبها ، ووضعت قدر اللبن فوق رأسها وغطته بصحن القشدة وحملت إحدى سلتي البيض بيمناها والثانية بيسراها ووضعت في جيبها جميع ما تملكه من دراهمَ ، وأغلقت باب الدار ويممت وجهها شطرَ الطريق المؤدية إلى «دِمَشْقَ» ، فما لبثت أنْ رأت جارتها «أمّ الخير» وكانت تربْطُها بها روابط التزاور وتصلها بها وشائج الود ، وبادرتها هذه قائلة :

السلام عليك يا «أم عبادة» .

فقالت «رتيبة» :

وعليك السلام والرحمة يا «أم الخير» .

فقالت «أم الخير» :

إلى أين يا «أم عبادة» ؟

فقالت «رتيبة» :

إلى «دَارَيّا» ، لقد اشتقتُ إلى أخي وزوجه وأولاده ، لقد مضى عَليّ زمنٌ طويلٌ وأنا أهم بزيارتهم ثم لا يتيسر لي ذلك .

فقالت «أم الخير» :

وأين «عبادة» ؟

فقالت «رتيبة» :

في الكتاب ، لم أشأ أن أقطعه عن التعلّم ، ولا أريد أن أعوّده على ترك الكتاب مهما يكن السبب .

فقالت «أم الخير» :

وعلى هذا سوف تعودين قبل انصراف الأولاد من الكتّاب إن شاء الله .

فقالت «رتيبة» :

بإذن الله سأكون هنا مع العصر .

ثم أردفت قائلة :

وأرجو إذا أنا تأخرت قليلا أن يدخل «عبادة» إلى بيتكم ، وأن يلعب مع الأولاد حتى أجيء.

فقالت «أم الخير» :

بيتنا بيتك يا «أم عبادة» ، وأولادُنا إخوة «عبادة» ، نحن أهلٌ ، نحن جيران .

فشكرتها «رتيبةُ» ، وألقت عليه تحيةَ الوداع ، ومضت في سبيلها .

كان التقاء «رتيبة» مع جارتها مبعث راحة لنفسها ، فهي قد ضمنت أن تذيع هذه في لحظات نبأ ذهابها لزيارة أخيها في «دَارَيّا» فلا تكون غيبتها عن الدار طَوالَ النهار مبعثَ تساؤلٍ ، وأن تُوَضّح للناس سبب حملها البيض والقشدة واللبن فسكان القرية ما عهدوها تتجرُ بأمثال هذه الأشياء .

ثم هي قد استطاعت أن تُدْخِلَ على نفسِها الطمأنينةَ من ناحية «عبادة» ، فقد ينصرف من الكُتّاب ، قبل عودتها إلى القرية ، وعند ذلك سيجد من يخبره بسبب غيابِها ويؤويه في بيته إلى أن تعود .

ومضت «رتيبة» نحو دمشقَ هادئة مطمئنة ، ومشت إلى غايتها مشيةَ الواثقِ ، وأطلقت بصرها على جانبي الطريق فوجدت كلَّ شيء يبسم ويزغرد .

فالحقول قد ازّينت وازّخرفت وأنبتت من كل زوج بهيج ، والأشجار قد اشتعلت زهراً مختلفا ألوانه ، وتَضوّعَتْ عطرا متألقاً شذاه ، وجماعاتُ الطير قد قامت تشارك الطبيعة في عرسها ، وتزغرد لها في فرحتها الكبرى فرحةِ الربيع .

وما إن قاربت «رتيبة» «جِسْرَتُورَا» الذي يفصِل «الغوطة» الغناء عن «دمشق» الفيحاء، حتى بدت لها تلك الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمدينة ، وأبصرت المنفذ الضيق الذي فتحه العدو في هذا الحاجز الشائك فوق الجسر ، ورأت البُرْجين العاليين اللذين أقيما على طرفي المنفذ ، ورفعت رأسها لترى الجنود الذين اعتلَوْا كلا البرجين ، ووضعوا على أعينهم المناظير البعيدة المدى ، ووجدت الدبابات تقف متعارضة أمام الجسر ليس بين الواحدة والأخرى إلا مَمَرٌّ ضيق لايتيح لأكثرَ من رجل واحد أن ينفذ من خلاله .

وكان الفلاحون والفلاحَات يقفون صفّاً أمام الجسر من ناحية «الغوطة» يحملون ما جاءوا به إلى المدينة على رؤوسهم وبأيديهم ، وقد أخذ الجنود يفتشون بضاعتهم ويبحثون في ثيابهم ، ويسألونهم عن السبب الذي قدموا من أجله إلى «دمشق» ، وعن الأشخاص الذين سيتعاملون معهم فيها ، ويدونون أسماءهم وأسماء قراهم حتى إذا أعياهم أن يجدوا ذريعةً لمنع أحدهم من دُخول المدينة سمحوا له بالعبور .

ووقفت «رتيبة» في الصف الطويل تنتظر دورَها وهي ترقُب كلّ حركة يقوم بها الجند عند تفتيش من سبقوها فإذا أمعنوا في تفتيش أُحدهم انخلع قلبها رعبا ، وإذا تساهلوا مع آخر خالطها شيء من الاطمئنان ، وقد تعمدت طوال وقفتها هذه

أن تُمْسِكَ سلتي البيض بكلتا يديها ، وأن تحمل قدر اللبن المغطى بصحن القشدة فوق رأسها ، علّها تستلين بذلك قلوبا كالحجارة أو أشد قسوة .

وسار التفتيش دقيقاً بطيئاً ، و«أم عبادة» واقفةٌ تنتظر دورها بصبر يشوبه القلق ، وهدوء يخالطه الخوف .

وكان الجند كلما فرغوا من تفتيش واحد وجدت نفسها تتقدم خطوة نحو الكارثة .

وقد لاحظت «أمُّ عبادة» أن هؤلاء الجند الذين لاخَلاقَ لهم كانوا إذا وصلوا في التفتيش إلى امرأة عليها مسحة من جمال ، أو ومضة من شباب أمعنوا في ذلك وأطالوا .

وقد خشيت «رتيبة» أن يجد فيها هؤلاء الأوغاد ما يغريهم ، فما كادوا يقتربون منها حتى غَضَّنَتْ جبينها ، وقلّصت خديها ، وزَمَّت حاجبيها فعلت وجهها قترة تبعث النفور وتثير الاشمئزاز .

ووصل الجنود إليها فأفرغ اللهُ السكينة على قلبها وبثَّ الطمأنينة في نفسها فبدت رابطةَ الجأش هادئة الروع ، على الرغم مما كان يضطرم في نفسها من وجل وخوف .

ومدوا حرابهم إلى قدر اللبن يعيثون فيها فساداً ، وأصابعهم إلى صحن القشدة يقلبون عاليه سافله ، وأيديهم إلى سلتي البيض فكسروا بعضاً مما فيها ، وتقاطر الزلال على الأرض من خصائص السلنس فمس سروال أحدهم بسوء ، فما كان منه إلى أن صفعها على وجهها بعنف ، ودفع بها إلى خارج النطاق دفعة هوت بقدر اللبن وصحن القشدة إلى الأرض ، وأتت على قسم كبير مما تبقى سالِماً من البيض .

فقامت تحمل قدرها الفارغة ، وصحن قشدتها الذي عفّره التراب ، وسلتي البيض اللتين يتسايل منهما الزُلال ، وهي لاتصدق أنها خرجت من المحنة بسلام .

مضت «رتيبة» إلى حي «العمارة» حيث يقيم المجاهد الذي أمرت أن تؤدي الرسالة إليه ، فلم تجد في ذلك مشقة أو عناءً لأنها كانت تعرف هذا الحيّ وتكثر التردد عليه لشراء ماتحتاجه لبيتها .

ووصلت إلى الحانوت الذي وصفه لها «الحاج» دون أن تسأل أحداً ، ورأت الرجل الذي رسم لها ملامحه بدقة وتفصيل ، وهو يجلس على كرسي واطئ في مدخل الحانوت ، فلم تقدِم على تسليمه الرّسالة إلاّ بعد أن اطمأنت إلى أنه هو الرجل المقصود واستوثقت من ذلك بتجاهله، والسؤال عنه من جاريه الملاصقين له كليهما .

عند ذلك اقتربت منه حتى لم يعد يفصلها عنه شيء ، ومدت يدها إلى كيس أرز كان أمامه كأنها تفحصه لتشتري منه وهمست في أذنه بكلمة السر التي أوصاها بها «الحاج» ، فوقف على قدميه ، وترك حانوته وأشار إليها أن تتبعه .

ومضى الرجل ، ومضت «رتيبة» في إثره وبينهما مسافةٌ كبيرة لاتشعر بما بينهما من صلة ، وسارا في طريق متعرجة ملتوية حتى إذا بلغا بيتاً من بيوت «دمشق» القديمة طرق الرجلُ بابه في خفّةٍ ، ففتح له ؛ فدخل الدار ودخلت «رتيبة» وراءه، فرأت في صحن الدار امرأة عجوزاً ، وأخرى شابة قدرت أن أولاهما أمه والثانية زوجه .

عند ذلك أخرجت «رتيبةُ» الرسالة من طيات ثوبها ، ودفعت بها إلى الرجل فتلقاها باهتمام بالغ ، وفض غلافها بدقة وجعل يلتهم سطورها التهاما ، ما إن فرغ منها حتى أحضر دواته وقلمه وجلس يخط «للحاج» رسالةً طويلةً على ورق هش رقيق ، وقد كتبها بسرعة خيلَ إليها معها أنه يحفظ ماجاء فيها عن ظهر قلب .

وطوى الرجل الرسالة وسلمها لـ«أم عبادة»، وأوصاها بالحِرْصِ عليها، وطلب منها بلهجة تشوبها الصرامة ألا تفرط بها مهما تكن الأسباب وأن تحول دون وقوعها في يد العدو، مهما يكن الثمن، وأن تلجأ إلى تفتيتها وابتلاعها إذا خشيت ذلك .

خرجت «رتيبة» من بيت الرجل بعد أن قدمت له مَاسَلِمَ من سلتي البيض ومابقي في صحن القشدة ، وأبت أن تأخذ ثمناً لذلك ، فأصر الرجل على أن يدفع لها ثمن ماقدمت له ، ورجاها أن تقبله وأن تبذله فيما يمكن أن يُسْنَدَ إليها من عمل ، فأذعنت لمشيئته ، وخرجت تحمل الرسالة ، وكأنها تحمل جميع ماحفلت به كنوز الأثرياء من نفائس .

ويممت «رتيبةُ» وجهها شطر «حَرَسْتَا» وهي تُغِذُّ السير ، وتسأل الله أن يكتب لها السلامة في الإياب كما كتبها في الذهاب وأن يقدرها على أداء الأمانة ، وبلوغ القرية قبل أن ينصرف «عبادة» من الكتاب .

وقاربت «رتيبةُ» «جسرْ تُورَا» وهي تحسب ألف حساب لاجتيازه ، وما أن بلغته حتى رأت ذلك الضابط الذي صفعها ودفعها واقفاً حيث تركته ، فأشار إليها بيده أن تمر ، فاجتازت حاجز الدبابات بخطوات هادئة واثقة على الرغم مما كان يخالجها من الوجل ، وخرجت من النطاق المضروب حول «دمشق» ، ودخلت في منطقة «الغوطة» وجعلت تطوي الطريق طيّاً وكأنها محمولة على جناحي ملَك .

ومرت «رتيبة» في بعض الطريق بجماعة من الفلاحين ، وسمعتهم يتحدثون عن إحراق الفرنسيين لإحدى قرى «الغوطة» ، ورأتهم يعتلون باسقات الأشجار ليبصروا النار المتأججة والدخان المتصاعد ، فلم تشأ أن تتوقف لاستطلاع الأمر ، وآثرت مواصلة السير .

وما أن وصلت حواشيَ القرية ، حتى رأت الفلاحين والفلاحات قد وقفوا عند أبواب البيوت جماعات جماعات ، وقد بدا على وجوههم أنهم يتحدثون في

أمر هام فتوارد على ذهنها ماسمعت في الطريق عن إحراق القرية ، ورجحت أن اجتماعاتهم هذه ذات صلة بذلك .

وأقبل الناس على «أم عبادة» يهنئونها بعودتها سالمة ويلقون عليها عشرات الأسئلة دفعة واحدة عما حلّ «بِدَارِيّا» وسكانها ، وجعلت «رتيبةُ» تجيبهم عن أسئلتهم هذه بما لا يزيدهم معرفة ، وهي تعتمد في ذلك على إعطائهم بعض ماكانت تأخذه من أفواههم ، وقد استطاعت بما أوتيت من سرعة البديهة وتَوَقّد الذهن أن تتخلص من الحرج الذي وقعت فيه ، وأن تَرُدَّ عدم وقوفها على حقائق الأمور إلى أنها حين اقتربت من القرية وَجَدَتْها وقد استحالت إلى قطعة من الجحيم ورأت سكانَها يفرون بأنفسهم وأولادهم ونسائهم إلى البراري والبساتين ، وأنها لم تستطع أن تعرف عن أخيها وأسرته شيئاً .

وبلغت «رتيبةُ» الدار بعد رحلة طويلة شاقة ، وبادرت إلى وضع الرسالة في مكان أمين ، ونَضَت عنها مُلاءَتَها ، ووقفت تنتظر «عبادة» ، وكأن دَهْراً طويلاً فصلها عنه ، فما لبث أن عاد الصغير تتدلى حقيبته على جنبه ، ويحمل بيده صحن طعامه الفارغ ، فتلقته «أمُّ عُبادة» كما لم تتلقه من قبل وضمته إلى صدرها الدافئ بشدة، وقبلت رأسه وجبينه وعينيه ، وجلست تأكل معه شيئاً من الطعام وهي لاتكاد ترفَعُ بصرها عنه .

وباتت «رتيبةُ» ليلتها تلك وهي تترقب مطلعَ الفجر ، وتستحث الساعات أن تسرع ، وتستعجل الأجل المضروب للقاء «الحاج » وتسليمه الرسالة .

وما أن طلع النهار ، وذهب «عبادة» إلى كتابه ، حتى استحضرت «رتيبة» عباءة كانت قد استبقتها عندها منذ زمن طويل ، لتصلح مافيها من عيوب ، وحملتها إلى السوق وجعلت تطوف بأصحاب الدكاكين وتعرضها عليهم فلا تجد من يشتريها ، ولو وجدت لما باعتها .

وهناك سمعت قصة إحراق «داريّا» التي لم تغب عن ذهنها لحظة، وعلمت أن الفرنسيين لما أصيبوا بهزيمة منكرة على يد المجاهدين قرب «داريّا» رأوْا أن ينتقموا من القرية الآمنة فشردوا أهلها ودمروا جُلّ بيوتها وأضرموا في أنقاضها ناراً وقودُها الأثاث والحجارة فالتهمتها التهاماً .

واستبطأت «رتيبةُ» مَقْدِمَ «الحاج» فداخلتها الظنون ، وخامرتها الشكوك وخشيت أن يكون قد أصابه مكروه خلال المعركة التي أُحرقت «دَاريّا» في أعقابها. وطال انتظارها وجعل اليأس من لقائه يتسرب إلى نفسها شيئاً فشيئاً ، وظهرت آثارُ ذلك على قسمات وجهها وحركات يديها وتمتمات شفتيها .

وهمت أن تأخُذَ طريقها إلى البيت وهي تحمل الرسالةَ الخطيرة التي لاتعلم لمن ستؤديها إذا كان «الحاجُّ» قد لحق بجوار ربه وغدا في عِداد الشهداء .

وبينما هي في غمرة أفكارها هذه أطل عليها وجه «الحاج» وكأنه نبع من الأرض أو هبط من السماء ، ومد يده إلى العباءة التي كانت تحملها بأناة ، وجعل يقلبها وهو يتراجع قليلا قليلا إلى مكان منعزل من السوق ، فأعطته العباءة بعد أن دست في طياتها الرسالة ، وتناولت منه ماقدم لها من دراهم ، وأخذت تحصيها بدقة تلفت الأنظار .

وعادت أدراجها إلى البيت وهي مغتبطة بما أتم الله على يديها من عمل راجية أن يُكْتَبَ لها شرفُ مواصلة الجهاد بعد أن ذاقت حلاوته ، واستعذبت مذاقه . وعزمت «رتيبةُ» منذُ اليوم أن تَهَبَ للثورة وقتها الذي يمتد من بَرَاحِ «عُبادةَ» البيت حتى رجوعه إليه مادام علم الجهاد مرفوعاً .

الفصل الثالث عشر

مضى « الحاجُّ » بالرسالة مسرعاً إلى مقر قيادة الثورة ، وسلمها إلى القائد العام نفسه ، ففضها عجلانَ ، وأخذ يثِبُ ببصره بين سطورها وثْباً ، حتى أتى عليها كلها في لحظات ، ثم طواها بإحكام ، ووضعها في جيب سترته الداخلي ، وأرسل يدعو أركان حربه إلى اجتماع طارئ ، وقد بدت على وجهه علامات الرضا، وأمارات الارتياح .

وأطْلَعَ القائدُ رجاله على ماجاء في الرسالة فاستبشرُوا بها خيراً ، وعرَفوا أن اتصالاتهم السابقة مع قادة الحركة الوطنية في المدينة قد آتت أُكُلهَا طيباً مباركاً ، وأن المجاهدين هناك يقفون على أهبة الاستعداد للعمل الحاسم في الأُجل المضروب وهو صبح اليوم التالي .

وبادر الجميعُ إلى إعادة النظر في الخطّة التي رُسِمتْ لتحرير «دمشق» على هدي ماجاء في الرسالة ، وعملوا على إقامة تعاون وثيق بينَ الهجوم الخارجي والحركة الداخلية .

وقد حُدّد في هذا الاجتماع لكل كتيبة طريقُها الذي تسلكه ، ومكانُها الذي تعمل فيه ، وواجبُها الذي تؤديه ، ووُضِعَ لكل احتمال حَلٌّ ، ولكل مفاجأة ردٌّ .

وقد تم لهم ذلك في جلسة طويلة امتدت سحابَةَ النَّهار وهزيعاً من الليل .

ولقد كانت تلك الأسلاكُ الشائكةُ التي طوّق العدو بها «دمشق» أعظمَ مايقف في وجه المجاهدين ، ويعوق تنفيذَ خططهم ، ويجعلُ الوصولَ إلى المدينة غاليَ الثمن باهظَ الضّحايا ، فلقد ثبتها الفرنسيون على ثلاثة صفُوف من الأعمدة الحديدية المغروزة في الأرض فغدت حواجزَ ثلاثةً ، بين كل حاجز وحاجز ذراعٌ ونصفُ الذراع ، ثم وصلوا مابينها بأسلاك عرْضيّة فاستحالت إلى نطاق حديديّ محكم ، سمكُه ثلاثةُ أذرع وارتفاعه ثلاثةٌ أيضاً ، مما جعل اجتيازه ضرْباً من المُحال ووَهْماً لايصح في خيال شاعر .

استأذن « الحاج » القائدَ العام في أنْ ينفردَ به قليلا من الوقت فاستجاب لطلبه وخلا به مدة عشر دقائقَ ، خرج بعدها وهو يَشُدُّ على يده ، ويتزود منه بنظرة كان يخشى أنْ تكونَ الأخيرةَ ، ويرجو له التوفيقَ بعد أن أمر بأن ينَضمَّ إليه أحدُ رجاله الأشداء، ومضى الرجلان إلى غايتهما مسرعين لايلويان على شيء .

حتى إذا بلغا مكاناً معيناً استوقف « الحاجُّ » صاحبهَ عندهَ ، وألمّا على حفرة كانت فيه ، واستخرجا منها كيسا ، فيه سلسلتان من حلق الصلب المُفْرَغ ، وقطعٌ من الحبال الفولاذية اللّدنة المفتولة من مئات الأسلاك الدقيقة ، و « كماشتان » كبيرتان ، وعددٌ من القنابل اليدوية ، وكان جُلُّ مافي الكيس مما غنمه المجَاهدون في إحدى معاركهم مع الفرنسيين .

تَسلّح الرجلان بالقنابل . وتعاونا على حمل الكيس ومضيا يحثان الخُطى في اتجاه «دمشق» .

وفي الطريق أفضى « الحاج » إلى صاحبه بما يعزم عليه من أمر ، وكشف له عن الطريقة التي سيتبعَانها ، فارتاحت نفسُه إلى ذلك على الرغم مما كان ينتظرهما من مخاطر .

وتابع الرجلان سيرَهما في عتمة الليل حتى إذا قاربا الحاجز الحديديَّ الذي يفصل «الغوطة» عن «دمشق» انبطحا على الأرض ، وجعلا يزحفان على بطنيهما نحوه إلى أن بلغاه .

وكان الحاجزُ في هذه المنطقة يقع بالقرب من « محطة القدم » ويُحاذي الخَطَّ الحديديَّ الممتدَّ بين «درعا» و «دمشق» .

وكانت «محطَّةُ القَدَم» هذه آخرَ مكانٍ يقف فيه القطار قبلَ أن يبلغَ «دمشق» .

* * *

التصق الرجلان بالأرض حتى أصبحا قطعة منها ، وجعلا يترقبان وصول القطار ، وقلباهما يدقان في صدريهما دقًّا عنيفاً ، يكادان يسمعانه بوضوح .

وماهي إلا ربعُ ساعة حتى أقبل القطار من بعيد يهجم على المحطة هجومَ المارد الجبار ، كأنه يريد أن يُسَوِّيَها بالأرض ، وجعل نفض الدخان كثيفاً من مِنْخَرِه وكأنه يُنَفِّسُ عَمَّا يضطرم في صدره من غيظ ، وأخذ يَزْعَقُ بصوته المرعب وكأنه يريد أن يُوقظَ من في القبور .

ثم تمهل في سيره لَمَّا قارب المحطة وأخذ يتوقف شيئاً فشيئاً حتى استقر في مكانه المحدد له وهو يلهث .

لم يُضِع « الحاجُّ » ، ورفيقهُ لحظة من وقتهما القصير الثمين ، وإنما زحفا على بطنيهما يجران الكيس حتى لاصقا آخرَ عربة من عرباتِ القطار ، وأخرجا مافيه من عدة أعداها لهذا الموقف . وأمسك كُلٌّ منهما بإحدى السلسلتين وبادر إلى ربط طرفها بحديد عربة القطار ربطا مُحْكماً استُخْدِمتْ فيه الحِبال الفولاذيةُ المرنةُ ، واستُعين عليه « بالكمَّاشتين » الكبيرتين .

ثم زحفا نحو النطاق الحديديّ ، وربط كلٌّ منهما الطرف الآخر من سلسلته بأعمدته الحديدية ربطا وثيقا وشدَّها إلى أسلاكه الشائكة شدًّا مُحْكَماً .

ولما تم لهما ذلك على أكمل وجه انحازا بعيداً عن الخط الحديدي ، واعتصما بجذعي شجرتين باسقتين ، وتلبثا يرقبان نتيجة ما أحكما من تدبير بقلق واضطراب .

وماهي إلا دقائقُ مَعدوداتٌ حتى زَعَقَ القطار زعقاته الثلاثَ المعهودات ، ونَفَثَ من منْخَرِه شُحْنَةً من الدخان الأسود ، وانطلق من « المحطة » كالغول الهائج فاقتلع النطاق الحديدي كم يقتلع المرء قضيباً دُسّ في الرمال ، وجرَّه وراءه كما يجر الأسد فريسته ، وسار به مسافات بعيدة ، وفتح أبواب «دمشق» أمام المجاهديين الذين أصبح هجومهم على المدينة وشيكاً .

توجه « الحاج » وصاحبه إلى المكان الذي احتشد فيه المجاهدون ليكونَ منطلقاً لهم نحو العاصمة وزفَّا إلى القيادة بُشرى فك الحصار عن المدينة . فأقبل عليهما المجاهدون يعانقون ويقبلون ، وهم لايكادون يصدقون ماتسمعه آذانهم من نبأ .

وأجرت القيادة تعديلا سريعاً في خططها التي رسمت أمس ، وانقسم المجاهدون إلى فرقٍ ثلاث تدخل أولاها «دمشق» من حي « المَيْدَان » وتدخلها الثانيةُ من حي « الشاغُور » ، أما الثالثة فتسلك إليها طريق « باب السلام » .

وما أن انبلج الفجر حتى أُطْلقت الرصاصات الثلاثُ الأولى من بندقيات قادة الفرق الثلاثِ فاستجاب لها المجاهدون الرابضون في مكامنهم من المدينة .

ودوت أصوات التَّكْبير والتهليل من منارات المساجد وسطوح المنازل تثير الهِمَمَ وتشحذ العزائم وتحض الناس على الجهاد .

وهب الشعب المؤمن في دمشق يحمل السلاح في وجه العدو ، وقد اتشح مآثره وبطولاته ، وتسربل[1] بأيامه وانتصاراته ، فهال الفرنسيون أن تتحول المدينة جميلة في لحظات إلى ميدان حرب ضروس ، وأن تصبح البيوت الآمنة عرائن[2] ج بالأسود ، وأن تتحوّل الشرفات والنوافذ إلى معاقلَ تمْطِرُ الرصاص ، وتقذف قنابل ، وأن يغْدو كُلُّ مواطن ثائراً .

وخاض المجاهدون مع العدو معاركَ ثلاثاً في وقت معاً كانت أقواها مِراساً شدُّها بأساً معركة « الشاغور » التي كان يقودها « الحاجُّ » .

فقد حمل المجاهدون على عدوهم حملةً صادقةً زلزلت أقدامه ، وجَنْدَلَتْ جاله ، ومزقت صفوفه وحملته على التراجع ، فكروا وراءه ، واستَوْلَوْا على شطر كبير من الحي المجاهد .

ثم مالبثوا أن اصطدموا بفرقة من دبابات العدو الضخمة، سدّت أمامهم المنافذ، أخذت عليهم الطرق ، وصمدت لهم كما تصمد القلاعُ في وجوه المغيرين ، لم يَفُتَّ ذلك في عضد المغاوير وإنما اندفعوا يهاجمون هذه الدبابات مثنى وثلاث ـد أنهم كانوا يتراجعون عنها في كل مرة بعد أن تحصد طلائِعَهم بنيران رشاشاتها نسحق أجسادهم بعجلاتها سحقاً .

عند ذلك رأى المجاهدون أن يتراجعوا إلى الوراء ، وأن يَتَخَلَّوْا عن الأماكن التي حتلوها في الصباح .

ولما بادروا إلى تنفيذ الخطة الجديدة وجدوا أن العدو قد طوقهم بدباباته من خلف أيضا ، وأنه أحاط بهم من كل جانب ، ثم سدّد نحوهم رشاشاته ، وصوب يهم قذائف دباباته .

---

١) تسربل : لبس السربال وهو القميص .

٢) العرائن : أماكن الأسود ، وهو جمع مفرده عرين .

وأيقن « الحاج » ومن معه أنهم هالكون لامحالة ورأوا أغوال الموت تزحف نحوهم فاغرة الأفواه حُمْرَ الأظافِرِ .

فصمموا على أن يموتوا أعزَّةً كراماً ، وأن يصمدوا لعدوهم مابقيت في بندقياتهم في رصاصة .

وسارت المعركةُ في طريقها المحتومَةِ ، وأخذت وطأة العدو تشتد على المجاهدين لحظة بعد أخرى ، وباءت جميعُ المحاولات التي بذلها المواطنون لإنقاذهم بالإخفاق، وشخصت أبصار الناس نحو هؤلاء الأباة الذين فتحوا أذرُعَهُم للموت يعانقونه ، ومدوا أيديهم إلى الردى يستقبلونه .

ووقف كل من في الحي وَجِلاً يشهد مصرع الحق على يد الباطل ، ويترقب الساعة الرهيبة التي لاريب فيها ، إلا أنْ تدركَ المجاهدين معجزةٌ تأتي بها السماء ، أو تنقذَهم خارقةٌ تنشق عنها الأرض .

وماهي إلا دقائق معدوداتٌ حتى حدثت المعجزة التي رجاها الناس ، وتساقطت على أماكن تجمع الدبابات عشراتٌ من كراتِ النفطِ الملتهب كما تتساقط الصواعق في يوم نحس ، وجعلت تنقض عليها انقضاضاً يثير الرُّعْب ويبعث الهول ، فشبت النار في عدد كبير منها بأسرع من لمح البصر ، وانفجرت محركاتها على من فيها كما تنفجر البراكين الغضبى ، وتناثرت شظاياه بعيداً في كل اتجاه ، وأضحى اللائذون بها من جند العدوِّ مِزَقاً مُبَعْثَرَةً هنا وهناك .

وتَتَالى قذف الكُرات فدب في صفوف العدو الذُّعْر وحدث بين رجاله الهرج والمرج .

عند ذلك حَملَ المجاهدون على عدوهم حَمْلَةً زلزلت أقدامَهُ ، وأذهَلَتْه عن نفسه وعن خططه وأكرهته على التراجع بما سلم من دباباته ، وشق الأبطال طريقهم بين الأشلاء والدماء وتكبير الرجال وزغاريد النساء ، ورفع « الحاج » رأسه ليرى مصدر إطلاق الكرات فلاح له وجه «أمّ عبادة» من خلال الدخان المتصاعد ، وقد أحاطت بها كوكبة من النسوة المجاهدات ، وجماعة من الفتية الذين لم يتجاوز أكبرهم السادسةَ عشرةَ من عمره .

وماكاد ينتصفُ النهار حتى تحررت جُل أحياء المدينة الباسلة . وتلاقت جموع المجاهدين على ضفاف «بردى» . ولاذ الفرنسيون بقلعة «دمشق» يحتمون بأسوارها المنيعة والتجأوا إلى «المزة» يعتصمون برباها الحصينة وانحازوا إلى حي «الصالحيّة» الذي بقي في أيديهم .

فرحت «دِمَشْقُ» بما أفاء الله عليها من نصر مُؤزّر ، وأخذت تقص أخبار معركة الساغور الرهيبة ، وتروي حديث المرأة التي صنعت المعجزة ، وأنقذت المجاهدين من المصير المحتوم .

فكان مما رووه عن تلك القروية الذَّكيَّة الباسلة ، أنها حين وجدت المجاهدين قد أحيطَ بهم من كل جانب ، ونظرت إلى الدبابات التي أخذت تُحْكِمُ حولَ أعناقهم الطوق وأيقنَتْ أن هؤلاء الذادةَ عن الحمى سوف يموتون فوق الأرض التي هبوا للدفاع عنها .

عند ذلك حانت منها التفاتة فرأت عربة يشحنها أحد التجار بقوارير النفط ليُقْصيهاَ عن بيته وجيرانه ويذهبَ بها بعيداً عن ميدان المعركة ، خشيةَ أن تصيبها شَظيَّةٌ ملتهبة ، أو تسقطَ عليها جذوة متقدة ، فتشتعل النار في البيت وساكنيه ، وتأتي بعد ذلك على الحي ومن في الحي ، وما أن وقع بصر القروية على قوارير النفط حتى لاحت لها المعجزة وتفتق ذهنها عن الحل .

فدخلت أحدَ البيوتِ التي تطل سُطوحها على ميدان المعركة ، وعرضت فكرتها على من فيه من النساء والفتيان فهللوا لها وكبروا .

وما أسرع أن تحركت آلة الخياطة تحيك الأكياس الكروية من الثياب القديمة ، وتصنع لها الأزمّة من الأمراس وماأعجل أن استُخْرِجَ مافي الفُرشُ والحشايا من القطن، وأن أحْضِرَتْ كمياتٌ من نشارة الخشب من منشر مجاور .

وأقبلَ من في البيت على الأكياس الكرويّة يحشونها بخليط النشارة والقطن حشواً شديداً كثيفاً ، ويغمسونها في قدورِ النفط حتى تَحْفِل به وترتوي منه .

وما أن اجتمع لهم من هذه الكرات ماقَدَّروا أنه يكفيهم لما أقدموا عليه من أمر، حتى اعتَلَوْا سطوحَ الدار المشرفة على الدبابات ، وجعلوا يشعلون النار في الكرة من هذه الكرات فتلتهبُ بأسرعَ مما قُدّرَ لها أن تلتهب وأشدَّ ، ثم تزداد ضِراماً حين يُمْسَكُ بها من زِمامها وتُدار في الهواء مرات قبلَ أن تُقْذَفَ على الدبابات .

الفصل الرابع عشر

أيقنت فرنسا بعجزها عن استرداد المدينة من أيدي المجاهدين بقوة السلاح وأسْقِط في يدها فلم تدرِ ماتصنع .

وتوالت عليها الأحداث كقِطَع الليل المظلم .

ولاح لقادتها شبحُ الهزيمة الكبرى ، فأغمضوا أعينهم من هول مالاح لهم .

وأخذوا يتَخيَّلون أنفسهم وقد أخرجوا من الجنة التي قضى آباؤهم وهم يحلمون بدخولها .

وجعلوا يتصورون مواطنيهم وهم يستقبلونهم على شواطئ فرنسا بالاحتقار والزراية . وقدروا ماستقوله عنهم أوربا حين تعلم أن جيشَ فرنسا الجرارَ قد هُزِمَ أمام حفْنَة من المجاهدين العزل . وعاد أدراجه عبْرَ البحار يجُرُّ أذيال الخيبة ويحمل عار الهزيمة .

فغلت في نفوسهم مراجل الحقد ، واتقدت بين جوانحهم نيران الشر .

وعزموا على أن ينقذوا سُمْعَةَ فرنسا بما تسودُّ له كل سمعة ، وأن يصونوا شرفها بما لايتفق مع الشرف ، وأن يحافظوا على الجنة بتحويلها إلى جحيم مستعر .

ووجدوا أن ذلك لايتم لهم إلا إذا طاولوا « نيرون » فيما حرَّق ، وكاثروا « هولاكو » فيما دمَّر ، وغالبوا « تيمورلنك » فيما أراق من طاهر الدماء ، وما أزهق من زكي النفوس .

فصمموا على أن يفعلوا ذلك وأكثر من ذلك ، ثم لِيقُل التاريخ عنهم مايقول. وبادروا إلى إنفاذ الخطة ، فأجلَوْا نساءهم وأطفالهم عن «دِمَشْقَ» ، ونقلوا كنوزهم ونفائسهم ووثائقهم إلى مكان قصي .

ثم نصبوا مدافعهم الثقيلةَ على ذُرى «قاسِيُونَ» ورُبى «المزّة» فأطلت على المدينة من الشمال والشرق ، وأعدوا سرباً من الطائرات قاذفات القنابل .

وأصدروا أمرَهم بتدمير المدينة وتسويتها بالأرض ، وقرروا أن يتم ذلك في ستين ساعة ، وأن يبدأ القصفُ مع غروب الشمس .

وفي اللحظة الرهيبة شرعت المدافع تقصِف المدينة الجميلة بالقنابل ، وحلّقت الطائرات تقذف السكان الآمنين بالحُمَمِ .

وسُعِّرتَ في «دِمَشْقَ» نارٌ وقودُها الناس والحجارة ، فشبت الحرائق في كل مكان تلتهم الدور والقصور ، واندلعت ألسنةُ اللهب من كلّ صوب تبتلع المنازل والمرابع .

وفتح الناس أعينهم على الهول المنصبّ من السماء ، والموت المتساقط من الجبال ، فهبوا مذعورين يلتمسون النجاة ، وتدافعوا مبْهورين يبغون المفر .

فكانوا أينما تولّوْا يُصْدَمُون بجدار ينقض ، أو يسقطون تحت سقف يَخِرُّ ، أو يُرْجَمونَ بشُرْفَة تتداعى .

وخرجت الكواعبُ الحسانُ يَهِمْنَ على وجوههن في الشوارع حاسرات الرءوس ، وانطلق الصبيةُ الصغار يتراكضون في الأزقة ، وقد اتقدت أجسادهم الغَضّةُ بالنار فَبَدَوْا كالشعَل التي أطلقتها الأقواس .

واختلط عويل النساء بزفيرِ اللّهب ، وامتزج قُتَارُ[1] الأجساد المشوية برائحة

(١) القتار : رائحة اللحم والعظم المحروقين .

خان . وبدا الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن وقع النازلة شديد . واستمر
صف طَوال الليل لايهدأ ولايفتُر ، وطلع الصبح فلم يكن الإصباح بأمثلَ
، الليل .

عند ذلك عقدت قيادة الثورة اجتماعاً عاجلاً شهَده قادةَ المناطق جميعاً ، تقرر
، أن ينسحب المجاهدون من المدينة ضناً بها أنْ تباَد ، وصوناً لها من أن تغدوَ هي
احفلت به من معالم التاريخ كلمةً يقولُها التاريخ .

ونُفِّذ القرارُ بسرعة ، وخرج رهط من رجال المدينة إلي « المِزّة » تحتَ قذف
نابل وقصف المدافع وأزيز الطائرات يعلنون للفرنسيين استسلامَ المدينة ، ويخبرونهم
وح الثائرين عنها ، ويطلبون منهم الكَفَّ عن تدميرها .

فما كان جوابُهم إلا أن قالوا : إن المدة المحدّدة لإطلاق النار لم تنته بعد ،
هم لن يكفوا عن القذف إلا إذا حلَّ الأجل المضروب .

واستمر قصفُ المدينة ، وضجت الدنيا تبكي معالم التاريخ التي دُكّت، وتشكو
ٰ فرنسا الذي طغى وازداد. وسارت المأساةُ في طريقها المرسومةِ حتى بلغت نهايتها.

ولقد كان من آثار هذا القصف الذي دام ستين ساعة كاملة أن دُمِّرتْ
اجدُ ومعابدُ كان يُذْكَرُ فيها اسم الله، وهُدّمتْ قصورٌ ومنازلُ كانت تزخر بالحياة،
فَتْ مؤسّساتٌ ومرافقُ كانت تمور بالحركة ، وأزيلَت من الوجود أحياء برمتها ،
ت قاعاً صَفْصَفاً تذوره الرياح .

ودُفِنَتْ تحت الأنقاض نفوسٌ زكية كريمة ، وثَوَتْ بين الرَّماد وجوهٌ سمحة
ة ، واستقر تحت الرُّكام صبيةٌ صغار أنضرُ من ورود الربيع ، وصبايا صغيراتٌ
، من نَوْرِ نيسان .

وبدت من خلال ذلك الأشلاء المُمزَّقةُ ، والأجسادُ المحرَّقةُ والدّماء المُراقةُ .

فهذه معْصَمٌ ليس لها ساعدٌ ، وتلك رأسٌ لم تتصل بجسد ، وهذه أسرةٌ تَعانَقَ أفرادها جميعاً في رُقعَة صغيرة من الأرض وأسلموا أرواحهَم في وقت واحد .

وامتلأت الدروبُ بمن سلَم من النساء وهن يَضمُمْنَ صغارَهن المشوَّهين إلى صدورهن ، وبمن نجا من الرجال وهم يحملون ما بَقي لهم من مال في أيديهم ، وقد يَمَّمُوا وجوهَهُم جميعاً شطر قرى «الغوطة» ، بعد أن نَبَتْ بهم «دمشقُ» ، ولم يبق لهم فيها مسكنٌ يأوون إليه ، أو ملجأ يلوذون به .

الفصل الخامس عشر

لم يكن انسحابُ المجاهدين إلى «الغوطة» هزيمة للثورة ، كما لم يكن تدمير «دِمَشْقَ» نصراً لـ«فرنسا» .

فقد سلك المجاهدون في انسحابهم سبيلَ الرشاد والهدى ، ففازوا بثقة الشعب ونالوا إعجاب العالم .

وسلك الفرنسيون في فَعْلَتِهم سبيل الضلالة والغيِّ فسقط ما كانوا يحتجون به أمام المحافل الدولية من أنهم قدموا إلى الشرق المتخلف يحملون إليه اليَدَ الحانيةَ ، والحضارةَ البانيةَ ، والخيْرَ والرّفاه .

ولم يكن نُزوحُ المجاهدين عن «دمشْقَ» ليفتَّ في عَضُدِهم ، أو يوهِنَ من جلَدِهم ، أو يجعل لليأس عليهم سبيلا .

فلقد عكَفوا بعد الانسحاب على قُواهُم يعدُّونها ، وأكبُّوا على صفوفهم يُنَظِّمونها ، ورجعوا إلى خططهم يعدِّلونَها .

واتخذوا من «دُومَا» أكْبَرِ بلدان «الغوطة» قاعدةً لحركتهم ، وأقاموا فيها حُكْماً أساسه الشورى ، وغايتُه الخيرُ والحق ، ووسيلتُه التعاونُ والتنظيمُ والعدلُ .

وانتخبوا لها حكومةً استطاعت أنْ تُعيدَ إلى أذهان الناس مفهوم الحُكْم الصالح بعد أن حيل بينهم وبينَه زمناً طويلا ، فواجهت الأحداثَ بشجاعة وإقدام ، وعالجت المشكلات بحكْمَة وحزم ، وأفسحت في هذا البلد الصغير مكاناً [illegible]

النازحين الذين أخذُوا يتقاطرون من «دمَشْقَ» المُحَطَّمَة ، ويتوافدون من القرى التي حرَّق العدو بيوتَها وشرَّد ساكنيها .

فأعدت لهم جميعاً أماكِنَ تؤويهم ، ومؤونة تكفيهم ، وضَمِنَتْ لهم الحماية والأمْنَ .

وصمم المجاهدون على أن يجعلوا من هذه «الغوطة» معاقل تلقي في قلوب أعدائهم الرعب ، ومن دروبها مقابر تبُث في نفوسهم الخوف ، ومن أشجارها أشباحا تَسْرِق من عيونهم النوم .

ورأوا أن يصابحوا عدوهم كلَّ يوم بهجوم ، وأن يُمَسُّوه كلَّ ليلة بغارة حتى لاتَكْتَحِلَ له مُقْلَةٌ برُقادٍ ، ولايستقر له جَنبٌ على مَضْجع ، ولايُمتِّع نفسه بما يسلبُه من أموال هذا الوطن ، ومايغتصبه من أسباب عيش المواطنين ، ولكيلا يتيحوا له يومَ يخرجُ من هذه البلاد أن يذكر أنه قضى في ربوعها ساعةً طيبة يَحِن إليها ، أو ليلةً راضية يأسف عليها .

وكان على «فرنسا» أن تجند لهذه «الغوطة» العسكر بعد العسكر ، وأن ترسل إليها الفيلق إثرَ الفيلق ، لتطفئ النار المستعرة على أرضها ، وتقضيَ على الخطر الآتي منها .

وكانت «الغوطةُ» تفتح كلَّ يوم فمها الكبيرَ لتَلْتَقِف جميعَ ما يُلْقي إليها العدو من عدة ورجال ، ثم تسأل : هل من مزَيد ؟

بيْد أن الفرنسيين في هذا اليوم أعدوا عُدَّتَهم لضرب المجاهدين ضربة كبرى ، فقد نُمِيَ إليهم أن هناكَ اجتماعاً خطيراً سيُعْقَدُ في منطقة «الزُّور» بالقرْب من «جوْبَر» يشهده الصفوة المختارة من قادة المناطق للتشاور في أمر تلك المعارك الدائرة

في جبال «القَلَمْون» ، وبذل أقصى الجهد لكسب النصر فيها . والسعي إلى تعاون القوى العاملة في شتى الميادين على شد أزرها ، والعمل على تنسيق الخِطَطَ بما يكفُل لها الظفر .

ومنطقة «الزّوْر» هذه ، غيلٌ باسق الأشجار ، ملتف الأغصان كثيف الأعْشاب، مَحُوطٌ بالماء من أكثر جهاته .

فكأنما أعِدَّ بمهارة وحِذْق ليكونَ ملاذاً بعيداً عن فضول العيون ، ومعقِلاً يَعِزُّ على غير أبنائه أن يدوسوا حماه أو يطؤوا حُرُماتِه .

وكانت القيادة قد استقدمت من ميادين القتال نفراً يسيراً من الجند وعهدت إليهم بحراسة المكان ، وأعدت طائفةً من العيون فيهم «أمُّ عبُادَة» لحماية المنطقة من عيون العدو .

وفي الصباح الباكر توافد القادة الصيدُ على مكان الاجتماع من كلّ جانب كما تتوافد الأسود على عَرائنها ، وأقبل بعضُهم على بعض يتعانقون عناق الإخوة الذين طال بهم العهد ، ويتساءلون تساؤل الأحبة الذين لَجَّ بهم الشوق ، ويتشاورون فيما قَدِموا له من أمر .

وما كان يعلم المجاهدون أن العدوّ واقف لهم بالمِرْصاد ، وأنه دبر لهم أمراً في ليل .

فقد أخذ يتسلل بمُشاته في غَسَقَ الدّجى إلى المناطق الآمنة القريبة من «الزّوْر» ، وينتقل بذخائره ومُعِدّاته نحو المواقع التي تمكنه من الالتفاف حولَه ، ويُعِد طائراته ليضرِبَ الثورة ضربةً قاضية تأتي على ذوي الرأي من قادتها ، وتذهب بأولي البأس من رجالها ، وتتركُها جُثّةً هامِدَةً ، فقدت عقلها الذي تفكر به ، وخسرت يدها التي تصاول بها وتناضل .

وماكاد يجتمع شمل المجاهدين في «الزّوْر» ويكتملُ عقْدهُم على مروجه الخُضْرِ ، حتى كان العدو يلتف حولهم كما يلتف حبل المشنقة حول الأعناق ، ويُطْبق عليهم كما يطبق ظلام الليل على بقايا ضياء النهار ، ويترقب اللحظة التي يُحْرِزُ فيها صيده الثمين .

وانطلقت الطائرات الفرنسية تحلق فوق الغيل وتغطي سماءه وأخذت تقذفه بالحُمَم تُريدُ إحراقه ، وفُتِحَت أبوابُ الجحيم من مدافع العدو ورشاشاته .

وهبَّ المجاهدون يدفعون العدو عن غِيلِهم ، ويمنعونه أن يفتكَ بهم ، بيْدَ أنه لم يكن معهم من السلاح إلاَّ ماحمـلوه بأيديهم ، ولم يـكن لديهم من الرِّصاص إلا مانَضَّدوه في أوشحةِ الجِلْد المدلاة من عواتقهم .

وهو سلاح لايغني في معركة كهذه ، ورصاصٌ لايَسُدُّ في يوم كريهة كهذا اليوم .

وصدرت الأوامر إلى المجاهدين بألاَّ يفرطوا برصاصة إلا إذا أيقنوا أنها ستصيب من عدوهم مقْتَلاً .

ودارت المعركة على وجه قلّما دارت عليه معركة ، فالفرنسيون لايجرؤون على اقتحام الغيل مع مايملكون من قوة السلاح ، والمجاهدون لايقدرون على فك الحصار لقلة مامعهم من ذخيرة .

وهبت «رتيبةُ» وغيرُ رتيبة من النساء والأطفال يهيمون في أزقة «جُوبَرَ» وماجاورها من القرى يستنهضون الهمم ويستثيرون العزائم علّهم يجدون في من بقيَ من القاعدين عن الجهاد من الشيوخ والأطفال والنساء من ينقذ المحاصَرين ، ويحول دون وقوع الكارثة ، فلم يظفروا بما ينقع الغليل .

وكانت المُعْضِلَةُ الكُبْرى تمثل في إيصال الذخيرة إلى المجاهدين فهم إذا توافر لهم الرصاص الذي يحشون به بندقياتهم استطاعوا أن يَفُكُّوا الحصار عن أنفسهم بأيديهم ، وأن يذيقوا عدوهم طعم هزيمة منكرة جديدة .

ولكن أنّى يتم لهم ذلك ، والطـوقُ حولهم محكم ، والوصول إليهم ضربٌ من المحال .

حقًّـا إن الرصاص كان مُيَسَّراً لـ«رتيبة» ومن معها فقد أنشأ المجاهدون بالقرب من قرية «جَوْبَرَ» معملاً صغيرا يزوِّدهُم به ، ويمكنهم مع مايغنمونه في المعارك من مواصلة القتال . ولكن ..

ومدت السمـاءُ يَدَها إلى المجاهدين ، والسمـاءُ حين تمد يدها تجعل الحَزْنَ سَهْلاً ، وتُصيِّرُ البعيدَ قريبا .

فقد أضاءت لـ«رتيبة» فكرةٌ جعلتها تجرّب أمراً ، فأخذت جرَّةً من الفخار الذي يكثر في بيوت الفلاحين ووضعت فيها قدراً مناسباً من الذخيرة وسدّت فمَهُ سدًّا محكما ، وألقـت بها في مـاء فرْع من فروع «بردى» الـذي يجـري في اتجـاه «الزَّوْر» المُحَاصَرِ ويستقر في غدير من غدرانه الداخلية ، ليُوزَّعَ من هناك على البساتين والقرى .

وسارت الجرة تتهـادى في النهر بسم الله مَجْريها ومرساها ، وأخذت ترقبها العيون ، وتخف بها القلوب .

وجعل الصبية يتحـايلون على رؤيتها من ذوائـب الأشجار ، حتى أبصروها وقد طفت على وجه الغدير واستقرت عنده .

غير أنّهم شـعروا بالخيبة حين لـم يجدوا أحداً من المجـاهدين يلتفـت إليها ويهتم بها .

فلم يَفتّتْ ذلك في عَضُد «رتيبةَ» ومن معها، وأُتْبِعت الجرَّةُ الأولى بجرار كثيرة، لفتت أنظار المجاهدين وجعلتهم يمدون أيديهم إليها ليَجدوا فيها الخلاص والفرج .

وهلل المجاهدون وكبروا فرددت البراري صدى التهليل والتكبير وأُطلق الرصاص من قبلهم قوياً متتابعاً فاستبان لـ«رتيبة» ومن معها دقّةُ ما أحكموا من تدبير، ولم تبق في بيوت القرية جرّة إلا استخدمت ، ولم توجد في مستودع الذخيرة رصاصة إلا أرسلت .

وجمع المجاهدون قواهم في منطلق واحد ، وكروا على عدوهم من جهة محدودة ضيقة وخاضوا معه معركة رهيبة صمد لهم فيها العدوُّ أوّلَ الأَمر ثم ما لبثوا أن أحدثوا ثغْرَةً في صفوفه فتَصَدَّع ما أحاطهم به من طوق ، وتقطّع ما ضرب عليهم من نطاق .

وزُلْزلَتِ الأرض تحتَ أقدام الفرنسيين ودَبَّ في قلوبهم الرُّعْبُ وجعلوا يُوَلّونَ الأدبار ، والمجاهدون يتتبعونَ دروبهم ويتعقبون فلولَهم ، ويحْكِمون مقاتلَهم .

وخرج قادةُ الثورة من المعركة وكأنما كُتِبَ لكُلّ منهم حياةٌ جديدةٌ ، وطار خبر وقعة «الزُّورِ» يسبق الفرنسيين المنهزمين إلى «دمشق» ، وأخذ الناس يروون قصة جرار الفَخّار وعلى وجوههم علاماتُ السُّخر من هذا العدو الذي لا يخرج من خيبة إلا ليقع في خيبة .

ووقفت «جوبَر» مزْهُوَّةً بما كتب الله على يديها من نصر ، وأخذت تبحث عن تلك المرأة التي صنعت المعجزة فلم تَجدْ لها أثراً ، فقال فريقٌ من الناس إنها ملَكٌ أمدَّ الله به جنده ، وقال آخرون غير ذلك .

إذ لم يكن أحد منهم رآها في جوبر من قبل ، ولم يكن فيهم من يعرف من أمرها شيئاً .

أما «الحاج» فقد كان يَهزُّ رأسهَ وقد ارتسمت على ثغره علامات الرضا ، وأماراتُ الشكر .

الفصل السادس عشر

كانت «رتيبة» تعود أدراجها إلى «حرَسْتا» بعد يوم حافل بالكفاح زاخر بالنضال، وهي تحمل ما تبَقَّى معها من ذخيرة وضعتها في جِراب من الجلد وخبأتها تحت مُلاءتها .

وكان الجهد والنَّصَبُ يأخذان منها كل مأخذ ، فهي قد قضت ليلتها الماضيةَ يَقْظَى تعمل في عباءة طال ثواؤها على النول ، واشتدت حاجتها إلى ثمنها لتقضيَ بعض ما تكاثر عليها من ديون .

ثم واصلت كَلال [1] الليل بكَلال النهار ، فتوجهت بعد أن غادر «عبادة البيت إلى حيث أُمِرت أن تتوجه من منطقة «الزَّوْر» ، لتؤدي ما أنيط بها من عمل

ولكنها بالرغم من ذلك كله كان يشرق في وجهها نور الرضا ويتألق في عينيها سنا الارتياح .

وكانت «رتيبة» تَحُثُّ الخُطى علَّها تبلغ البيت قبل أن يعود «عبادة» من الكُتَّاب وتتخلص من هذا الجراب الذي نازعتها نفسها أكثرَ من مرة إلى إلقائه في القناة المحاذية للطريق عملا بأوامر «الحاج» .

فلقد كان يوصيها في كل مرة يلقاها فيها - كما كان يوصي أخواتها المجاهدات - بأن يتخلصن بعد أداء المهمة - من كل ما ينُمُّ عنهن - أو يَشي بهن، أو يَشْهَدَ على أنهن متصلاتٌ بالمجاهدين .

---

(١) الكلال : التعب .

ولكنها كانت تضن بهذه الرصاصات أن تذهبَ سُدًى ، وترجو أن يكون ثمنُ كل واحدة منها جندياً من جنود الأعداء ، وبخاصة بعد أن استنفدت معركةُ «الزُّوْرِ» في هذا اليوم جميعَ ما في المستودع من ذخيرة ، وبات الحصولُ عليها يتطلب وقتاً ومالاً .

وبينا كانت «رتيبة» تحدث نفسَها بذلك وهي تُغذُّ السيرَ وتستطيلُ الطريق ، سمعت وقع سنابك خيل تأتي من بعيد ، فمدت بصرَها في كلّ اتجاه لتتبين مصدر الصوت فلم تر أحداً ، بيد أن الصوتَ كان يقترب منها رويداً رويداً ، ويعلوُ لحظة بعد أخرى .

فوقفت على نَشزَ من الأرض ونظرت بعيداً فرأت كوْكَبَةً من فرسان العدوّ تمتطي صهواتِ الجياد وتقبل نحوَها .

ولَم يكن في وُسع «رتيبة» أن تفكر طويلاً في الأمر ، فالجند يقتربون منها بسرعة ، ولم يعد بينها وبينهم إلا أن يصعدوا قليلا في الطريق حتى يَرَوْها .

ولقد كان في وسعها أن تختفيَ وراء شجرة من أشجار «الغوطة» الباسقة ريثما يمر الجند ، لولا أن الفرنسيين كانوا قد اجتثُّوا شجر هذه المنطقة يوم أن سقطت في أيديهم منذ ستة أشهر .

وقد فعلوا ذلك انتقاماً من أصحابها ، وإشاعةً للفقر والعَوَزِ بين المواطنين ، وخوفاً من أن يتخذ المجاهدون من جذوعها الكبيرة معاقِل يلوذون بها عند المعارك ، ويُصْلونهم من ورائها ناراً .

ونظرت عن يمينها فوجدت تلك القناة التي جللها العُشْبُ الملتف ، وغطتها الأغصان التي تناثرت من الأشجار المقطوعة ، فانحدرت إليها مسرعة ، وكمنت

تحت الأعشاب المتشابكة ، والأغصان المُتشاجِرَة ، وكتمت أنفاسها في صدرها وأخذت تُصيخُ بسمعها إلى وقع سنابك الخيل ، وقد غدت على بُعْد ذراع من مَكْمَنِها ، وجعلت تترقب مرور جند العدو بقلب واجِف وفؤاد مضطرب .

ومرت «رتيبة» بلحظات كانت كلُّ واحدة منها أطولَ من ألف شهر ، وظلت كذلك حتى جاوزها الجند دون أن يتوقفوا عند مكمنها أو يُلقوا نظرة إليه ، وتريثت في مكانها حتى يبتعدوا عن المنطقة ويوغلوا في الطريق المُفْضِيةَ إلى «دمشق» ، حيث يتاح لها بعد ذلك أن تخرج وتتابع سيرها نحو «حَرَستا» فقد ضاق عليها الوقت ، وكادت تيأس من بلوغ الدار قبل انصراف «عبادة» من الكتاب .

وبينما هي كذلك إذْ ألمّ بمكمنها كلب من كلاب الأثر كان يتبع الفرسان ، فوقف فوق العشب الذي يستر «رتيبة» ، وجعل يمر بفمه ومِنْخَرَيْه فوقه شبراً شبراً ويشم كل جزء فيه ، فتتصارع في أنفه رائحةُ العفن المتصاعد من العشب مع رَائِحَةِ الإنسان الكامن في القناة .

ولزم الكلب المكان لا يبرحه ، وجعلَ يَهِرُّ ، وينبح نُباحاً متقطعاً خفيضا ، وأخذ ينبش العشب والأغصان بإحدى قائمتيه الأماميتين ، و«أم عبادة» تخفض رأسها إلى الأرض وتغمس جسمها في الماء .

واستبطأ الجند كلبهم فالتفت بعضُهم إلى الوراء ، وجعل يدعوه أن يَلْحق بهم ، فلم يستجب لهم ، وأمْعَنَ في النبش بكلتا أماميتيه ، وازداد نباحه ارتفاعاً وحدةً.

فأيقنت «رتيبة» أنها سقطت في يد العدو ، وبادرت إلى التخلص من كيس الذخيرة ، فدسته في الوحل المتجمع في قاع القناة ، وجَمُدَتْ في مكانها تنتظر المصير .

واستدار الجند إلى الخلف متجهين نحو المكان الذي لزمه الكلب ، ونزلوا عن جيادهم ، وقد شهروا مسدساتهم وغرزوا حرابهم في العشب فارتطمت بـ«أم عبادة» وحزّت في جسدها . فأطلقت أنة مكظومة سمعها الجند ، وكشفت لهم عن المرأة القابعة في القناة .

أخرج الجند «رتيبة» من القناة وقد انهالوا عليها لكماً وضرباً ، وأوْسعوها صكّاً ووخزاً ، ثم قيدوا يديها بقيد حديدي ثقيل ، وشدوها بسلسلة طويلة إلى سرج أحد الجياد ، ومَضَوْا بها دون أن يبحثوا في مقر القناة عما يمكن أن يكون معها من سلاح أو ذخيرة .

ولما بلغوا مشارف «دمشق» سلموها إلى رجال المخافر القائمة بين المدينة و«الغوطة» ، فنقلها هؤلاء إلى «القلعة» ، حيث أُلقيت في غيَابة السجن .

وقلعة «دِمَشْقَ» هذه بناء أثري قديم ، يقوم على رقعة فسيحة من الأرض بالقرب من الجامع الأموي وسوق الحميدية .

وهو ذو أسوار عالية تفصله عن زحمة المدينة وتجعله عالَماً قائماً بذاته ، وله أبراج شاهقة تشرف عليه وعلى ما حوله وفيه غرف سميكة الجدران ، عاليةُ السقوفِ ضيقةُ النّوافذ ، اتخذت الحكومة من بعضها سجناً .

قاد الحراس «رتيبة» إلى سجن النساء المجاور لسجن الرجال ، وفتحوا لها بابه السّميك المُغطّى بطبقة من الحديد الصّدئ ، ودفعوا بها إلى داخل الغرفة الكبيرة .

وما أن وضعت «رتيبة» قدميها في أرض الغرفة حتى تلقتها نِسْوةٌ كثيرات بدت على وجوه بعضهن علاماتُ الاستهتار ، وظهرت على ملامح بعضهن الآخر علاماتُ اليأس .

وأخذن يوجهن إليها عشراتِ الأسْئِلةِ في وقت واحد :

ما اسمك ؟

من أي قرية أنت ؟

لمَ قبضوا عليك ؟

هَل سرقت طعاماً ؟

هل أنت متزوجة ؟

هل عندك أولاد ؟

فلم تجب «رتيبة» على هذا السيل من الأسئلة بكلمة واحدة ، ووقفت بينهن وكأنها جِذْعُ شجرة لا يسمع ولا يرى ولا يحس .

فما لَبِثْنَ أن انفضضن عنها ، والتف بعضُهن حولَ بعض ، وأخذْن يتضاحكن ويتعابثن على الرغم مِمّا يبدو على وجوههن من كآبة ، ويلوح في أعينهن من شقاء .

وانْتَبَذَتْ «رتيبة» من تلك الغُرفة الواسعة مكاناً قصيا ، وجلست القُرفصاءَ ، وقد قوّست ظهرها وأمالت رأسها إلى الأمام حتى كاد يلامس ركبتيها ، وأسندت صفحتي خديها إلى يديها ، وأخفت وجهها بين طرفي راحتيها فبدت لمن يراها من بعيد في ضوء المصباح المرتعِشِ الخافتِ وكأنها كومةُ ثياب رثّة ألقيت على الأرض .

كانت «رتيبة» غارقة في بحر لُجيٍّ من الهم .

إلا أنه لم يكن مبعثَ همها ذلك الموتُ الذى أصبح حتماً لا ريب فيه ، ولاتلك الحبالُ التي ستلتف على عنقها وَشيكاً حتى تَسْتَلَّ آخر نفس من أنفاسها الصاعدة ، وتسكِتَ آخر نبضة من نَبَضاتِ قلبها المُطَّرِدَةِ وتحيل جسدها المُتَّقِد بشعلةِ

الحياة إلى جثّة هامدة باردة . ولا ذلك المنظرُ الذي ستبدو فيه أمام أعين الناس حين يتأرجح جسمها في الهواء ، ويتدلى في العراء ، وربما بدا منه ما حَرَصَتْ طَوال حياتها على أن تحفَظه وتصونه .

ذلك بأن هؤلاء الذين ينفِرون إلى أداء حق الله عليهم ، وينهضون للذود عما يؤمنون به من مثل لا يقْدِمون على ما أقدموا عليه إلا إذا تحررت نفوسهم من رِبْقَةِ الخوف الذي يُذِل الأعناق ، وانطلقت أرواحهم من سجن الجسد الذي يشد الناسَ إلى الأرض ، وتطلعت أفئدتهم إلى ما هو أسمى من التراب .

ولهذا لا يكون لكلمة الموت عندهم ذلك المفهومُ الذي لها في أذهان الناس ، ولا تكون مفارقةُ الحياةِ بالنسبة لهم إلا نُقْلَةً رائعة عن دنيا جلُّ ما فيها باطلٌ زائف ، إلى أخرى ليس فيها إلا الحقُّ والخير والجمال .

وليس من العبث أن أطلق عليهم بعض الناس اسمَ «الشُّراة» ، فهم قد باعوا نفوسهم لله ، وشَرَوْا منه بها سلاماً نفسِيًّا دائماً ، وعيشاً هنيئاً خالداً ، وجنة عرضُها السمواتُ والأرض ورِضْواناً من الله .

لم يكن الخوف من الموت إذاً هو السبب فيما عرا «رتيبة» من الهَمّ ، وإنما كان سببه ذلك الصغيرُ اليتيم الذي لم يُتِمَّ السابعة من عمره بَعْدُ ، فقد أخذت تتبع خُطاه بخيالها ، وتنتقل معه بروحها .

فمنذ ساعات انصرف «عبادة» من الكتاب وهو يُمنِّي نفسه بلقاء أمه ، ويترقب أن تضمه إلى صدرها الحنونِ الدافيءِ ، وتقبل رأسه وجبينه وعينيه كما تفعل كلَّ يوم ، ويتوقع أن تكون قد أعدت له شيئاً من الطعام .

غير أنه فوجىء بالباب موصَداً في وجهه ، والدّارِ خالِيةً من أمه .

ليتها تعلم شيئاً عن «عبادة» ... أيَّ شيء .

ليتها تعلم أين هو الآن ؟

فهل جَنَّ عليه الليل وهو واقف بالوصيدِ [1] ينتظر أوبْة أمهِ الأسيرةِ ؟

أمْ أنه أخذ يهيم على وجهه يرقُبُ الدروب من أجلها ، ويسأل عنها الناس ؟

ليتها تعلم : إذا كان لا يزال في الأزقة تَهَرُّهُ الكلاب فيلتجيء من باب موصد إلى باب موصد وقد مزّق الخوفُ فؤادة الصغيرَ ؟

أم أنَّ يداً رحيمة امتدت إليه فآمنت خوفه ، وهدأت روعه ، وأطعمته لقمةً مما فاض عن أبنائها وآوته في طرف فراش تحت أقدام صغارها ؟

إنّها لعلى ثقة من أنّه لا يزال جالساً أمام باب الدارِ كما يجلس الكلب الأمين، وقد ألصق ظهره المقرورَ بخشبهِ البارِد ، وأسند يديه المرتجفتين إلى لَبِنهِ المبلّل وحمى بمحفظته وجهه الصغيرَ من هذا الزمهرير الذي يعصف بأشجار الغوطة الباسقة فيهزها هزاً .

ليتها تعلم شيئاً عن «عبادة» ... أيَّ شيء .

ونامت أعين السجناء جميعاً فلم تعد تسمع لهم «رتيبة» حسّاً ، إلا ذلك السعال الحاد الذي كان ينبعث من صدر إحدى السجينات فينخلع له قلْبُها ، وتكاد تَمُحُّ معه روحها .

ولم يبق في هذه القلعة الكبيرة الموحشة أحدٌ سهْرانُ غيرُها وغير هؤلاء السجانين الذين يتناوبون الحراسة أمام أبواب الغرف في هذا البرد القارس وقد يَبِسَتْ أيديهم على سلاحهم ، وجَمُدَتْ أطرافهم فلم يعد يصل إلى أناملها الدم الحار .

مساكينُ هؤلاء السجانون إنهم مثلُ «عبادة» قد كتب عليهم أن يقضوا الليل في العراء وألاّ يغمض لهم جفن .

---

(١) الوصيد : العتبة .

وأخذ الليل يوغل في سيره حتى أوشك أن يُنْهِيَ رِحْلَتَه ، و«أمُّ عبادة» تحدث نفسها هذا الحديث .

ثم طلع الفجر وأضاءت منارات جامع بني أمية الثلاثُ ووقف المؤذنون يرددون في هَدْأة الليل نشيد السلام عذباً حنوناً يبعث في النفوس الواجِفَةِ الراحةَ والأمنَ ، ويبث في القلوب الخائفَةِ الطمأنينة والأمل .

وهبَّت «رتيبةُ» واقفةً تريد أن تؤديَ الفريضة ، فلم تجد ماء تتوضأ به ، فتيممت صعيداً طيباً ، واستدارت نحو القبلة ، ووقفت بين يَدَيْ ربها وقفة الخاشع ، وركعت فأحسنت الركوع ، وسجدت فأطالت السجود ، وانفصلت عن الدنيا وما فيها حتى «عبادةَ » ، ودخلت رحاب ربها أكْرَمَ رحاب ، وأحست بَرْد الراحة ونعمة الأمن، وجعلت تَهْتِف من الأعماق :

إلهي إن لم يكن بِكَ غضبٌ عليَّ فلا أبالي ، إلهي إنْ لم يكُن بك غضب عليَّ فلا أبالي .

وسمع السجان حركة في الغرفة فنظر من خِصاصِ الباب ورأى السجينةَ الجديدة وهي تصلي هذه الصلاة فوجد فيها ضَرْباً من التزيلات لم يألفه من قبل .

وتفتحت عيون بعض السجينات فأبصرن الوافِدَةَ الجديدةَ وهي تؤدي الفريضة على هذا النحو فَعَرَاهُنَّ شعور غريب فيه خوف وفيه ندم وفيه استغراب .

ثم ما لَبِثْنَ أن أغمضن أعْيُنَهُنَّ ، واستسلمن للنوم من جديد .

الفصل السابع عشر

استبطأ «الحاج» مقدمَ «أم عبادة» ، فقد درجت منذ اتصلت أسبابهُا بأسباب المجاهدين على أن تُلِمَّ ضحى كل يوم بمركز القيادة ، لتتلقى ما تؤمر به ، وتُفْضِيَ بما أنجزت من عمل وما اتصل بها من خبر .

وانقضى النهار كلُّه دون أن تحضر ، فخشي أن يكون قد أصابها مرض ألزمها البيت أو حَلَّ بها مكروه أقعدها عن الجهاد .

فمضى إلى «حَرَسْتا» يستطلع الخبر وبلغ القرية في عَتَمَةِ العِشاءِ ، وألم ببيت «أمّ عبادةَ» فَلَمْ يجد فيه أحداً .

عند ذلك طرق باب جيرانها الأدْنَيْنَ فخرجت إليه عجوز قد دلت مشْيَتُها على أنها جاوزت الثمانين ، غير أنه لم يستطع تمييز ملامحها في هذا الظلام الدَّامسِ ، فحياها قائلا :

السلام عليك ياخالة .

فقالت العجوز :

وعليك السلامُ والرحمةُ يا ابني .

فقال «الحاج» :

يا خالة إن لجارتك «أم عبادة» عندي مبلغاً صغيراً من المال ، وهو بقية ثمن

عبادءة كنت ابتعتُها منها ، وقد أتيت لها به فلم أجدها فهل هي عندكم ؟ وهل تعرفين مكانها ؟ فأنا أريد أن أتخفف من هذا الدين .

فقالت العجوز :

والله يا ابني نحن لا نعرف عن «أم عبادة» شيئاً ، ولقد عاد ابنها مساء البارحة من الكتاب فلم يجدها في البيت ، ووقف المسكين عند باب الدار لا يبرحه ، وقد حاولت أنا وابني أن نقنعه بدخول بيتنا فلم يشأ أن يدخلَ .

غير أن جارتنا «أمّ الخيّر» – بيض الله وجهها – قد احتالت عليه وأدخلته بيتها، وأقنعته بالمبيت مع أولادها وهو لا يزال عندهم .

فقال «الحاج» :

عجباً ، كيف تترك «أم عبادة» ولدها وتغيب عن البيت هذه الغيبة الطويلة ؟

فقالت العجوز :

الغائب عذرُه معه يا ابني .

و«أم عبادة» قد دأبت على زيارة أخيها في «دَاريّا» منذ أحرقها الفرنسيون ، فقد أصيبَتْ زوجه بحروق ألزمتها الفراشَ وأقعدتها عن السعي في البيت .

ثم أردفت تقول :

إن «أمّ عبادة» تعرف الواجب .

فقال «الحاج» :

إذا كانت «أم عبادة» قد ذهبت إلى «دَاريّا» فليس باستطاعتها أن تعودَ قريباً بسبب انقطاع الطريق . ولابُدَّ أنك علمت أن الطريق بين «حَرَسْتا» و «دَاريّا» مقطوعة بسبب المعارك الدائرة بين المجاهدين والفرنسيين .

ثم قال :

معذرة يا خالةُ فأنا سأتصل بها متى عادت إن شاء الله ، وسأدفع لها ما في ذمتي من دين .

ثم حياها وانصرف ، وهو موقن أن «أم عبادة» قد قُتِلَتْ أو أسِرَتْ ، وهما أمران أحلاهما مرّ .

ذلك أن أسير الفرنسيين صائر إلى القتل لا محالة .

عاد «الحاج» إلى مركز القيادة مسرعاً ، وأخبر المسؤولين بما انتهى إليه من أمر «أم عبادة» ، فاهتموا للأمـر ، وبثوا عيـونهم في كل مكان تبحث عن المجـاهدة ، فما لبثوا أنْ عَرَفُوا أنها سقطت في يد الفرنسيين وهي عائدةُ إلى بيتها بعد معركة «الزُّور» وأنها أُلقيت في غيابة سجن القلعة في «دمشق» ، وأنه يُنْتَظَر أن تُقدم للمحاكمة بين ساعة وأخرى هي وثلاثة من المجاهدين أسروا في اليوم نفسه . ليُحْكَم عليهم بالإعدام مهما تكن الأسباب ويُنَفَّذَ فيهم الحكم فوراً .

عزمت القيادة على إنقاذ «رتيبة» ومن معها مهما يكن الثمن غالياً ، وأعدت لذلك خطة جريئة ، وطلبت ثلاثةً من المجاهدين لتنفيذها ، فلبى الطلب أربعون ، أخذوا يتنافسون في ذلك ، ويصر كلّ منهم على أن يكون له شرف إنقاذ «أم عبادة» وزملائها الثلاثة .

ولم تتخلص القيادة من هذا المأزق إلا بالاقتراع بين المجاهدين ، وأخْذِ الثلاثة الفائزين .

* * *

كان مدير الشرطة الفرنسي في «دِمَشْقَ» «الكولونيل بيجان» رجلاً في الأربعين من عمره ، أبيض البشرة قصيرَ القامة ، ممتلىء الجسم كبيرَ الرأس مستدير الوجه طويل الأنف واسع الشدقين كَثَّ الحاجبين يشبه تلك الوحوش التي تعيش في المناطق القطبية .

وهو إلى ذلك أسودُ النفس غليظ القلب ، شديد التعطش إلى سفك الدماء .

فقد كان إذا مرّ به يوم لم يمتع نفسه فيه بمقتل أحد ، جمع من تقع عليه يده من كناسي الشوارع وموزعي البريد وأوقفهمْ صفًّا أمام مكتبه وأطلق عليهم الرصاص واحداً بعد آخر وعَرَض جُثَثَهم على الناس .

وكان إذا أُتي إليه ببعض من وُشِيَ بهم أو اشتُبِه في أمرهم أخرجهم إلى ضاحية من ضواحي المدينة وأمرهم أن يحفروا قبورهم بأيديهم ، وأن يدفنوا أَنْفُسَهُم فيها ، وأن يتركوا رؤوسهم وصدورهم مكشوفة ، ثم يطلق عليهم النار فيرديهم صرعى ، ويتّركهم ثاوين فيما حفروا لأنفسهم من قبور .

وكانت القيادة الفرنسية تجد في «بيجان» يدها التي تبطشِ بها . ووحشها الذي تفترس به ، وسيفها الذي تُسلّطه على رقاب العباد .

وكان هذا الوحش البشري يسكن في حي «الشهَدَاء» ويحيط دارَه بحاجز من الأسلاك الشائكة ويحرسها بعدد من الجنود يتعاقبون عليها في الليل والنهار .

وكان يبالغ في حماية نفسه لما يعلمه من تحفز المجاهدين للوثوب عليه ، وتصديهم لاغتياله بعد أن أزهق كثيراً من الأرواح ، وأراق غزيراً من الدماء .

تزوّد المجاهدون الثلاثة بالقنابل اليدوية ، والمدُى الحادّة ، والمسدسات ذات الطلقات السريعة ، وما إلى ذلك مما يعينهم على أداء مهمتهم الشاقة .

ويمّموا وجوههم شطر «دِمَشْقَ» في عتمة الليل ، وحاولوا أن يدخلوها من أحد المنافذ التي فتحها الفرنسيون في النطاق الشائك المضروب حول المدينة في غفلة من الحراس فلم يُتَح لهم ذلك ، فجعلوا يطوفون بالنطاق من بعيد ، حتى إذا وصلوا إلى مكان ناء عن الحراس توقفوا عنده ، وأجالوا أبصارهم فيه وفيما حوله .

فرأوا على بعد ستة أذرع من النطاق شجرة من باسقات شجر الجوز التي عُرفت بها غوطةُ دمشقَ فتسلقوها بمهارة ، ووقفوا على أقوى أغصانها الممتدة في اتجاه النطاق حتى أصبحوا على قُرْبٍ منه . ثم وثبوا واحداً بعد آخر وثبات قويةً فسقطوا على أقدامهم خلفه سالمين .

ثم التصقوا بالأرض قليلاً خشية أن يكون قد أحس بهم أحد .

ولما اطمأنوا إلى ذلك تفرقوا في دروب المدينة وتواعدوا في مكان أمين لا يبعد عن بيت السفاح كثيراً .

وفي الموعد المحدد التقى المجاهدون ، وتوجهوا نحو غايتهم دون أن ينبسُوا ببنت شفة ، فقد كان كل منهم يعرف المكان المخصصَ له ، والعملَ المنُوطَ به .

ولما بلغوا الأسلاك الشائكة المضروبةَ حول الدار أعملوا مقاريضَهم فيها بخِفّة وحذر ، ومروا من خلالها بعد أن مزقت ثيابهم وجرحت أجسامهم ثم تسوروا جدار الدار بشجاعة الأسود وخِفّة الهرر . وهبطوا منه على شرفةٍ في داخل البيت تُطِلّ على حُجُراته وتكشِف عنها واحدةً واحدةً .

فرأوا السفاح في ضوء مصباح أحمرَ صغير ، وهو ممدد على سريره ، وإلى جانبه زَوْجُه وقد جعل يشْخُر شَخيراً مسموعاً .

عند ذلك توجه أحد المجاهدين إلى غرفة نوم السفاح ، ووقف الثاني وراءه يحمي ظهره ، أما الثالثُ فقد مضى نحو بابَ الدار استعداداً لفتحه ، وقتل الحارسين الواقفين به من الخارج والهرب بالأسير .

لقد كان على المجاهد الأول أن يفتح باب غرفة نوم «بيجان» دون أن يستيقظ، وأن يعاجله بالقيد قبل أن ينهض من سريره وأن يختطفه حيًّا بمساعدة رفيقه وأن ينقله إلى مقر القيادة في «الغوطة» ، ليكون رهينة في أيدي المجاهدين وليجعلوا ثمن افتدائه إطلاق سراح «أم عبادة» وإخوتها الثلاثة المجاهدين .

فحاول فتح الباب من غير عنف فلم يفلح ، وجرب مختلف الوسائل لبلوغ ذلك فلم ينجح ، فأخرج خنجراً كان معه ، ووضعه بين مصراعيَ الباب يحاول أن يفتحه في لحظة ، وأن ينقضَّ على الفريسة قبل أن يرتدَّ إليها طرفُها ، فكُسِرَ الخنْجرُ واستيقظ السفاح ، وحمل مسدسيه بكلتا يديه وطفق يطلق النار .

ودار بين المجاهدين الثلاثة المحصورين في المنزل وبين السفاح وحرسه معركةٌ رهيبةٌ استطاع المجاهدون أن يخرجوا منها سالمين وأن ينّجوا بأنفسهم من القتل ، وأن يتخلصوا من الأسلاك والحرس بعد أن باءت خطّتهُم الجرَيئةُ بالإخفاق .

وجعل المجاهدون يعضّون أناملهم من الغيظ والندم ، فقد كان باستطاعتهم أن يصترعوا السفاح برصاصة واحدة وهو موسد في فراشه . ولكنهم لم يفعلوا ذلك لأن الأوامر كانت تقضي بأن يُؤتَى به حيًّا .

* * *

أما السفاح فقد عزم على أن يهجرَ «سورية» ، وأن يعود إلى «فرنسا» بعد أن نالَ زوجَته من الخوف والهلع ماكاد يذهب بعقلها ، وأصابها من الأرق ما أوشك أن يَعْصِفَ بحياتها ، وحلَّ بها من الذُّعْر ماجعلها ترى أشباح المجاهدين في كل مكان.

وشحن « بيجان » ثلاث قاطرات من «دِمَشْقَ» مُحَمّلَة بالنفائس التي نَهَبها من قصورها ، والطرائفِ التي اغتصبها من بيوتها وبما سطا عليه من السجاد الفاخر ، والأواني الذهبية ، والأسلحة الأثرية ، والتحف الغالية .

وحمّل ذلك كلّه على باخرة من ميناء بيروت ، وهو يريد أن يزين به قصراً عظيما ابتاعه من أحد النبلاء على ضفاف « السين » .

وعلى بعد مئة فرسخ من « مرسيليا » هاج البحر وماجَ ، وأرغى وأزبد وهبت على الباخرة عاصفة مزّقتها شرَّ مُمزَّق فابتلعها اليم بما فيها ومن فيها .

ولم ينعم السفاح بما نهب من مال ، ولم تنج زوجُه من الكارثة التي كانت تخشاها .

الفصل الثامن عشر

طلع الصباح ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأخذت أشعة الشمس تتحدى أسوار السجن العاليةَ وتمد خيوطها الحانيةَ إلى هؤلاء المساكين الذين ضَنّ عليهم المجتمع بالتوجيه والرعاية ؛ ثم استنكر مافعلوا ، ونام ذووهم عن تربيتهم ثم استفظعوا ماصنعوا .

وكأن هذه الأشعة كانت تريد أن تكفر عن خطيئة المجتمع الذي لم يجد لهم مكاناً شريفاً في رحابه فاتجهوا إلى مالايشرف من الأماكن ، وعن جريرة الأهل الذين لم يتعهدوهم بالتربية الصالحة يوم كانوا أطفالاً ولم يحْمِلوهم على الجادة يوم أصبحوا فتياناً .

واشتدت الحركة في أرجاء السجن ، فقد كان المجالُ ضيقاً والناسُ كثيرين .

وأقبل الحرس وبعض السجناء القدامى على سجن النساء بطعام الصباح فاشرأبت الأعناق ، وامتدت الأيدي وكثر الصياح :

أنا لم آخذ .

زكية أخذت أكثر مني .

أعطني أنا أولاً .

أنت تسيء معاملتي .

أنا لم أشبع البارحة .

ثم هدأت الحركة ، وخفتت الأصوات ، وأكبّتْ كل واحدة على طعامها ، وكأنها تريد أن تحميهُ من غارة متوقعة ، وجعلت تلتهمهُ بسرعة وكأنها تخشى أن تطالب بإعادته .

أما «رتيبة» فقد بقيت في مكانها لاتبرحه ، فما كانت بها شهوة إلى طعام ، ولارغبةٌ في شراب .

وقد لفت ذلك نظرَ السجان إليها كما لفت نظر السجينات ، غير أنهن لم يلجأن في هذه المرة إلى إحراجها بالأسئلة أو الإلحاح عليها بما تكره .

فقد أخذت كلٌّ واحدة منهن تشعر نحوها بشيء كثير من العطف ، وتتمنى أن لوجدت سبيلاً لتجاذبها أطراف الحديث ، فتزيلَ ما في نفسها من وحشة ، وتدفعَ عنها ماتحسه من غربة في هذا العالم الصغير برقعته ، الكبير بأحداثه وعظاته ومآسيه .

كان سجن القلعة يُدار من قبل مدير مدني ورئيس ديوان له ، وكان رئيسُ الديوان « زكريا أفندي » في السابعة والعشرين من عمره ، أبيض البشرة نحيل الجسم مشرق الوجه ، أشْهل العينين خفيف الشاربين .

وكان إلى ذلك حاضر البديهة ذكي الفؤاد واسع الحيلة ذا سلطان على من حوله .

وكان رؤساء « زكريا أفندي » ومرؤوسوه يلتقون على حبه واحترامه والثقة به والاعتماد عليه .

ومع أن «زكريا أفندي» لم يُصِبْ حظًّا كبيراً من الثقافة إلا أنه كان يجيد الفرنسية ويبدو لمن يجتمع به أو يستمع إليه كواحد من حملة الشهادات الجامعية العليا .

وكـان للسجن غيـر « زكـريا أفندي » ومـديره رئيس أعلى من الضبـاط الفرنسيين جيء به بعد نشوب الثورة الأخيرة زيادةً في الحذر ومبالغةً في الاحتياط .

وصل « زكريا أفندي » إلى السجن مبكراً هذا اليوم فتلقاه الديّدبَانُ بالتحية التي يتلقى بها جنابَ المدير ، ذلك أنّه عُهدَ إليه منذ هذا الصباح بإدارة السجن نيابة عن المدير الأصيل ، الذي آثر أن يتمتع بإجازته السنوية في فصل الشتاء .

ومر بالحرس فحيا بعضَهم ببشره المعهود ، وربت على أكتاف بعضهم الآخر ، وداعب فريقاً ثالثاً ، ببعض الكلمات ، وسألهم جميعاً عن وقائع الليلة الماضية ، فأخبروه بأن الأمور تسير في طريقها المعتادة وأنه لم يقع مايستحق أن يذكر .

ومر بسجن النساء فحياه ديّدبانُه تحيةً فيها كثيرٌ من الوداد والحب ، وحدثه عن تلك المرأة التي وفدت عليه البارحة ، وذكر له مارأى منها وماسمع .

فأطل عليها « زكريا أفندي » من النافذة ، ثم انصرف عنها ، وهم بمتابعة تَطوافه في السجن .

غير أن شيئاً غامضاً جذبه إلى النافذة ، وحمله على أن يحدّقَ في المرأ ويتفرّسَ في وجهها ، ويستبين ملامحها .

لقد رآها من قبلُ ، غير أنه لم يعد يذكر أين رآها ، و لامتى كان ذلك .

وأجهد «زكريا أفندي» نفسه في استرجاع الصورة التي رأى عليها هذه المرأة ، فما لبث أن قفزت إلى مخيلته صورة تلك القروية التي كانت تقذف كُرات النفط على دبابات الفرنسيين في معركة « الشاغور » .

إنها هي ، لقد رآها بعيني رأسه من نافذة بيتهم المحاذية للسطح ، الذي كانت تقف عليه ، وتقذف الكرات من فوقه .

لقد عَجب يومئذ من رباطة جأشها ، وقوة ساعدها ، وقدرتها على إصابة الهدف .

وبادر « زكريا أفندي » إلى البحث في سجلات السجن عن السبب الذي قُبض عليها من أجله ، علّه يرى فيها مايقطع شكه باليقين ، فوجد أن الجند الذين أسروها قد قرروا أنها واحدة من أعوان المجاهدين وأنها وقعت في قبضتهم بعد معركة « الزّور» .

عند ذلك لم يبق في نفسه أيٌّ ريب في أن سجينته هذه هي صاحبةُ المعجزة التي تحدثت عنها «دمشق» طويلا بعد معركة « الشاغور» .

الفصل التاسع عشر

عاد « زكريا أفندي » إلى منزله مع المساء ، وقد عرف عن «رتيبة» كل شيء.

عرف مصرع شهيدها الغالي عشيةَ «ميسلونَ» ، ووقف على مأساة غلامها الصغير في « حَرَستا » واطّلع على إبائها أن تعيش عالة على أحد وإصرارها على أن تحيا من كد يمينها وعرق جبينها . وتحقق من أنها هي صاحبة كرات النفط يوم «الشاغور» وجرار الفخار يوم « الزوْر » .

ولقد ودّ « زكريا أفندي » لو أنه لم يعرف عن «رتيبة» ماعَرَفَ ، ولو أنها مرت بسجنه كما مر من قبلها آلاف ، وكما سيمر من بعدها آلاف أيضاً .

وقد أقلقه أنَّ شبحها وشبحَ زوجها الشهيد وغلامها المشرد أصبحت تلاحقه في كل مكان ، وتقفز أمام ناظريه أينما اتجه ، وتُطالِعه في كل شيء يراه .

وجلس إلى مائدة الطعام هو وزوجه وأولاده ، وأمه العجوزُ فبدا واجماً ساهماً، وأخذ يأكل وكأنه يؤدي عملا أكره عليه .

فقد كانت تتحرك يده بين الخوانِ وفمه كما تتحرك قطعةٌ في آلة ، وكان يُلقي إلى فمه بالطعام الذي لايُحِس له مذاقاً ، وكأنه يُلْقي به إلى رحًى .

وذهب الصغار إلى فُرُشِهِم بعد أن قبلوا يده ، وقبّل هو جباهَهم واحداً بعد آخر . ومضى إلى سريره يريد أن ينام ، علّه يتخلصُ من هذه الهواجس .

ومد يده إلى المصباح ليطفئه ، وهو لايعلم أنه حين أطفأ مصباح النفط قد أوقد في نفسه ألْفَ مصباح تمنعه من الهجوع .

وأنه حين أغمض عينيه ليُغْفِيَ قد فتح ألف عين في فؤاده تباُعد بينه وبين الكرى .

ودار بينه وبين نفسه حديثٌ طويل .

وأحاديث الناس مع نفوسهم هي أصدق مايلفظِون من قول ، ذلك بأنها تتّسم بالصراحة التي لاتعرف الرياء ، وتتصف بالدقة التي لاتعرف التهويل ، وتتجنب التنميق الذي يَسْتُرُ الحقائق ، وتَتَحاشى التزويق الذي يصرف عن اللباب إلى القشور .

وجعل يقول :

تُرى ما الذي حمل هذه القرويّة على أن تهجرَ أمنها وسلامها وتنبذَ مورد رزقها ومناط حياتها غير هذا الوطنِ الذي أُحبت كلَّ ذرة من ترابه ، واستعذبت كل قطرة من مائه ، وانتشت بكل نسمة من هوائه ، فعز عليها أن يُستَذلَّ وكَبُرَ عليها أن يستعبد .

تُرى ما الذي جعلها تعرّض فلذَةَ كبدها لما عرّضته له من التشريد ؟ وهي التي نذرت نفسها خالصة له ، فأعرضت عن أيدي الخاطبين ورغبة الراغبين لتَتَحْفَظَ عليه جمال طفولته، وتصون له عزة شبابه ، وتُبقى له على إباء رجولته .

فلما دعاها الداعي ، استعذبت دعاءه ، ولبت نداءه ، وجعلت قضية الوطن فوق النفس والولد .

تُرى هل كانت هذه القروية المجاهدةُ الصبورُ ترجو من قومتها هذه جاهاً ؟ مع أن الجاه يُعْرِضُ عن أمثالها ممن يفعلون دون أن يقولوا ، ويُقْبِلُ على غيرها ممن يقولون دون أن يفعلوا .

أوْ كانت تطلب من وراء ذلك مجداً ؟ مع أن المجد يُكَلِّلُ جباه القادة الذين لم يصنعوه ، ويَزْوَرُّ عن الجند الذين صنعوه .

أنا وهذه المرأة ابنان لوطن واحد .

فَلِمَ تُسْجَنُ هي في سبيله وأكون أنا السجانَ ؟

ولأي سبب تُعَذَّب هي من أجله وأكون أنا المعذِّب .

أيُّ جبن ذلك الذي يجعلني أقْعُد وهي تجاهد ، وأطمئن وهي تضطرب ؟

أيُّ أَثَرَة تجعلني أحفظ على أولادي عائلَهم وهي تترك ولدها لله ، وأضمن لهم أمنَهم وهي تضحي بأمن وحيدها من أجل أمن الوطن ؟

كان يُؤْتَى لنا بالسارق ، فنقول : معتدٍ على أموال الناس فلنأْخذْه بعدُوانِه ، ويُجاءُ لنا بالقاتل فنقول : عدوٌ للمجتمع فَلْنُبَاعِد بالسِّجن بينه وبينه المجتمع .

أما اليوم فقد أصبح يؤْتى لنا بهؤلاء الذين بذلوا نفوسهم ليصونوا نفوسنا ، وأهدروا حياتهم ليحفظوا حياتنا ، فماذا نقول فيهم ؟

لن تلتفَّ حبالُ مشانق الفرنسيين حول رقبة هذه القروية صاحبة كرات النفط ، ولن يُحالَ بينها وبين ولدها .

ولن تمتدَّ أظافر الموت الحُمْرُ إلى صدور هؤلاء المجاهدين الثلاثة الذين ينتظرون أن ينفَّذَ فيهم حكم الإعدام .

* * *

استراحت نفس « زكريا أفندي » لهذا القرار ، وارتسمت على محياه سِمَاتُ الرضا ، وأسلم جفنيه إلى نوم قصير ولكنه كان عميقاً .

فقد رأى فيه كثيراً من الأحلام كان بعضها رهيباً مقلقاً ، وبعضها الآخر جميلاً مشرقاً .

ولكنها كانت في جملتها تتمةً لما دار بينه وبين نفسه من حديث .

التزم « زكريا أفندي » الصمت إزاء ذلك ، ولم يخبر أحداً بما كشفه من حقيقة هذه المرأة السجينة ، فقد كان على ثقة من أنَّ الفرنسيين لَوْ عَرَفُوا من أمرها ماعَرَف لما أَلْقَوْا بها بين المجرمات التافهات في غير اكتراث ولقتلوها شرَّ قِتْلَة ، ومثلوا بها أبشع تمثيل ، ولعرضوها عُرْيانَةً في الشوارع والميادين ، ولأرسلوا صوَرها عبّر البحار إلى «باريسَ» ، ولنسجوا حول القبض عليها القصصَ والأساطير ، ولنسبوا لأنفسهم بسبب ذلك صنوفاً من البطولات .

* * *

أمضت «رتيبة» ليلتها الثانية في السجن كما أمضت الأولى ، بيد أنها لم تعد تشعر نحو هؤلاء السجينات بالاشمئزاز الذي شعرت به أولَ مرة .

فهن لم يعدن في نظرها نسوةً مجرمات خارجات على القانون ، وإنما أُصبحن نماذجَ لمآسٍ إنسانية ، وصوراً لحوادث تتكرَّر في الحياة كلَّ يوم فينال القانون بَعْض فاعليها فإذا هم مجرمون يستحقون اللعنة والعقاب ، ولاينَال بَعْضَهم الآخر فيسرحون ويمرحون ويكيل لهم المجتمع الثناء ويُضْفي عليهم الألقاب .

وكأنَّ هؤلاء السجينات قد شعرن بما أخذت تحس به «رتيبة» نحوهن ، فأقبلن عليها والتففن حولها ولكن لا ليسألْنَهَا عما جنت ولاليستّجْوِبْنَها عما

اقترفت، فقد أصبحن ينظرن إليها نظر من لايمكن أن يجني أو يقترفَ ، وإنما ليُفضين إليها بمآسيهن ، وليُحَدِّثْنَهَا – دون أن تسألَ – عن الأسباب التي ألقت بهن في غيابة السجن .

وقد بدا على وجوههن أنّهُنّ يلتمسن منها النصيحة ويرغبن إليها في أن تستغفر لهن الله بعد كل صلاة ، فالله تعالى أرحمُ بهن من الناس وأحْنَى عليهن من المجتمع .

وقد سُرِّيَ عن «رتيبة» قليلا بهذه الأحاديث ، وبدأت تشعر أنه لولا «عبادة» لماشَكَتْ من أمر هذا السجن كمايشكو الناس، ولماوجدت فيه مثل مايجد الآخرون.

وفي ضحى اليوم التالي سمعت السجينات وقع أقدام ثُلّة من الجند تقترب من غُرفَتِهنّ ، وصرير القفل وقد أدار فيه الديدبَانُ مفتاحه الغليظ ، وشاهدْنَ البابَ يفْتَحُ عليهن في تثاقل وبطء فوقفْنَ على أقدامهن ، ومددن أبصارهن ، ليرين السجينة الجديدة .

ذلك لأن الباب لايفتح في مثل هذا الوقت إلا لتدخل إلى السجن امرأة أو تخرج منه امرأة .

بيد أنهن لم يرين مع الجند أحداً .

وإنما سَمِعْن كَبيرَهم ينادي بصوته الأجش .

«رتيبة» ...... أين «رتيبة» ؟

فهبت «رتيبة» واقفة على قدميها، وتوجهت نحوه ، فأشار إليها أن تتقدم ففعلت، وأمرها أن تمد يديها ليضع فيهما القيد ، فانصاعَتْ للأمر .

وساقها أمامه تشيعها نظرات السجينات ، ومضى بها هو ورفاقُه نحو مكتب المدير لاتخاذ الإجراءات القانونية التي تتم عند تَسلُّم السجين أو تسليمه .

وَسيرَ بـ«رتيبة» في ممرات القلعة المتعرجة ومن ورائها ثُلّةٌ من الجند شاكي السلاح ، وكأنهم يتأهبون لخوض معركة كبرى .

وفي الساحة الخارجية للسجن كانت تنتظرها سيارةٌ مصفحة مقفلة ، صُفَّتْ بين سيارتين مشحونتين بالجند ، فصعدت إليها وتبعها ستة من الجنود جلَسُوا عن يمينها وعن شمالها ومن خلفها ، ثم أُغْلِقَ البابُ وَهَدَرَتْ محركات السيارات الثلاث في وقت واحد ، وسار الموكب نحو الباب المفضي إلى الشارع ومضى في طريقِه .

لم تشأ «رتيبة» أن تسأل أحداً من هؤلاء الجند عن وجْهَتِهم ، فقد كانت ترْبأ بنفسها عن أن تُهان وتضن بكرامتها أن تُبْتَذَلَ .

وَهبْ أنها عَرَفَتْ ذلك أو لم تعرفه ، فإن هذا لايغير من الأمر الواقع شيئاً . وليس للحر في أمثال هذه المواقف إلا أن يَتَذَرَّعَ بالصبر ويَلُوذَ بالصمت .

وانطلقت السيارات الثلاث تنهب الأرض نهباً ، حتى وصلت إلى مبنًى كبير محوط بالأسلاك الشائكة ، محميٍّ بالدبابات الكبيرة ، محروس بالجند المدججين بالسلاح .

فَفُتِحَ لها بابُ السيارة وأمرت بالنزول بعد أن سبقها إلى الأرض ثلاثة من الجند ولحق بها ثلاثة .

واقْتِيدَتْ «رتيبة» إلى حجرة صغيرة في المبنى تُفْضي إلى حجرة كبيرة فأجالت نظرها فيها بهدوء وعَرَفَتْ أنها في المحكمة .

وماهي إلا لحظات حتى نودِي عليها ، وأُدْخِلَت قاعة المحكمة .

كان يجلس في صدر القاعة ثلاثة ضباط فرنسيين دلّت الشُّرطُ التي ثبّتتْ على أكمام ستراتهم ، والأوسمة الكثيرة التي استقرّت على صدورهم ، والقلانس الموشاة التي رُفِعتْ على رؤوسهم على أنهم من ذوي الرتب العالية .

كان يجلس هؤلاء على مقاعد وُضِعتْ فوْقَ منصة يُرقى إليها بدرجتين ، وقد أسندوا أيديهم إلى منضدة طويلةٍ مقوّسة .

وكان عن يمينهم ضابطٌ صغير وَضَعَ أمامه دفتراً كبيراً وقلماً ودواةً ، وعن شمالهم رجل يلبس الثياب المدنية ، ويضع فوق رأسه قبعةً مما يلبس اليهود ، وليس أمامه شيء .

أما هي فقد أدخلت في قفص حديدي كبير ووقف عن يمينها وعن شمالها ومن ورائها كثير من الجند المسلحين ، عرفت منهم اثنين كانا ممن أَلْقَوْا عليها القبض في القناة إثْرَ معركة « الزُور » .

تَنَحْنَحَ كبيرُ الضباط الثلاثةِ ثم أخذ يَرْطُنُ باللغة الفرنسية مُتحدراً مسرعاً وهو يلتفت إلى زميليه الجالسين عن يمينه وعن شماله ، وَشَرَعَ الضابط الصغير الجالس إلى اليمين يكتب مايقال .

أمّا «رتيبة» فكانت توزع نظراتها في هدوء ظاهر ، وهي لاتفهم شيّئاً مما يقال ، ولاتدرك مايدور حولها .

وماهي إلا دقائقُ قليلةٌ حتى التفت نحوها الضابط الكبير ، ووجه إليها سيلا من الأسئلة بوساطة ذلك الرجل الذي يلبس الثياب المدنية ويضع على رأسه قبعة اليهود . فقد كان تُرجماناً .

إلا أن لهجتَه المشوبة بكثير من العُجْمَةِ جعلتها تُرَجح أنه ليس بعربي أصيل .

ثم صارت المحاكمةُ على هذا النحو :

- ما اسمك ؟

- «رتيبة» بنتُ عبد الواحد .

- كم سنك ؟

- ثلاثون عاماً .

- أين مولدُك ؟

- في «دَاريًا» .

- أين إقامتك ؟

- في حَرَسْتَا .

- ماذا تشتغلين ؟

- حائكةٌ .

- هل أنت متزوجةٌ ؟

- نعم .

- هل زوجك موجود ؟

- كلا إنه قتل .

- من الذي قتله ؟

– قتله جنودكم عشيةَ «ميّسلَون» .

– إذاً قُتِلَ في المعركة ؟

– كلا قتلوه في دروب القرية حين خرج يبْحَثُ لي عن غذاء ودواء وقابلة .

فتنحنح الضابط الكبير ، ورفع نظارتيه عن عينيه ،وهزّ رأسه وهو يقول :

لقد قبّض عليك الجند في كمين نَصبْته لهم ، وأنت تتَحَفّزينَ للوثوب عليهم والإيقاع بهم ، ولولا أنهم داهموك قبل إنفاذ الخطة بلحظات لقضيت عليهم جميعاً .

ثم أردف يقول :

فهل تقرين بأنك مذنبة ؟

– أجيبي .. أجيبي بسرعة .

فقالت «رتيبةُ» :

– لست بمذنبة ، ولم أنصب كَميناً لأحد .

فالتفت إلى أحد الجنديين اللذين كانا في جملة من قبض عليها ، ودار بينهما حديث لَمْ يُترجم لها .

ثم توجه إليها من جديد وهو يقول :

إذا لم تكوني قد أعددت كميناً للجند ، فما الذي حملك على النزول إلى القناة والاستتار تحت العشب ؟

أجيبي .

فقالت «رتيبة» :

لقد رأيت جنودكم قادمين من بعيد فنزلْتُ إلى القناة واستترت بالعشب خوفاً من بطشهم ، لقد كثُر اعتداؤهم على الناس ، وبخاصة النساء .

فبدت على وجه الضابط علامات الغضب وصرخ قائلا :

صه أيّتهاَ المجرمة .

إن جنودنا لايعتدون على أحد ، إنهم خرجوا ليدفعوا عن المواطنين شرّ الثوار العصاة ، ويحموهم من أذاهم ، ويبثّوا الطّمأنينةَ والأمن بين الناس .

لولا هؤلاد الجنود لفتك بعضكم ببعض ، ولأكَلَ بعضكم بعضاً .

فَهمّت «رتيبة» أن تجيبه غير أنه صرخ في وجهها كالثور الهائج .

ثم أردف يقول :

عند من تقيمين في «حَرَسْتا» ؟

فقالت «رتيبة» :

أقيم في بيتي .

– في بيتك .. !؟ .

لقد آثرت الإقامة في « حَرَسْتا » لقربها من « دُوما » موطن حكومة العصاة الذين تتعاملين معهم .

لو كنت بريئة كما تزْعمين لعدت إلى « دَارَيّا » حيث أهلك وذووك .

فقالت «رتيبة» :

لقد عزمت على الانتقال إلى « داريا » غير أنها أُحرِقَتْ .

فقال الضابط :

كيف أُحْرِقت ؟

ومن الذي أحرقها ؟

فقالت «رتيبة» :

أحرقها جنودكم .

ففقد الضابط اتزانه وصرخ في وجهها :

اخرسي .. قلت لك . اخرسي . ثم أردف يقول :

إنهم إذا كانوا قد أحرقوها فإنما فعلوا ذلك حتى لايأوي إليها العصاةُ ولايتخذوا منها ملجأً يلوذون به ، ومنطلقاً يعدون منه على القرى المجاورة .

إنهم يحرقون لكم قرية واحدةً لِتسْلَمَ لكم قرى كثيرة .

ثم التفت إلى رفيقيه الجالسين عن يمينه وعن شماله ، ودار بين الثلاثة حديثٌ قصيرٌ ، ثم مالبث أن توجه نحوها وهو يقول :

مذنبةٌ .. إعدام ..

وهب واقفاً على قدميه فوقف معه كل من في القاعة إلا «رتيبة» وأنشأ يقول:

حكمت المحكمة على «رتيبة» بنت عبد الواحد بالإعدام شنقاً .

أقبل الحراس على «رتيبة» ، وقادوها إلى السيارة التي جاءت بها ، فعادت إلى السجن بمثل الموكب الذي جاءت به .

وأُدخلتْ إلى حجرة « زكريا أفندي » لإتمام إجراءات استلامها فيها ، فجعل يُحَدقّ فيها بإمعان ، ويتفحصها من قِمّةِ رأسها إلى قدميها .

ثم سيقَتْ إلى داخلِ القلعة حيّثُ يقبع المسجونون .

بيْدَ أنهم لم يعيدوها إلى الغرفة التي كانت فيها وإنما أدخلوها غرفة أخرى يدعونها « الزنْزانَة » .

كان طول هذه «الزّنْزانة » ثلاثة أذرع ، وارتفاعها ثلاثةً أيضاً ، أما عرضُها فذراعان ، وكان لها باب سميك محكم الإيصاد ، فُتِحَت في أعلاهُ كُوّةٌ صغيرة بقدر راحة اليد ، وثُبّتَتْ عليها شبكة من قُضْبان الحَديد .

عَرَفت «رتيبة» أنها سوف تقضي أيامها الأخيرة وحيدةً في القبر الضيق ، غير أنها كانت تعلم أنّ إقامتها فيه لن تطولَ وأن أيامها أصبحت قليلةً جدًا .

وأقبل الليل يلُف السجن بظلامه الموحش ، وكانت هذه ثالث ليلة تبيت فيها بعيداً عن فراش «عبُادةَ» – منذ أبصرت عيناه النور .

وكانت «رتيبة» تَسْمَعُ من الناس أن السلطات تحقق للمحكومين بالإعدام بعض رغباتهم قبل تنفيذ الحكم ، وكانت تتمنى أن يكون ذلك صحيحاً .

لم يكن لها من مطلب إلا أن ترى «عبُادَةَ» قبَلْ أن يَلْتَفَ حبل المشنقة حول عنقها .كانت تريد أن تراه لتقول له شيئا يخفف من نقمته عليها كلما عضه البؤس ونهَشّهُ اليتمْ .

فقد كانت تخشى أن يعيش حياته كلّها وهو حاقدٌ عليها ، لأنها ألقت به إلى التّهْلُكة ، وخلفته نهباً للفاقة والحرمان ، وجعلت منه فتى مشرداً يلم ببيوت الناس فيُدفع عنها كما تُدفع الكلابُ ، ويقترب من موائدهم فيُذاد عنها كما يُذادُ الذباب .

كانت تريد أن تراه لتقول له مايستدر عطفه عليها ، ويبّقي على حبّه لها .

كانت تريد أن تراه لترسم بأناملِ حنانها على صفحة نفسه آخر صورة لها .

ولكن أنّى لها ذلك ، ودونَها ودونَهُ هذه الأبوابُ الموصدةُ ، وتلك القلوبُ التي هي كالحجارة أو أشد قسوة .

الفصل العشرون

بزغت الشمس وراء الأفق الشرقي تحمل على أجنحتها الذهبية يوماً جديداً يضاف إلى أعمار الناس .

وتسللت من خلال الستائر حُزْمَةٌ من أشعتها الدافئة فاستقرت على سرير «زكريا أفندي» ومست جبينَه وعينيه فهبَّ من نومه ، ونظر إلى ساعته ، وهو يخشى أن يكون قد تأخر عن موعد العمل .

ورأى أمَّهُ العجوز في باحة الدار فأكَبَّ على يدها ولثمها بخشوع وبدت له زوجه فحياها وحيته .

أما أولاده فلم يرَ إلا أصغرهم إذ أن أخويه الآخرين كانا قد مضيا إلى المدرسة مبكرَّين .

ووُضِعَ الطعامُ بين يدي « زكريا أفندي » فأصاب منه لقَيْماتٍ لايُقمْنَ صُلْبهُ، ثم بادَرَ يرتدي ثيابه ، وتوجَّه إلى القلعة .

وهناك جلس على كرسي وراء مكتبه ، وجعل يصرف الأمور بدقة وحزم ، وحِرْص شديد على الوقت ، فالوقت في مثل هذا اليوم من ذهب ، بل إن الذهب ليتضاءلَ أمامه .

* * *

كان الذين يعملون في سجن القلعة فريقين :

فريقاً يتألف من « زكريا أفندي » وثمانية من الشُّرَطِ يعملون معه .

وكانت مهمةُ هؤلاء إدارةَ السجن ، وتنظيمَ الحراسةِ فيه ، والإشرافَ على كُلّ مايجرى بين جدرانه ، وتَسَلُّمَ السجناء وتسليمَهم وما إلى ذلك .

وفريقاً ثانياً كثيرَ العدد أُنيطَ به حفظُ أبواب السجن من الداخل والخارج ، والمرابطةُ في الأبرَاج المطلةِ عليه وعلى ماحولَه ، وحراسةُ غرف السجناء ، وقد حُدد لكل رجل من رجال هذا الفريق مكانُه الذى لايبرحه ، وزمانُه الذي يعمل فيه ، ومسؤوليته المباشرةُ عن الرقعة التي أنيطت حراستها به .

وكان يقيم في الطبقة العليا ذلك الضابط الفرنسي ومعه بعض رجاله للإشراف العام .

كان اثنان من رجال « زكريا أفندي » يتمتعان بإجازتهما الأسبوعية التي تنتهي في الساعة الثانية من بعد ظُهْرِ هذا اليوم حيث يعودان ومن ثَمّ يؤذن لاثنين آخرين بَدَلاً منهما حسب نظام معين .

فاستدعى « زكريا أفندي » ذَيْنِكَ الرجلين وداعبهما بما عرف عنه من حلو الدعابة ، وسمح لها باستعمال إجازتهما قبل حلول موعدها بثلاث ساعات ، فَسُرّا لذلك ، وغادرا السجن في الساعة الحاديةَ عشرةَ وهما يشكران « زكريا أفندي » ويعترفان بفضله عليهما ، ويدعوان له بطول البقاء ، ويوازنان بينه وبين مدير السجن الأصيل الذي كان يعاملهما كما يعامل السجناء .

وكان على اثنين آخرين من رجاله أن يذهبا إلى محكمة الجنايات ليؤديا شهادةً في دعوى اختلاس كبرى وقعت في السجن منذ سنتين ، واعتُبرا شاهدين

أصيلين فيها مع عدد كبير من الشهود ، فأذن لهما « زكريا أفندي » بالذهاب فحيياه وانصرفا لشأنهما .

ثم جاء أحد رجاله الباقين على استحياء ، ورجاه أن يسمح له بساعتين اثنتين يغادر فيهما القلعة لقضاء حاجة عَرَضَتْ له ، ويسأله المعذرة عن هذا الطلب ، فأجابه إلى سؤله وهو يشدد عليه ألا يتأخر عن الساعة الثانية بعد الظهر مهما تكن الأسباب ، فوعده الرجل بذلك وانصرف وهو يكاد يقبل يده .

ولما أشارت الساعة إلى الثانية عشرة ، لم يبق في السجن كله من رجاله الثمانية غير رجل واحد ، فاستدعاه وكلفه أن يعد له طعام غدائه عند شوّاء معروف بعيد عن القلعة يقصده الناس من كل مكان ، ويتزاحمون على شوائه الشّهِيّ ، فانصرف إلى غايته .

وبقي « زكريا أفندي » وَحْدَهُ وكان عليه أن يُنَفِذَ ما أقدم عليه في دقائق معدودات ، وبغير ذلك يكون قد قُضِيَ على خِطته بالإخفاقِ ، وعرّضَ المجاهدةَ صاحبة كُراتِ النفطِ والمجاهدين الثلاثةَ الذينَ يجاورونهاَ إلى القتل .

صعد « زكريا أفندي » الدّرَجَ المؤدِّيَ إلى غرفة الضابط الفرنسي في الطبقة العليا . وطرق عليه الباب في أناة ، فلما أذن له انحنى بلطف وحياه بأدب وقال :

سيدي « الكولونيل » ...

لدينا ثلاثةُ رجال وامرأة انتهت مدد سجنهم ، وحان أجَلُ الإفراج عنهم .

فهل يسمح لي سيدي بإطلاق سراحهم ؟!

فقال الضابط : من هم ؟

فسمى له « زكريا أفندي » ثلاثةَ رجال وامرأةً .

فقال الضابط :

لابأسَ .. أطلق سراحهم ، ولم يهتم للأمر لأن السجن سوقٌ كبيرةٌ يدخلها كلَّ يوم عشراتٌ ويخرج منها عشرات .

فانحنى « زكريا أفندي » بلباقة ، وحيًا بلطف ، واستدار نحو باب الغرفة لينُفذَ الأوامر ، فما لبث أن ناداه الضابط قائلا :

مهلا « زكريا أفندي » ، فسأصحبك لرؤية السجناء الأربعة .

ثم تمتم بصوت خافت :

يجب أن يعلم هؤلاء الأربعة أننا نحن الذين نطلق سراحهم ، لا أبناء قومهم .

فَجمُدَ « زكريا أفندي » في مكانه وكاد أنه يسْقط في يَدِهَ .

نزل الضابط الفرنسي الدَّرج ، ونزل وراءه « زكريا أفندي » وقلبُه يدق في صدره دقًا عنيفاً ، غير أنه تصنع الهدوء .

ولما بلغا باحة السجن المشرِفَةَ على غرف السجناء والسجينات ، وأصبحا على قيد أذرع من الحرس .

توقَّف الضابطُ الفرنسي ، وجعل يشد قامته ، وينفخ صدره ، وينظر إلى عطفِيْهِ .

أما « زكريا أفندي » فبادر إلى الحارسين اللذين يَحْرُسانِ «أم عبادة» والمجاهدين الثلاثة وقال لهما :

إن « حضرة الكولونيل » يأمر بإخراج المرأة والرجال الثلاثة المحكومين بالإعدام، لإعادة محاكمتهم أمام هيئة عسكرية عليا .

فَصدَعَ الحارسان بالأمر وأخرجا «رتيبة» والمجاهدين الثلاثة .

ومرّ الأربعة أمام الضابط الفرنسي فهزّ رأسه وهو يبتسمُ ابتسامةً مُفْتَعَلَةً دلّتْ على غباء وحمق ، ولوّح لهم بعصا صغيرة كانت في يده ، وقال لهم كلاماً لم يفهموا منه شيئاً .

قاد « زكريا أفندي » المجاهدين الأربعة إلى مكتبه وهم يظنون أنهم يقادون إلى الموت .

وهناك أقبل عليهم حتى تداخل بينهم وقال :

بعد لحظات ستكونون أحراراً .

عند الباب الخارجي ستجدون رجلا يُشْبِهُني ، إنه أخي .

سيشير إليكم بيده فاتبعوه ، ولاتسألوه عن شيء .

ثم ابتعد عنهم وأشار إليهم أن يتبعوه .

وخرج « زكريا أفندي » من حُجْرَةِ مكتبه ومَعَهُ المجاهدون الأربعةُ متوجهين نحو باب السجن الخارجي .

وأخذ يجتاز بهم الحواجز المنصوبة في الطريق واحداً بَعْدَ آخر فكان حماتُها يفسحون لهم الطريق ، ويحيونَه تحيّةً فيها احترامٌ وحب .

ومازال كذلك حتى بلغ بهم البابَ الكبير المُفْضِيَ إلى الشارع العام ، فأشار إلى حراسه أن يفتحوه ، فصدعوا بالأمر وأزاحوا المدفعين الرشاشين الجاثمين أمامه ،

ورفعوا مزْلاجه الحديديَّ الضخم ، وفتحوا أقفاله الأربعةَ ، وتشبثوا بمصراعيه حتى انفرجا .

وخرج المجاهدون إلى الشارع ، ووجدوا أنفسهم في سوق « العَصْرونية » المتفرع من سوق «الحميدية» ، فغرقوا في زحمته ، وجعلوا يمدون أبصارهم في كل اتجاه حتى رأوا رجلا من بعيد يرفع لهم يده ويَخْفِضُها بأناة وحذر فتبعوه دون أن يقولوا شيئاً ، وساروا وراءه حتى بلغوا جامع بني أمية فولجوه من بابه الغربي ، واجتازوا صحنه الواسع ، ودخلوا إلى المشهد الحسيني حيث دخل صاحبهم .

وهناك تفرقوا في أنحاء المشهد ، وتشاغلوا بالصلاة ، وقراءة القرآن وعيونُهم لاتتحول عن الباب . أما صاحبهم فقد تركهم حيث أمرهم أن يكونوا ، ووقف بباب المشهد المشرف على صحن الجامع يرقُب الغادي والرائح ، وينتظر الخطوة الثانية .

وما هي إلا ربع ساعة حتى لحق بهم « زكريا أفندي » ليطمئن إلى نجاح الخطّة فوجدهم حيث أشار ، وطلب إلى أخيه أن يُحضرَ لهم مايَسُد رمقهم من طعامٍ، وأن يبقى معهم حتى يعودَ إليهم بعد الغروب .

وعاد « زكريا أفندي » إلى السجن على عجل ، فقد كان قريباً من الجامع الأموي ، لايفصله عنه غيرُ جزء يسير من السوق الموازي لسوق « الحميدية » .

وما كاد يستقر على كرسيه في السجن حتى أخذ رجاله يتوافدون على القلعة واحداً بعد آخر .

ووُضِعَ الطعام بين يديه فدعاهم لمشاركته فيه وألح عليهم في ذلك ، فأجابوا دعوته لما كانوا يعلمونه من إصراره في مثل هذا الموقف .

وأصاب كلٌّ من الرجال بضع لقيمات ، وأصاب هو مثلهم أو أكثر منهم قليلا .

ثم أقبل عليهم يقول :

لقد استدعت السلطات الفرنسية الثوار الأربعة المحكوم عليهم بالإعدام لإعادة محاكمتهم أمام محكمة عسكرية عليا . وقد يكون غرضها من ذلك انتزاع بعض الاعترافات منهم ، أو التوصل إلى بعض المعلومات .

وأوصيكم أن تكتموا ذلك وألاّ تتحدثوا به مع أحد سواء في داخل السجن أم في خارجه .

فقد يتصل خبرهم بمسامع الثوار فيهاجمون المحكمة ، وأُعَدُّ أنا وأنتم مسؤولين أمام السلطات عن ذلك .

فقدّر رجاله أهمية ما أُلقْي إليهم من كلام ، ووعدوا أن يطووا هذا الأمر وألاّ يخوضوا فيه لما يجره عليهم من وخيم العواقب .

وجلس « زكريا أفندي » وراء مكتبه لايبرحه ، وهو يرقب غرفة الضابط الفرنسي ليرى الداخل إليها والخارج منها . ويتتبع مخابراته الهاتفية ليقفَ على كل مايقال له ، ويحول دون الاتصال به اتصالاً يؤدي إلى انكشاف الأمر قبل أن يَجِنَّ الليل .

فقد كان يعلم أن الفرنسيين إذا انكشف لهم الأمر في النهار المبصر طوّقوا المدينة ، وسدوا السبل ، وبثوا عيونَهم في كل مكان ، وأرسلوا جندهم في كل صوب ، وتمكنوا من إلقاء القبض على المجاهدين الفارين ، وقتلوهم ، وقتلوه معهم.

وبقي « زكريا أفندي » على حاله هذه حتى انجلى النهار وأقبل الليل .

وعند ذلك تناول ورقةً كتب فيها وثيقة بالفرنسية تشعر بتسلمه للسجناء الأربعة ، وذيّلها بتوقيعه ، مخافة أن يلحق الأذى بأحدٍ من رجاله الذين لايَدَ لهم في الأمر .

ثم استدعى رئيس الحرس ، وسلّمه المغلف وهو يقول :

إن الضابط الفرنسي قد كتب على نفسه هذه الوثيقة باستلام الثوار الأربعة ، أرجو أن تحتفظ بها في مكان أمين حتى يعودوا ، وعند ذلك تعيدها إليه ، أو تمزقها على مشهد منه .

وأقبل « زكريا أفندي » على رجاله يحييهم ، وألقى على السجن نظرة فيها مزيج غريب من العواطف المتنافرة ويمم وجهه شطر الجامع الأموي .

وهناك كلّف أخاه أن يستحضرَ سلاحاً كان أعده البارحة وخبأه في مكان أمين .

وكلف المجاهدين الأربعة أن يتسللوا إلى موضع عينه لهم .

ومضى هو إلى بيته يودع أمّه العجوز ، وزوجه الشابّة ، وصبيتَهُ الصغار .

وفي الهزيع الثاني من الليل كان « زكريا أفندي » وأخوه يجتازان مع المجاهدين الأربعةَ حدود «دمشْقَ» ، ويدخلون في حمى «الغوطة» المُمنَّعِ ، وقد زيد في عدد المجاهدين اثنان قلَّ نظيرهُما في الرجال ، وأُنْقذِ أربعة من الأبطال فيهم «أم عبادة» .

وقد عَرَفَت «رتيبة» منذ وطئت قدماها أرض «الغوطة» أن «عُبادةَ» بخير .

فقد أقبل عليها المجاهدون يرحبون بها ، ويحيونها بدموع فرحتهم ، ويهنئونها بما كُتِبَ لها من نجاة ، ويبشرونها بأن «عبادة» سليم معافى ، وأنه قضى أيامَه الماضيةَ في كنف جارتها « أم الخير » .

وعرفت «رتيبة» شيئا آخر هو أن سكان « حَرَستْا » قد عرفوا من أمرها ماكان خافيا ، وكشفوا من سرها ماكان مخبأ ، وذاعت بينهم أخبار إسْهامها في الثورة ، وأنباء ماحل بها .

وَصَلَتْ «رتيبةُ» إلى « حَرَستا » مع بزوغ الشمس .

كان فؤادها يهوي إلى بيت « أم الخير » ، وقدماها تحثان الخطى نحوه .

ففي بيت « أم الخير » فلْذَةُ الكَبِد ، وحبَّةُ القَلْب ، ونور العين ، وطرقت باب الدار ففتح لها ، وأطلت من بعيد فرأت «عبادة» ، ورآها «عبادة» وامتدت يدان صغيرتان، ويدان كبيرتان في وقت معاً .

وعانقت «رتيبةُ» «عبُادةَ» ، وعانق «عبادة» «رتيبة» ، وانهلّت من خلال البسمات دموعُ الفرح ، وأوى الطائر الصغير إلى عشه بعد أن أزعَجتهَ عنه المزعجات ليالي أربعاً.

ورفع «عبادة» عينيه إلى أمه ينظر إليها نظرات فيها عتاب وفيها استفسار ، وفيها فرحة .

ونظرت «رتيبة» إلى «عبادة» نظراتٍ أودعت فيها كلَّ ماحفلت به قلوب الأمهات من حنان وحب .

ووقف كلُّ من في الدار يشهد هذا اللقاء .

ثم أقبلت « أم الخير » على «رتيبةَ» تعانقُ وتحيي ، وأقبلت «رتيبة» على « أم الخير» تشكر المروءة ؛ وتذكر الصنيع ، وتسأل الله أنْ يَحْفَظَ عَلَيها أبناءَها وأن يقيَهم غوائلَ السوءِ .

ثم مضت «رتيبة» بـ«عبادة» إلى البيت .

وفي الضحى جاء رسول من قبل القيادة يهنئُها بالنجاة ويطلب إليها أن تلزم بيتها ، وأن تنقطع إلى ولدها بعد أن قدمت بين يدي الله ماقدمت .

فقررت لأول مرة ألاَّ تُذْعِن لمشيئة القيادَة .

فهي لم تنهض إلى الجهاد بأمر حتى تكف عنه بأمر .

الفصل الواحد والعشرون

أصيب الفرنسيون خلال السنوات السبع التي قَضَوْها في «سورية» بأحداث كقطع الليل المظلم ، وورثُوا خلال الثورات التي نَشبَتْ في كل جزء من أجزاء هذا الوطن العربي بأرزاء طحنت عظمهم طحناً ، ومنوا خلال المعارك التي دارت بينهم وبين المجاهدين بخسائرَ فادحة وهزائمَ منكرة .

وفعلوا في هذه المدة الطويلة مايخجل منه التاريخ ، وفُعِل بهم مايُخْجِلُهم أمام التاريخ .

غير أنَّ ذلك كلَّه كان يبدو لهم هينا سهلا إذا قاسوه بحادث سجن القلعة الأخير ، وماتركه من آثار في داخل البلاد وخارجها .

فقد سرى في «سورية» من أقصاها إلى أقصاها نبأ « زكريا أفندي » ومجاهديه الأربعة كما تَسْري النارُ في الهشيم ، وجعل الرجال يتناقلونه في المعامل والمتاجر والمزارع ، والأطفال يروونه في الشوارع والكتاتيب ، النساء يتَحَدَّثْنَ به في أسمارهن ، وعلى وجوههِم جميعا علامات الرضا عمّا فعل « زكريا أفندي » والسخر من غباء الفرنسيين .

وأصبحت كلمة « زكَرِيًا » تستفز أكثر الفرنسيين حِلْماً ، وتهيج أرحبهم صدراً .

وجعل الأولاد في الشوارع إذا رأوا فرنسيًا عن بعد اقتربوا منه حتى يحاذونه ثم يزعقون في وجهه « زكريًا » مشددة الياء ممدودة الألف ثم يطلقـون أقدامهم مع الريح ، ويتواروْن في الأزقة والحارات .

وتناقلت صحف فرنسا على اختلاف مذاهبها ونحلها خبر « زكريا أفندي » وروته بروايات مختلفة متباينة لكنها أجمعتَ كلُها – عن غير قصد – على ذكاء الفتى العربي ، وغباء الضابط الفرنسي .

وأخذ رساموها يتخيلون « لزكريا أفندي » صوراً من أذهانهم ، فيرسمهُ بعضهم ضخماً عملاقا كَثُّ اللحية ، غزير شعر الشاربين ، ويرسمه آخرون مسْخا صغير الحجم ، غير أن هؤلاء وهؤلاء كانوا يبرزون الذكاء الذي يشعُّ من عينيه والدهاء الذي يلوح على وجهه ، وسعَة الحيلة التي تبدو على كل جارحة من جوارحه .

وقام كتابها يبكون على هيبة «فرنسا» التي ذُبِحَتْ في الشرق ، وينادون بعقاب أولئك الذين عرّضوها للذل والمهانة .

أما المجاهدون فقد فعلت بطولة « زكريا أفندي » في نفوسهم فعْلَ السحر ، فقد أشعرهم هذا الكَمِيُّ الذكيٌّ بأن «دمشق» لاتزال معهم على العهد ، وأن ماحل بها من دمار لم يزدها إلا صلابة في الحق وإيمانا بالثورة ، وتعلقا بأهدافها العظمى ، وارتباطا بمثلها العليا .

وخاض المجاهدون – بعد أن التحق بهم « زكريا أفندي » – مع الفرنسيين نَيفاً ومئةَ معركة في أقلِّ من ستة أشهر ذاق فيها الأعداء من صبرهم ما أفقدهم الصبر ، ونالوا من جلَدِهم ما أوهى منهم الجلَد .

فقرروا أن يلجؤوا إلى التفاوض معهم لإيقاف هذه الحرب التي عركتهم كما تَعْرِكُ الرحى ماتحتها من خرق ، وطحنتهم كما تطحن ما يلقى إليها من حب.

وبعثوا الوسطاء في ذلك فجاءهم الرد بالقبول ، ذلك بأن المجاهدين كانوا طُلاَّبَ حرية وحق ، ولم يكونوا طلاب دمار وحرب .

فأرسلوا رسولهم إلى «الغوطة» بالصلح ، فتلقاه حرس المجاهدين عند حدودهم يحفظونه ويصونونه ، واستقبله زعماؤهم في العرين يلوحون له بأغصان الزيتون ، وتقدموا إليه بطائفة من شروطهم السَّمْحَةِ التي تحقق للبلاد الحرية ، وتضمن للمجاهدين السلامة .

ووافقوا على أن تتم بينهم وبين القيادة الفرنسية هدنة يصدر الفرنسيون خلالها عفوا عاما عن جميع من اشترك في الثورة أو حُكِمَ عليه من أجلها .

وأن تجريَ في مدة الهدنة مفاوضاتٌ سياسية مع طائفة من ممثلي البلاد يكون على رأسهم «إبراهيم هنانو» .

فإذا ما انتهت المفاوضاتُ إلى نجاح يحقق أهداف الثورة في الحرية والاستقلال، وقامت في البلاد حكومة وطنية يختارها الشعب ، استسلم لها المجاهدون ، وألْقَوا سلاحهم بين أيديها .

وافق الرسول الفرنسي على مشروع الهدنة الذي تقدم به المجاهدون بصورة عامة ، ووعد بنقله إلى القيادة العليا في «دِمَشْقَ» لدراسته وإبْدَاء ملاحظاتها عليه .

وحدد مع المجاهدين موعداً لاجتماع ثان يعقد بعد سبعة أيام في المكان نفسه، يعود فيه وقد حمل معه رأي القيادة فيما عُرِضَ عليها من شروط ، حيث تُستأنفُ على أساس ذلك المفاوضاتُ .

أعاد المجاهدون الرسول الفرنسي إلى حدود «دمشق» سالماً موفور الكرامة ، ثم أرادوا أن يُثْبِتوا لفرنسا ولغير فرنسا رغبتهم الصادقة في السلام ، وحرْصَهم الشديدَ على حقن الدماء وصَوْنِ النفوس ، فقرروا أن يوقفوا إطْلاقَ النار طوال الأيام السبعة .

وأراد الفرنسيون أن يبثّوا في قلوب المجاهدين الطمأنينة إلى صدق نيّاتهم فأذاعوا قرارا جزئياً بالعفو عمن صدرت بحقهم أحكام من المحاكم العسكرية خلال الأشهر الستة الأخيرة ووعدوا أن يُتْبِعوا ذلك بعفو أعَمّ .

فلم يشمل قرار العفو هذا إلا نفراً قليلا من المجاهدين كانت بينهم «رتيبة» بنت عبد الواحد .

توقف إطلاقُ النار في «الغوطة» بعد ثمانيةَ عشرَ شهراً لم يغمض فيها للناس جفْنٌ ، ولم يهدأ لهم جنبٌ .

وخرج الفلاحون إلى حقولهم وبساتينهم بعد هذه المدة الطويلة دون أن يكونوا مهددين بقنبلة تتفجر تحت أقدامهم من الأرض ، أو قذيفة تتساقط فوق رءوسهم من السماء ، أو رصاصة تغتالهم وهم لايشعرون .

وانقضت الأيام السبعة وكأنها الأيام التي تسبق القيامة .

فقد انصرف كل من في «الغوطة» إلى إصلاح شأنه ، وجَمْعِ مَحْصولِه وادخار مؤونة تكفيه زمناً طويلا إذا ماكُتب لهذه المفاوضات أن تخفق .

وفي صباح اليوم المحدد للقاء الرسول الفرنسي ، توجه إلى مكان الاجتماع الصفوةُ المختارة من المجاهدين والسيوفُ المسلولة من قواد المناطق ، وأولو السابقة في البذل والفداء .

وبينما هم في بعض الطريق ، أقبلت عليهم «أمُّ عُبادة» لاهثةً عجلى ، وأخبرتهم بأن هناك كميناً نصبه الفرنسيون لهم بالقرب من مكان الاجتماع وشركاً أعدوه للإيقاع بهم وأخذهم أخذةً واحدةً فارتدوا عائدين وهم يُحرِّقون أناملهم من الغيظ . واستنفَروا مَنْ وراءهَم من المجاهدين ، وخفوا إلى المكان الذي كمَنَ فيه الغدر ، وأحاطوا به من كل جانب ، وأطبقوا على عدوهم ، وخاضوا معه معركة أظهر فيها الفرنسيون صنوفاً من الأسلحة الجديدة التى لَمْ يرها المجاهدون من قبل ، وسلكوا في قتالهم خططاً جعلتهم يقتربون من النصر أكثر من مرة .

واستمرت المعركة حامية الوطيس منذ الصباح حتى الغروب .

ولما جَنَّ الليل كرَّ المجاهدون على عدوهم كرات متتابعةً متلاحقةً ، فدب في صفوفه الوَهَنُ وتسرب إلى قلوب رجاله الهلع ، وتفرقت بجنده السبُلُ ، ففريق قُتِلَ، وفريقٌ أُسِرَ ، وفريق لاذ بالفرار .

الفصل الثانى والعشرون

أسقِطَ في يد الفرنسيين بعد أن أخفقت الخطةُ التي أقاموها على الغدر، وأسسوها على الخيانة، وباتوا يُقلِّبون أكفَّهُم على ما صنعوا، ويعضون أناملهم على مافعلوا.

فلا هم استطاعوا أن يقضوا على هذه الحركة العارمة، ولاهم تمكنوا من الإبقاء على ثقة المجاهدين.

ومع ذلك فقد كان عليهم أن يضعوا لهذه الثورة حدًّا، وأن يقضوا عليها مهما كان الثمن غاليا.

فالأمهات الفرنسيات اللائي ذُقْنَ مرارة الحرّب العالمية، واكتوَيْن بنارها، كن يعتقدن أن أولادهن الذين سلموا من القتل في المعارك سوف يعودون إليهن، غير أنهن مالبثْن أن رأيْنَهُم يُساقون إلى بلد ناء في الشرق ليقتَلوا هناك.

والجنود الفرنسيون الذين جيء بهم إلى «سورية» وهم يُمنَّوْنَ بأن يتفيؤوا ظلالها الوارفة وينعموا بثمراتها الطيبة، ويتمتّعوا بما فيها من جنات وعيون، لم يجدوا فيها غير دخان الحرائق الذي يعمي الأبصار، ولم يرَوْا منها غير أسوار القلاع التي تقبضُ النفوسَ، ولم يسمعوا على أرضها غير دوي المدافع الذي يخلع القلوب، ولم يشموا من أرَجها غير روائح البارود التي تزكم الأنوف.

حتى خيل إليهم أن الجنة التي وعدوا بها كانت فريةً افتراها الشيطان.

وباتت القيادة الفرنسية تخشى قَوْمَة النسوة في «فرنسا» ، وثورة الجُنْد في «دمشق» . وأصبح من الواجب عليها أن تفعل أيَّ شيء لسحق هذه الحركة التي كادت تقضي على أحلام «فرنسا» في الشرق وتَذْهَبَ بهيبتها في العالم ، وتُثير في وجهها المستعمرات .

فجرَّبت من أجل ذلك أن تَشتَرِيَ الذمَمَ ، فَلَمْ تَجدْ في هذا الوطن من يبيع ذمته .

وجربت الغدر والخيانة فما أغنياها شيئاً .

وجرَّبت الحرْبَ فدقت الحربُ أعناقَ جنودها دقًّا .

فلم يبق أمامها إلا تلك الخطةُ التي جربتها أكثَر من مرة ونَجَحَتْ ، مع أن هذه الخطة تُثير نقمة العالم ، وتبعث اشمئزاز الدنيا ، وتستوجب لعنة التاريخ .

وكانت هذه الخطة تتلخص في كلمة واحدة هي :

الجريمة

وكانت الجريمة في هذه المرة سهلة التنفيذ .

عشرُ طائرات فقط ، وعشرون طياراً ، وألفُ قنبلة محرقة ، وثلاثةُ أيام ...

أما موضوع الجريمة فإحراق هذه «الغوطة» بما فيها ومن فيها .

ونُميَتِ الأخبار إلى المجاهدين فما صدَّقوا هذا الذي يقال ، ولاظنوا أن «فرنسا» تقدم عليه .

لكن «فرنسا» كذَّبت ظنونهم ، وبدأت عملية الإحراق .

أُحرقت في الهجمة الأولى من قرى «الغوطة» : «برزَّة ، والقابونَ ، وجَوْبَر ، والأشْرَفِيَة ، وجِسرينَ ، وزِبدْينَ ، والمُلَيْحةَ ، وسقْبا ، وجَرَمانا» .

تسع قرى أحرقت وهام رجالُها ونساؤُها وأطفالها على وجوههم يبغون الملاذ في القرى التي ستحرق غدا أو بعد غد .

وشكا الناس «فرنسا» لـ«فرنسا» فقيل لهم :

سوف نحرّق قراكم وندّمر بيوتكم ونهلك زرعكم ونبيد ضرعكم مادام هؤلاء العُصاة يقيمون على أرضكم .

فمد الناس أبصارهم إلى المجاهدين يسألونهم أن يضعوا لهذه الكارثة حدّا وأن يلتمسوا لهذه المجزرة حلاً .

فاجتمع المجاهدون في ليْل وقرروا أن يطووا عملهم حتى يُسْفِرَ عليهم صبحٌ قريب يصلون فيه ما انقطع ويستأنفون عنده ماتوقف .

واستقر فريق منهم في أرض الوطن وهم تِلْكَ القِلَّةُ التي صدر العفو عنها وفيها «أمُّ عُبادة» .

وانطلق الباقون إلى البلاد المجاورة ، وقد خلفوا وراءهم الأهل والولد والزوج والعشير .

وأقاموا هناك يُعِدّون العدة ليوم قريب .

الفصل الثالث والعشرون

لزمت «أم عبادة» بيتها بعد أن تقطعت بينها وبينه الأسباب .

وعادت إلى سيرتها الأولى قبل أنْ تَنْشَبَ هذه الثورة في الجنوب ، وقبل أنْ يدعُوَها الداعي إلى الإسهام بها .

حقًا إن «أم عبادة» كانت ترجو – كما يرجو المواطنون جميعا – أنْ تَنْجَلِيَ هذه الحركة عن صبح أَبْلَجَ أغَرَّ يبسِمُ فيه الدهر لـ«سورية» بَعْدَ عبُوس ، ويَهَش لها بعد تَجَهّم .

ولكنها مع ذلك لم تكنْ يائسة مما حدث أو قانطة مما وقع ، فهي تعلم – كما يعلم المواطنون أيضاً – أن الصخرة لاتُفَتِّتُها ضربة واحدة مهما تكن الضربةُ قويةً عنيفة ، وأن ضربة اليوم لن تذهب سدًى إذا أضيفت إليها ضرباتٌ أُخَرُ .

وأن آخر معول يفتت الصخرة يكون مديناً دائماً للمعول الأول. وكانت «رتيبة» على ثقة من أن الذي مكّن لحركة الجنوب أن تقف على قدميْها ثمانيةَ عشرَ شهراً، وأن تواجه العواصف التي هبت في وجهها وأن تُحْرِزَ الانتصارات التي أحْرزتها إنّما هو حركة الشمال وما تلا حركة الشمال في كل رقعة من أرض هذا الوطن .

وهي على ثقة بأن يوماً آخرَ قريباً أو بعيداً سيَطْلُعُ على البلاد بحركة أخرى تذهب بما بقي من عروش الطغاة ، وترد إلى الوطن حقه المَسْلوبَ ، وحريته المغصوبةَ .

وكانت «رتيبة» تعلم أن الأحداث الجسام تَشْحَذُ الرجالَ كما تشحذ الصياقلُ السيوف ، وتصفي الشعوب كما تصفي النارُ المعادن ، وليس على الأمة من ضَيْرٍ إذا أصابها بسبب ذلك شيء من النقص في الأموال والثمرات والأنفس .

فالشعب سرعان مايضمد جراحه بيديه ، وينهض ليبنيَ البيوت التي دُمرت ، ويُعَمّرَ المتاجر التي خُرِّبت ، ويغرس الأشجار التي اجْتُثَّتْ ، ويستأنف حياته من جديد ، وهو أمْضى عزماً وأشدُّ بأساً وأقوى مراساً .

وكانَت كثيراً ماتردد بينها وبين نفسها كلمةَ « الحاج » رد الله غربته . حيث كان يقول :

ما فتح شعبٌ باباً للجهاد إلاَّ فَجَّرَ الله ينابيع الخير في نفسه وأمدَّه بقوة من عنده، وكشف عن نبيل خصائله وجليل شمائله .

وما تاريخ الشعوب الذي تستطيع أن تفاخر به وتَرْويهُ لأبنائها بزَهْوٍ واعتزاز إلا تلك الحركات التي تقوم بها من حين إلى آخَرَ .

لقد كان في حياة «أم عبادة» قبل أن تُسْهِمَ في هذه الحركة كثيرٌ من الفراغ.

أما الآن فقد أصبحت تحيا حياةً زاخرةً بذكرى البطولات ، عبِقَة بطيوب المعارك ، حافِلَةً بالتجارب ، غنية بالخِبْراتِ .

وهي اليومَ أكثرُ استعداداً من أي وقت مضى لأن تُلبِّيَ مؤذنَ الجهاد متى أذَّن وأينما أذَّن . على الرغم من أن الفرنسيين قد أخذوا عليها العهد بأن تلْزَمَ بيتها ، وأنذروها بالرجوع عن قرار العفو إذا بدر منها مايريب .

فقد مرَّ بها من الأحداث ماجعلها تؤمن أنّه ما من مخلوق على وجه الأرض يستطيع أن يُنْقِصَ يوماً من أجَلِ مخلوق آخر .

وأنّه ما من امرىء يستطيع أن يمد في أجل نفسه يوما مهما سعى لذلك وبذل من أجله .

وكانت «رتيبة» تعزي نفسها عَنْ تركها الجهادَ في ساحات القتال باستئنافها الجهادَ من أجل «عبادة» والكفاحَ في سبيله إلى أن تجتاز به دروب الحياة الوعرة ، وتجعل منه مواطناً صالحاً يُرضي الله ويبرُّ أمته ووطنه .

وكان على «أم عبادة» أن تعكف على نولها لياليَ طوالاً ، بعد أن كثر انقطاعها عنه ، لتصلح مافسد من شأنها ، وتَفِي ماتراكم من ديونها ، وتستأنف لـ«عُبادةَ» حياةً أفضَلَ .

الفصل الرابع والعشرون

مرت الأيام عجالاً خفافاً لاتبطيء ولاتتمهل .

وجعل « عبادة» ينمو بسرعة كما تنمو أشجار الغابات ويشتد بقوة كما تشتد.

وجاز دراسته الابتدائية في القرية دون أن تلقى أمه من ذلك عناء كبيراً .

وبات حتماً على «رتيبة» أن تبعث به إلى «دمشق» ليتمّ دراسته الثانوية في مدارسها، فتلك القرى الصغيرة من أمثال « حرستا » يقف فيها التعليم عند حدود هذه المرحلة .

ولقد كانت «رتيبة» تقدر ما يُلقى عليها ذلك من تبعات تنوء بها كواهل الرجال، وتُدرك مايحملها من نفقات يعجز عنها الموسرون ، وتعرف مايوجبه عليها من شظف وحرمان .

غير أن هذا كلّه لم يجعلها تتردد لحظة واحدة في أمر إرساله إلى «دمشق» .

ولاعجب فقد أصبحت «رتيبة» لاترى الحياة إلا على أنها عطاء وبذل ، ولاتتذوقُ العيش إلا إذا كان نضالاً وحرماناً .

وقد كانت دراسة واحد من أبناء الضواحي في المدينة توجبُ على ذويه من النفقات مالا يجب على أبناء المدينة .

فهو يحتاج إلى أجرٍ للذهابِ وأجرٍ للإياب ، وقد يحتاج إلى ثمنِ وجبةِ غداءٍ أيضاً .

ابتاعت «رتيبة» لـ«عبادة» بزّةً من أوسط مايلبس الناس ، وأعدت له مايحتاج من كتب وأدوات وبعثت به إلى «دمشق» .

وانضم «عبادة» إلى هذا الحشد الكبير من طلاب المدرسة ، وامتزج بهم منذ الأسبوع الأول كما يمتزج الماء بالماء .

فلم يكن «عبادة» يعاني من عقد النقص التي يعاني منها أبناء الأرياف حين يُكْتبُ عليهم أن يعيشوا في مجتمع من مجتمعات المدينة .

إذ كان له من قوة الشخصية ، وتوقد الذّهْن ، وعذوبة الحديث ، وخفّة الظل، وبهاء الطلعة ، مايفتح له القلوب ويفسح أمامه المجالس .

وكان له من رجولته المبكرة واعتداده بنفسه ، واعتزازه بمنبته ، وصراحته في الكشف عن وسائل حياته مازاده رِفْعَةً في نفوس رفاقه ، وماجنبه أن يحيا بينهم بشخصيتين اثنتين : إحْداهما كاذبةٌ زائفةٌ والأخرى واقعية حقيقية .

فلقد استطاع أن يُثْبِتَ في أذهان رفاقه أنه فقير ولَكِنَّهُ أبِيٌّ أنوفٌ .

وأن أسرته لاتملك بُستْانا أو حقلاً ولكنها تملك مروءةً تدفعها إلى العَمَلِ والكَسْبِ ، وعزّةً تكفُّها عن التطلع إلى ما في أيدي الناس .

وأنه وُلِدَ من أبوين فلاحين ولكنِهّما أبوان شريفان ، ومواطنان صالحان .

فأحبه رفاقُه ، وتنافسوا في التقرب منه ، والتَّوددِ إليه .

واعتز به أبناء الريف واتخذوه لأنفسهم مثلا وكانوا يلقبونه بـ « سلَيلِ المجاهدّين وابنِ البَطَلَيْن » .

* * *

لم يتحْ لـ«عبادة» أن يرى الفرنسيين عن قرب قبل التحاقه بمدرسة «دمشقَ» على الرغم مما كان يعرفه من أخبارهم وحوادثهم .

فسكان «الغوطة» كانوا لايفترون عن ذكْرِهم أبداً .

فهذا الغلام ولد يوم أحْرَقَ الفرنسيون « الأشْرَفِيَّة » .

وهذه المرأة تزوجت يوم دمَّر الفرنسيون « برّزةَ » .

وذلك الرجل توفي يوم داهم الفرنسيون « القابُون » .

حتى كاد سكان «الغوطة» يلْغون التاريخين الهجري والميلادي ويجعلون مما ارتكبه الفرنسيون على أرضهم من فظائع مبادئ جديدة للتاريخ .

حقّا إنه كان رأى بعضهم منذ ثلاث سنوات ، وكان يومئذ تلميذاً في المدرسة الابتدائية . وذلك حين داهموا « حرَستْا » وعسكروا فيها . وفرضوا عليها غَرامةً كان مقدارُها ألْفَ بَنْدقيَّة ، ومئة ألف طلقة ، بحجة أن سِلْكاً من أسلاك الهاتف المارّة « بحَرَستْا » قَدْ قُطع ، وأن قطعه ذو دلالة خطيرة على حركة تمرد كبيرة . وأن ذلك يستوجب مثل هذه العقوبة وماهو أشد من هذه العقوبة .

وقد تهامس العارفون يومئذ بأن الذين قطعوا السلك هم الفرنسيون أنْفسُهم .

وهو لايزال يذكر كيف أوقفَت الدراسة في المدرسة آنذاك ، وكيف لزم الناس بيوتهم خوف بطش الجنود .. وكيف فُرضَ على كل رجل من سكان القرية أن يقدِّمَ بندقية عن نفسه . وبندقية عن كلّ من أفراد أسرته الذكور ، ومع كل بندقية مئةُ طَلْقَة .

وهو لايزال يذكر أيضاً كيف طولِبتَ أمه بأن تقدم بندقية عنه مع الطلقات المئة .

وأنها استدانت ثمنها من أكثرَ من جهة .

وكان يعجب يومئذ من أن يغرِّم الناسُ شيئاً لايملكونه .

وكان لايعرف الوسيلة للحصول على هذه البندقيات ، حتى سمع مَنْ حولَه يتهامسون بأن هناك رجالاً يعرضونها على الناس سرّا ، ويسومونهم بها ثمناً غالياً ، فلا يجدون بدّا من شرائها وتقديمها للفرنسيين في الأجل المضروب لدفع الأذى عن أنْفُسِهم وعما يملكون .

وقد دَهِشَ من هؤلاء الفرنسيين الذين يطالبون امرأة مثل أمه ببندقية ثم لاينالون هؤلاء الرجال الذين تكثر في حوزتهم البندقيات بسوء .

غير أنه مالبث أن علم أيضاً أن هؤلاء الرجال يأتون بالبندقيات من عند الفرنسيين أنفسهم فيبيعونها للناس ، ثم تُرَدُّ إليهم بعد ذلك مع أثمانها الفاحشة .

نعم إنه لم ير الفرنسيين إلا في تلك المرة التي لايزال يذكر أحداثها كما لو كانت تقع أمامه الساعةَ ولكنه رآهم من بعيد .

أما الآن فقد أصبح يراهم كلّ يوم صباحَ مساءَ ، ويراهم عن قرب أيضاً .

فقد كان فريق منهم يعسكر في أرضٍ فسيحة عند مدخل «دمشقَ» .

كان يمر بأحدهم فيقول :

لعل هذا هو الذي قتل أبي .

ثم يمر بآخرَ فيقول :

بل هذا الذي قتله ، فهو أكبر سنّاً وأشدُّ شراسةً .

ثم يمر بجماعة فيقول :

بل هؤلاء هم الذين قتلوا أبي ، لقد اشتركوا جميعاً في قتله ، لقد أطلقوا عليه الرصاص من رشاشاتهم دفعةً واحدةً فأصابته واحدةٌ منها .

ثم يلوي عنقه ويُشيح عنهم بوجهه .

الفصل الخامس والعشرون

لَمْ يُمْضِ «عُبادَةَ» في «دِمَشْق» منذ وطئتها قدماه أسبوعاً واحداً دون أن تقع في المدينة مظاهرة أو يحدث فيها إضرابٌ .

فلقد اتخذت الحركة الوطنية في البلاد شكلاً جماهيرياً جديداً ، وتكونت في «سورية» تشكيلاتٌ شعبيةٌ تغلغلت في المدن والقرى ، وتولى تنظيمها وقيادتها بقايا المجاهدين الذين لَمْ يَتَخَطَّفْهُمُ الموت في الثورات المتتابعة ، ولم يُشَرَّدوا في البلاد .

واعتبر الطلابُ أَنفُسَهُمْ طَلِيعَةَ هذا الشعب ، وأداتَه الجديدةَ للذود عن حرياته، والنضال دون حقوقه .

وكانت القيادة الشعبية لاتهدأ ولاتَمَلُّ ، ولاتُهادِنُ ولاتُهاوِدُ .

وكانت تَحرِص ماوسعها الحِرْص على دوام التظاهرات واستمرارها ، وتَتابُع الإضرابات وتوسيع نطاقها .

وكانت تبغي من ذلك ألاّ يغمضَ للعدو جفن ، وألا يطمئنَّ له جنب .

وكانت ترجو من ورائه أن تظل جذوةُ النضال متقدةً في نفوس المواطنين ، وأن تزداد نارُها المقدسةُ اشتعالاً .

وكانت تجد في ذلك وسيلةً لتعبئة الشعب وإعداده ليوم كبير ، وطريقةً تُعْلِن بها للعالم كلّه أن هذا الجزء من الوطن العربي سوف يبقى مجاهداً مابقي في بلاده أجنبيّ ، وسيظل متمرداً مالم ينل حريته ويحقق استقلاله .

وكان الطلاب ومن ورائهم الشعبُ يتظاهرون في كل مناسبة ، فإذا لم يجدوا مناسبة خلقوها خلقاً .

وكيف لاتوجد المناسبات والطغاة الغزاة يحتلون أرض الوطن ، ويَنتَهكُونَ حرُماته ، وينهبون خيراته ، ويعملون على إذلال بنيه وإفقارهم بجميع ماعَرَفَهُ الأجنبيُّ من وسائلَ ، وما أَتقنه المستعمر من طرائقَ .

وكانت هذه الإضراباتُ والتظاهراتُ تحتاج إلى وقود يُمِدُّها بالحياة ، وزيت يكفل لها دوام الاشتعال .

وكانت تجد وقودها في أولئك الذين يصرعهم الأجنبيُّ برصاصه ، أو يلقيهم في ظلمات سجونه ، أو يبعدهم عن البلاد .

فكان الناس يتظاهرون لمناسبة من المناسبات ، ثم يتظاهرون في اليوم التالي لما وقع في التّظاهرة من قتل وفتك وعدوان .

ولقد كشف هذا الأسلوب الجديد في مقاومة العدو عن أصالة هذا الشعب وتضامنه ، وأبْرَزَ خصالَه ومزاياه .

فلقد بلغ من شجاعته أنّه كان يخرج إلى الشوارع والميادين ليلقى العدو بصدره ؛ فيلقاه العدو بالدبابات ، ويرميه بحجارته ؛ فيقذفه بالقنابل ويصرخ في وجه العدو بصوته ؛ فيكون رجْعَ ذلك زئيرُ الطائرات وهديرُ المصفحات . ويجرح واحداً من جنوده فيكونُ جراءَ ذلك مئةٌ يصرعون من فتْيَتِه وفتياته ورجاله ونسائه وشيبه وشبابه .

وبلغ من تضامنه أنْ أضربت البلاد مرةً من أقصاها إلى أقصاها ستين يوماً كاملة بلياليها ، فأغلقت المتاجر والمعامل ، وعُطلت المدارس والمعاهد ، وأوقفتِ المواصلات والمبادلات وبَدَأَ الجوع يدب بين أبناء المدن .

فهب من في القرى يقاسمون إخونهم ممن في المدن ما ادخروه لعامهم من مؤونة ، ويشاطرونهم ماجنوه لعيالهم من قوت ، ويحملون إليهم ذلك على عين من العدو ، ويبذلونه لهم بذلا سخياً لايشوبه منٌ ولايكدره استجداء .

وكان «عبادة» يشارك في هذه التظاهرات ويقودها أحيانا ، ويبدي فيها هو ورفاقه من ضروب الشجاعة وصنوف الاستبسال مايملأ النفس إعجاباً بهؤلاء الفتيان الذين كانوا يتزاحمون على الموت كما يتزاحم الظِّماءُ على المورد العذب .

وكانت أمه تعرف ذلك كلّه وتقف عليه يوماً بعد يوم .

غير أنها لم تكن تَحُضُّه عليه أو تَذودُه عنه .

فـ«عُبادةُ» أصْبَحَ قادراً على أن يتصرف كما يتصرف الرجالُ ، ولايَصِحُّ أن يكون لأحد سبيلٌ عليه .

ولم تكن «رتيبة» على خطأ في ذلك ، فـ«عبادة» الذي نَضَجَ في جسمه نُضوجاً مبكراً كان قد نضج في عقله نضوجاً مبكراً أيضا .

ولاعَجَبَ في ذلك فالتجاربُ التي مرت به منذ نعومة أظفاره ، والأحداثُ التي رافقته في مراحل حياته ، والتربيةُ التي نشأته عليها أمه أعطته من الخبْراتِ مالم يُعطِ غيرُه من لداته ، ومنحته من القدرة مالم يُمْنَحْ أقرانه .

غير أنَّ «عُبَادَةَ» ، والصَّفْوَةَ المُخْتَارَةَ من رفاقه بدؤوا يتململون من هذا الأسلوب في الكفاح ويَتَشَكُّون في نتائجه وثمراته بعد أن أبْلَوا فيه أكبر البلاء ، وسلخوا في ميادينه سنَوات غاليةً من حياتهم المدرسية .

فهم مع إقرارهم بأن هذه التظاهرات والإضرابات تُضْرِم نار المقاومة في نفوس الشعب ولاتتيح للأجنبي المحتل أن يهدأ أو يطمئن ، فقد أصبحوا يرون أنها غدت أداةً للتنفيس عما يَضْطَرِم في صدور المواطنين من حقد على الأجنبي ونقمة .

وباتوا يَخْشَوْنَ ألاّ تحدث التعبئة النفسية التي تولّد الانْفجار وتصنع النصر .

ثم أخذوا يوقنون شيئا فشيئا بأن «فرنسا» التي احتلت البلاد بقوة السلاح لن تخرج منها إلا بقوة السلاح .

وأن هذه التظاهرات إذا صلُحَتْ لأن تكون قوتاً يومياً يُمِدُّ جذوة النضال بالحياة، فإنها لن تَصْلُحَ مُطْلقاً لأن تكون العاصِفَة التي تقتلع المحتلين من جذورهم وترمي بهم في البحر .

الفصل السادس والعشرون

رجع «عبادة» من «دمِشْقَ» ذاتَ مساء وهو يَحْمِلُ إلى أمه نبأ إعلان «ألمانيا» الحرب على «فرنسا» و«إنكلترا» وحلفائهما .

فتلقت «رتيبة» الخبر ساهمةً واجمةً ، وبدا عليها أنها لاتشارك «عُبادَةَ» في شعوره نحو هذه الحرب .

ولاعَجَبَ في ذلك فقد كانت تعلم من أمر الحرب مالا يَعْلَمُهُ «عُبَادَةُ» ، وتُدْرِكُ من شأنها مالا يدرك .

فهي قد شهدت الحرب العالمية الأولى ، وكانت آنذاك فتاةً لم تتزوج بعد ، ورأت كيف اكتوى الناس بنارها وعانَوْا من أهوالها ، وقاسَوْا مما حملته معها من فقر وبؤس وإذلال .

وهي لاتزال تذكر أباها - طيب الله ثراهُ - وكيف كان يَكْدَحُ سحابةَ يومه ، وطرفاً من ليله ، ليوَفر لها ولأخيها وأمها لقمة خشنة تسد رمقهم ، وتكُفُّهم عن سؤال الناس ، فلا يحصل لهم على ذلك إلا بشِقِّ النفس .

ولكن «عبادة» لم يكن يشارك أمه أيضاً في عواطفها نحو هذه الحرب .

فقد كان يشتهي أن يرى مصرع الباغي على يد من هو أشدُّ منه بغياً ، وأن يشهد مقتل الظالم بسيف من هو أكثر منه ظلماً ، ثم ليكن بعد ذلك مايكون .

وبدأت جيوش «ألمانيا» الهتلرية تدق أبواب العواصم الأوربية دقا ، وأخذ الجنديُّ الألماني ينقل خُطاه من بلد إلى آخرَ فتهتزُّ تحت وطأة أقدامه العروش وتتهاوى التيجان.

كان «عبادة» يعلم حقَّ العِلْم أن «ألمانيا» حين أعلنت الحرب على «فرنسا» إنما كانت تبغي من وراء ذلك أن تستخلص منها مستعمراتها ، وأن تضع يدها على ممتلكاتها .

وكان يوقن أن هذه الحرب إنما تدور بين الطغاة طمَعاً بأولئك المستضعَفين في الأرض . ورغبةً في أن يستبدَّ بهم ظالم دون ظالم .

ومع ذلك فقد كان يجد في هذه الحرب شفاءً لما في نفسه من غل .

فقد كان يُثْلِجُ صدره وصدر غيره من أبناء هذا الشعب أن تتصارع الذئاب ، وتتناوش ، وأن يمزق بعضُها أجسادَ بعض، وأن تُتَاح للقطيع فرصةٌ واحدةٌ في العمر ، يقف فيها من بعيد ليرقب المعركة بين مفْتَرِسيه وهو يرجو أن تطولَ وتشتدَّ .

وبادرت السلطات الفرنسية إلى إعلان الحكم العسكري في البلاد ، فأخْرَسَتِ الأصوات ، وأخمدت الأنفاس ، واعتقَلَتِ القادة ، وسلطت سيف البطش على رقاب الناس .

وكانت حُجَّتُها في ذلك أنها تريد أن تحمي ظهرها وظهر حلفائها من «الطابور الخامس» .

« والطابور الخامس » في عرف الفرنسيين هم أولئك المواطنُونَ الذين يُحِبون وطنهم ولايحبون «فرنسا» ، ويؤْثِرون أمتهم ولايؤثرون الحلفاء .

وأصبح ذكر « الألمان » جريمة تربو على الخيانة العظمى ، وإثماً يعرض صاحبه إلى صنوف من الأذى وألوان من الاضطهاد والتعذيب .

ومرت الأيام سراعاً واتجه الغولُ الألماني نحو «فرنسا» ، فاكتسح خطَّ دفاعها الأكبرَ كما تكتسح الأمواجُ العاتية كثيباً صغيراً من رمال الشاطئ ، وجعلت تتساقط مدُنها تحت ضرباته بأسرعَ مما تتساقط أوراق الخريف في يوم عاصف .

فطأطأ الفرنسيون رءوسهم خجلاً ، وطامنوا من كبريائهم مهانَةً وذلّةً ، وأخذوا هم وحلفاؤهم يستصرخون الدنيا أن تنصُرَهم في محنتهم ، ويستَجْدون الشعوب علّها تعينهم على عدوهم .

ويعلنون للملأ أنهم ماقاموا في وجه «ألمانيا» إلا ليدافعوا عن الحريات في العالم، ويكافحوا من أجل سلام البشرية وخيرها ، ويناضلوا في سبيل استقلال الشعوب وخلاصها .

وجعلوا يُصْدرون للشعوبِ المستعبدة وثائق الحرية وهم مُسْتَعْبَدونَ ، ويعلنون للشعوب حق تقرير المصير وهم مجهولو المصير .

وكانت «سورية» في جملة من اعترف «الفرنسيون» و«الإنكليز» باستقلالها في وقت معاً ، مع أن جيوشهما كانت تحتل أرضها وتأخذ بخناقها .

ورأت القيادة الوطنيةُ أن تغتنم هذا الظرف الدولي المواتيَ .

وألاّ تفوّت على البلاد فرصةً قد تندم البلاد على ضياَعها .

وأن تتبع في هذا الأمر مبدأ « خُذْ وطالب » .

فقام في البلاد أغرب استقلال وأعجبه :

مجلسٌ نيابي منتخبٌ .

وحكومةٌ شعبية وطنية . و«الفرنسيون» و«الإنجليز» يضعون أقدامهم في كل شبر من أرض الوطن .

الفصل السابع والعشرون

أجهدت هذه الحربُ «عَبادة» وأمه كما أجهدت الناس جميعاً .

ونالهما من قسوتها وبأسها ما أضْوَى الجسم ، وأذاب الشحم ، وتَعَرَّقَ العظم .

وغدا هذا النول شحيحاً ضنيناً بعد أن كان سَمْحاً سَخِيّاً ، فكأنه امرأة عقمت بعد طول إنجاب ، وأرض أجدبت بعد طول إخصاب .

وأصبحت «رتيبة» لاتجد اللُّحْمة والسَّدى إلاّ بالثمن الفاحش ، فإذا وقعت عليهما وحاكت العباءة لم تلق لها شارِياً .

فالناس قد انصرفوا عن الكساء إلى الغذاء ، لأن العُرْيَ قد يُحْتَمَلُ ولَكِنَّ الجوع لايرحم ، ولقد صح عند «عبادة» مارأته أمه منذ سنوات ثلاث : حيث قالت له يوم جاء يخبرها بإعلان الحرب : إن الحرب مهما تكن بعيدة عن أرضنا – يابني – فهي لابد من أن تَلْفَحَنا بنارها ، وتصيبنا بنقص في الأموال والثمرات فتنكشف أسرٌ مستورة ، وتَذِلَّ نفوسٌ أبية ، ويتُاحَ لجشعين من الناس أن يَمْلؤوا خزائنهم من المال الحرام ، وأن يضاعفوا ثرواتهم مما يغتصبونه من قوت الفقراء وكساء الضعفاء ودواء المرضى .

ومع هذا فلم يكن «عبادة» كارهاً لهذه الحرب أو آسفاً على وقوعها .

فهي قد طحنت «فرنسا» طحناً ألانَ قناتها ، وأذلّ كِبْرياءها ، وجَدَع مارِن[1] أَنْفِها ، ومَسَخَ طَواغيتها الكبارَ صعاليكَ صغاراً .

وجعلها تمد يدها إلى الشعوب المستضعفة تطلب منها العَوْنَ ، وتلتمس عندها التأييد ، وحملها على أن تُعْلِنَ وثيقة استقلال بلد كـ«سوريةَ» .

حقّاً إن هذا الاستقلال لايزال حتى اليوم مداداً على ورق ، ولَكِنّ إعلان وثيقته من قبل دولتين كبيرتين على مَلأ من الدنيا يتيح للشعب أن يَحول الوثيقة إلى حقيقة عندما يَصِحُّ عَزْمُه على ذلك .

وقد أخذ «عبادة» وأمه يجتازان مِحْنَةَ هذه الحرب بصبر وصمت ، فأصبحا يصيبان وجبة واحدةً في اليوم بدلاً من ثلاث ، وشرع هو يذهب إلى «دمشق» ماشياً ويعود منها ماشياً على الرغم من بعد الطريق .

ولم يتم لهما ذلك عن عزم سابق اتفقا عليه ، وإنما هي النفوسُ الكبيرة تعرف كيف تواجه أحداثَ الحياة .

فإذا مسَّها خيرٌ شكرت ، وإذا مسَّها ضرٌّ صَبَرَتْ .

في هذا الجو الكئيب المشحون بعواصف الحرب وويلاتها نال «عبادة» الشهادة الثانوية حيثُ عزّ على رفاقه نيلُها .

وكان يُظَن أن هذا البيتَ الصغيرَ الذي عاش سنين طوالاً يَرْقُبُ هذه الساعة سوف تغمره الفرحة وترقص بين جدرانه البهجة .

بيْدَ أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وإنما خيَّم على البيت كثير من القلق الواجم والتردد الساهِم ، والتَّطَلعِ إلى الغد المجهولِ المَخُوف .

---

(1) مارن الأنف : طرفه ، وجدع مارن أنفه : أذله .

ولعل هذا راجعٌ إلى أن نجاحِ «عبادة» في الشهادة الثانوية قد وضعه على مفترق الطرق ، فقد عزمت «رتيبة» منذ سنوات على أن تجعلَ من «عبادة» طبيباً تباهي به وتفاخر.

وعزم «عبادة» على أن يجعل من نفسه ضابطاً يتقن فن الموت ، أو مهندساً يجيد صناعة الحرب .

فقد كان يرى أن بلاده مادامت محتلّةً فهي بحاجة إلى رجال قتال أكثر من حاجتها إلى رجال رحمة .

وكان يعتقد أن مشكلة أمته لاتحَلُّ إلاّ بالقوة ، وأن القوةَ بحاجة إلى شباب يعرف وسائلها ، ويحسن استخدامها .

وكان يؤمن أنْ ليْسَ في استطاعة الحق الأعزل أن يجابه الباطل المسلح .

وقد جاءت هذه الحرب تؤيد اعتقاده ، وتؤكد إيمانه .

فالعالم كُلُّهُ صَفّقَ لـ«ألمانيا» ، لأنها كانت قوية ، واستهان بالحلفاء لأنهم كانوا ضعافاً .

و«فرنسا» لم تركع على قدميها إلا يوم وجدت نفسها أمام من هو أشَدُّ منها بأساً وأعظمُ قوةً .

كان ذلك منذ سنوات أما اليوم فقد وجدت «رتيبة» أنّه ليَسَ في وسعها أن تحقق لـ«عبادة» شيئاً مما أرادت بسبب هذه الأزمة الآخذةَ بالخناق .

ووجد «عبادة» أنّه ليَس في وسعه أن يحقق لنفسه شيئاً مما أراد بعد أن رأى الفرنسيين يوصدون أبواب الكلية العسكرية في وجوه المواطنين الذين يَشُكّونَ في ولائهم لهم ، ويَخْشَوْنَ انتقاضَهم عليهم .

ويفتحونها واسعةً رَحْبَةً أمام أبناء المستوطنين .

الفصل الثامن والعشرون

كانت الحكومة الوطنية التي قامت في البلاد إثرَ إعلان الاستقلال مغلولةَ اليدِ مشلولَة القدرة .

فقد كان في يدها الحُكْمُ وفي يد «فرنسا» الجيّشُ ، وكان من حقها الأمرُ وعند الأجنبي القوة التي يتم بها التنفيذ .

وقد بات لِزاماً عليها أن تتخلص من هذا التناقض وأن تُكَوّنَ لنَفْسها نواةَ قوة وطنية تحفظ هيبة الدولة وتصون أمن الشعب ، وتقف في وجه العدو حين يكشر العدو عن نابه .

وفتحت الحكومة باب التطوع للبذل والفداء ، فأُقبل عليها الشباب يتزاحمون بالمناكب ، ويتدافعون بالأكُف . وكان «عبادة» في الطليعة .

فقد وجد في ذلك مايحقق بعض مُبْتَغاهُ . وبادر المُخْتَصُّون إلى هؤلاء الشباب يدربونهم على فنون القتال ، ويُمَرِّسُونَهم باستعمال السلاح ، ويُعِدُّونَهم لليوم الموعود .

وبرز «عبادة» بين رفاقه فتى موفورَ الشباب ، قويَّ المراسِ ، ذكيَّ الفؤاد . وشهرت شخصيته القياديَّة الحازِمة ، وبدت قدراته الغنية الكامنة . فدان له رفاقه بالحب ، وانعطف عليه رؤساؤه بالتقدير ، وجعلوا يُعَوِّلُونَ عليه في كبير الأمور ، ويرجونه لعظيم الحوادث .

وكان «عبادة» يزور « حَرَستا » مرة في الأسبوع أو مرتين وهو يرتدي بزّته العسكريةَ الزاهيةَ فتزيد شبابَهُ المورقَ جمالا ، وفتّاءهُ المُتألقَ روعة وبهاءً ، وكانت تراه «رتيبة» فيأخذها الزّهْوُ بأنها استطاعت أن تنجب كل هذا الشباب ، وتَسْمعهُ يتحدث عن أمته وبلاده في حرارة وتدفق فتَطْربُ لأنها استطاعت أن تَهَبَ الوطن كل هذه الطّاقةِ الخيِّرة.

ويرى أهلُ القرية تواضع «عبادة» ومروءتَهَ ورجولته فيقولون :

« ابنُ البَطَلَيْن ، وسليلُ المُجاهديْن » .

* * *

رَجُحَتْ كفة الحلفاء في ميادين القتال فبادرت «فرنسا» إلى التخلص مما التزمت به تجاه «سورية» في ساعات المحنة ، فعبثت بالعهود ، وحَنَثَتْ بالوعود ، وتنكّرت للاستقلال ، ولبست للشعب وحكومته جِلْدَ النَّمِرِ .

ووضعت الحربُ العالمية أوْزَارها ، وأقرّت هيئة الأمم استقلال «سورية» وجلاء الجيوش الأجنبية عن أرضها ، فنبذت «فرنسا» القرار وراءَ ظَهرها وعزمت على إخضاع الحكومة الوطنية لمشيئتها وحملها على قبول معاهدة تَسْلُبُ البلاد استقلالها وإرغام «المجلس النيابي» على إقرارِ ذلك .

فثارت حفيظة الشعب ، وهاجت ثاراتُه ، وباتت البلاد تعيش على فَوْهَةِ بركان .

وأخذت السيوفُ تتململُ في الأغماد ، والبندقيات تُحْشَى بالرصاص ، ونُذُر الثورة تطل من كل مكان .

وانقطع عبادة عن زيارة أمه في «حَرَسْتا» ، ورابط في مركز القيادة لايبرحه إلا لحادث كبير ، أو عمل يؤمر به فيؤديه .

واشتد حنين «رتيبة» إلى «عُبادَة» ، فتعللت بسبب تزور من أجله «دمَشْقَ» ولم يكن بها من حاجة إلى القدوم لولا نوازعُ الشّوْقِ .

دخلت «رتيبة» مركز القيادة على استحياء ، ومرت بالباحة الكُبرى التي كان يتدرب فيها الشبان على قتال الشوارع ، ويُعدّون أنفسهم ليوم الكَريهةَ فلم يلتفت إليها أحدٌ منهم ، ولم يَحْفِلْ بها أحد .

ولو أنهم عرفوا هذه المرأة وماتحمل على كاهلها من غبار المعارك وماتزيّنُ به صدرها من أوسمة المجد لكان لهم معها شأن آخرٌ .

ووصلت «رتيبة» إلى حُجْرَة «عبادة» ، فهب الضابط الصغير يلثم اليدَ الكريمة، ويرحب بالوافد الغالي ، ويستفسر عن الجيران والصحب وبخاصة « أم الخير » .

لم تسأل «رتيبة» «عبادة» عن سبب انقطاعه عن «حَرَسْتا» فقد كانت تعلم من أمره مايغنيها عن السؤال .

وبيّنَا هما كذلك إذ دخل أحد الجنود مسرعاً وهم بالحديث قبل أن يؤدي التحية ، ثم حانت منه التفاتة فرأى «رتيبة» في الحجرة فما لبث أن قال موجهاً حديثه إلى «عبادة» :

سيدي الضابط لَديَّ خبرٌ هامٌ فهل تأذنون لي بأن أنْفَرِدَ بكم لحَظَاتٍ لأُدْلِيَ إليكم به .

فقامت «رتيبةُ» تفسح المجالَ ، وهي تحيِّي وتودع ، فقال لها «عبادة» : بل

ولما خرجت «رتيبة» ، قال الجُندي :

لقد وقع في يدي هذا الأمْرُ العسكَرِيُّ الخطيرُ ، لقد ساقه إليّ القدر سوقا .

ومد يده وناول «عبادة» ورقة مطوية .

ومـا كـادت تقع عينُ «عبُادةَ» على السطر الأول منهـا حتى عَرَتْهُ الدَّهْشَةُ ، وجعل يلتهم الكلمات التهاماً ، ويثب ببصره بين السطور وثْباً .

ثم أعاد قراءتها ثانية :

« أيها الضباط والجنود ، أيها العاملون تحت الراية الفرنسية .

بعد الانتصار العظيم الذي أحرزته جيوشُنا المُظَفرَةُ ، وحررت به ربوع وطننا المقدس .

وبعد التضحيات السخية التي قدمها شعبنا الباسل من أجل حريته وحرية الشعوب الصغيرة المستضعفة ، رأت «فرنسا» تمشياً مع تقاليدها أن تواصل خِدمْةَ «سورية» في المستقبل كما خدمتها في الماضي .

فرغبت في أن تتعاقد معها ، وأن تمد لها يَدَ العَوْنِ وألاّ تتركها تقف وحدَها في هذا المعترك الدولي ، فتغدوَ لقمةً في فم الطامعين .

من أجل ذلك عرضت على الحكومة «السورية» شروطاً سخيةً لمعاهدة تُوَقَّعُ بين الطرفين فأبت هذه الحكومةُ أن تقبل بها ، ورفضت أن تُذْعِنَ لها .

ولما كانت الأزمة قد بدأت تستفحل أرى من واجبي أن أطالِبكُمْ بالمحافظة على شرف «فرنسا» وأن أحذرَكُم من أنّ أيّ مخالفة للأوامر التالية تعرض صاحبها لأشد العقوبات :

١ – يُحتِّمُ عليكم الواجبُ العسكريُّ أن تبيدوا من غير رحمة جميع قوى الحكومة «السورية» التى تريد أن تُخْرِجَ «فرنسا» من البلاد .

٢ – وأن تكون قواتكم كلها متأهبةً ليل نهارَ ، لتنفيذ مايُلْقى إليها ، وأن تُهْمِلوا الأوامر الهاتفية والشّفوية ، وأن تتقيدوا بالأوامر المكتوبة خوْفَ الخديعة .

٣ – وأن تتجه الكتيبتان الأولى والثانيةُ في اللّحظاتِ المُحَدَّدَةِ في البيان المرافق لاحتلال دور الحكومة والمؤسسات العامة وبخاصة المؤسسات الثقافية التي ينبعث منها الشّعبُ .

٤ – وأن تتجه الكتيبتان الثالثةُ والرابعةُ لاحتلال القصر الجمهوري وبيوت الوزراء .

٥ – وأن تتجه الكتيبتان الخامسةُ والسادسةُ لاحتلال مجلس النواب حيث تؤازرهما في ذلك المصفحات والدبابات .

٦ – وأن تقطعوا اتصال الشعب «السوري» بالبلاد العربية المجاورة .

٧ – وأن يُلْقِيَ السلاح الجوي القنابل المحرقة على أماكن تجمع الشعب وبخاصة المساجد والمدارس .

٨ – وبعد أن تتم هـذه العمليات تُعْطَي الإشـارة للقوات العـامة المرابطة في « المِزّة » لاحتلال المدينة احتلالاً عسكريا تامّاً .

٩ – هذا وإن المتطوعين العَرَبَ في جيش «فرنسا» لايمكن الاعتماد عليهم والاطمئنان إلى ولائهم .

١٠ – على قواد الفرق تنفيذ هذه الأوامِرِ مع العلم أنه أُرْسِلَتْ أوامِرُ مماثلةٌ إلى باقي المدن «السورية» ليكون العمل منظّماً موحّدا ولتعش «فرنسا» .

رفع «عبادة» الأمر إلى رؤسائه ، فأعدت له القيادة كل ماتَمْلكُ من قوة ، وقسمت جندها على الأماكن التي حددها الفرنسيون في أمرهم العسكري ، وزودتهم بالتعليمات المناسبة وأمدتهم بكل مالديها من ذخيرة وسلاح .

وسرى الخبر في البلاد كما تسري النار في الهشيم ؛ فقد عمدت الحكومة إلى إذاعته بمختلف الوسائل لتَسْتَنْفِر الشعب إلى لقاء عدوه قبل أن يَفْجَأهُ العدوُّ بما بيَّتَ له .

نَسِيَ «عُبادة» أن أمه لاتزال تنتظره في الغرفة المجاورة فقد أذهله الخطب عن نفسه وعن أمه .

غير أن «رتيبة» لم تتحرك من مكانها ولم تتململ ، فقد أدركت من بعض ما وصل إلى سمعها من كلام أن أمراً كبيراً يوشِكُ أن يَقَعَ ، وأن خطباً جسيماً يقارب أن يُلِمَّ .

وذهب «عبادة» إلى الحجرة المجاورة يخبر أمه بالخبر ، ويُفْضي إليها أنه كُلف مع رجاله الخمسة والثمانين حماية مجلس النواب ، والدفاع عنه .

ثم أكبَّ على يديها يلثمهما ، ويضمهما إلى صدره ، وهو يقول : لاتَخْشَيْ عليّ شيئاً يا أماه ، فرجالي فتية أشداء أولو بأس .

وأنا سأكون جديراً بالانتماء إليك إن شاء الله .

من أجل هذا ربيتني يا أماه ، ولمثل هذا اليوم أعددتني .

فلم تزد «رتيبة» على أن قالت :

صحبتك السلامة يا«عبُادة» وحقق الله على يَدَيْكَ ويدي رفاقك الخير . ولْيَكُنْ الله معك ومعهم يابني .

ثم مضت وهي عازمة على أن تبيت الليلة في «دِمَشْق» لتكون أقرب إلى «عبادة» ، وأدنى إلى المعركة .

كانت الساعة تقارب الثالثة بعد الظهر حين توجه «عبادة» برجاله إلى «مجلس النواب» ، وهم يعلمون أنَّ الموعد الذي حدده العدو لمداهمته يبدأ مع صبح الغد .

غير أنهم آثروا أن يُمْضوا ليلتهم فيه ، وأن يتعرفوا على مداخله ومخارجه ، وأن يقفوا على كل مايمكنهم من الذود عنه قبل أنْ يُصابحوا عدوهم على أبوابه .

ومجلس النواب هذا صَرْحٌ سكب فيه البنَّاءون الدمشقيون عُصارة ما وعوه من فن البناء . وأضفى عليه المزخرفون أجمل ماحفلت به قصور «دمشق» من تزويق وتنميق .

وهو يقوم على رقعة فسيحة من حي «الصالحية» ، وتحيط به من جوانبه الثلاثة حديقة غناء ، أهدت إليها «دِمَشْق» أجْمَلَ عطايا نيسان ، وحبَتْها «الغوطة» بأروع باسقاتِ الأشجار . أما الجانب الرابع فهو يطل على الشارع العامر ، «شارع الصالحية» .

وكان يقوم في قُبالَةِ «المجلس النيابي» بناءٌ كبيرٌ قديمٌ اتخذته القيادةُ الفرنسية مقرًا لها . ولم يكن يفصل بين البناءين إلا عَرْضُ الشارع .

فهما بناءان يتقابلان كما يتقابل الحقُّ والباطلُ .

على باب أحَدهما حارسٌ مجلوبٌ من آخر الدنيا ليَحْمِيَ حمى «فرنسا» ، وعلى باب الآخر فلْذَةٌ من كبد هذه الأمة يحمي حماها ويذود عنها .

الفصل التاسع والعشرون

أشارت الساعة إلى السابعة مساء ، وبدأت طلائع الظلام تصطرع مع أضواء المصابيح التي أُوقِدَتْ منذ قليل ، واصطفت ثُلّةٌ من الجنود الفرنسيين أمام مبنى القيادة تحيي العلم الفرنسي قبل إنْزاله كما كانت تفعل كلَّ مساء .

ونظر الجنود فرَأَوْا سبْعَةً من حُماة المجلس يقفون ببابه وِقفَةَ المتفرج دون أن يشاركوهم في تحية هذا العلم الذي يُحيُّون .

فأثار ذلك في نفوسهم كوامن الغيظ من هؤلاء الذين شقُّوا العصا ، وشبّوا عن الطّوْق ، ومدوا أيديهم إلى مدافعهم الرشاشة فحصدوهم برصاصها كما يحصد المنْجِلَ المسنون سبع سنابل .

وقبل أن يستبين للذين هم في داخل المجلس ماألَم ببابه كان الفرنسيون قد قطعوا عن المجلس وماحوله النورَ فغرق في ظلام دامس ، واجتثوا أسلاك الهاتف فعزلوه عن المدينة ، وطوقوه بالدبابات فأحكموا حوله الطوق ، وحاصروه بالمصفحات فشدوا عليه الحصار ، وتدفق جنودهم من القيادة ليخوضوا مع حُماته معركةً غير متكافئة ، تُصارِعُ فيها القلةُ الكثرةَ ، وتُقابل البندقيات الدبابات ، ويواجه الشرفُ الغَدْرَ واللؤم .

ودخل الجنود الفرنسيون من أبواب المجلس ونوافذه وفي أيديهم المصابيح الكهربائية ، يسلطونها على العيون فتَعْشَى ، والقذائف اليدوية يرمون بها المجاهدين فيخرون صرْعَى ، والمدافع الرشاشة يحصدون بها الأبطال حصدا .

ودارت بين الفريقين رحى معركة رهيبة ضروس ماعرف تاريخ الغابات أشدّ منها وحشية وقسوة ، فهذان شابان من حماة المجلس ، نَفِدَ ما في حوزتهما من ذخيرة فوقعا في قبضة جند العدو ، وطُلِبَ منهما أن يحييا العلم الفرنسي فلما أبيا أن يفعلاما أمرا به بَقَرَ الجندُ بطنَيْهما بالأسنّة فانْدَلَقَتْ أحشاؤهما على الأرض ، وقَطّعوا أوصالهما بالمُدى فتناثرت تحت الأقدام ثم أجهزوا عليهما بالرصاص .

وهذا بطل آخرُ تكاثر عليه الجند فأسروه وطلبوا منه أن يحيّيَ «فرنسا» فحيا «سورية» .

فدق واحدٌ منهم عُنُقَه بساطور دقّةً فصلت الرّأس عن الجسد ، وجعلت الدّمُ يشَخُبُ من أوداجه فمشى الشهيد خطوتين من غير رأس ثم خر صريعاً على الأرض يسبح في دمائه .

وحاول «عبادة» أن ينقذ الموقف بعمل جريء يائس ، فتسور جدار قاعة المجلس ، وحاول أن يبلّغ إحدى نوافذه القريبة من السقّف علّه يستطيع أن يُلْقِيَ منها بنفسه فوق جنود العدو الذين كانوا يسدون الباب في وجوه المجاهدين ويحولون دونهم ودون الخروج ، فما لبث أن عاجلته رصاصة استقرت في جنبه ، وهوى النّسْرُ على الأرض رافع الرأس مبسوط الجناح والدم الزكي ينبثق من جسده بغزارة .

واستمرت المعركة لاهبة الضّرِم حامية الوطيس ست ساعات . وانتهت بمصرع الذادة عن المجلس جميعا .

وذَوَي في ساعات قليلة خمسةٌ وثمانون غُصْناً من أنضر غُصون الأمة ، وأغمد خمسة وثمانون سيفاً من أشد سيوفها مضاءً .

وجاءت السيارات الفرنسية على عجل وأخذت الجثث والأشلاء وانطلقت بها إلى « المزّة » إحدى ضواحي «دمشق» .

وهناك ألقاها الجنود في حفرة عميقة وأهالوا عليها التراب والحصى والحجارة.

الفصل الثلاثون

﴿ قل اللّهم مـالكَ المُلك ، تُؤتي المُلْكَ مَنْ تشاءُ ، وتنزِعُ المُلْكَ ممّنْ تشاءُ ، وتُعِزُّ مَنْ تشاءُ ، وتُذِلُّ مَنْ تشاءُ بيَدِكَ الخيْرُ ، إنّك على كُلِّ شيٍ قَديرٌ ﴾ .

«صدق الله العظيم»

لم تنم «سوريةُ» ليلةَ العُدوان على المجلس النيابي .

بيد أنها لمْ تبِتْ يقظى بِسببِه ، فَهِيَ لَمْ تعرف خَبَرَهُ ولم تقف عليه إلا في صباح اليوم التالي .

ذلك بأن مجلس النواب يقع قبالة القيادة الفرنسية وهي منطقة كان يتحاشى الناس أن يمروا بها في ليل ، منذ أن وقعت الأزمة الأخيرة في البلاد .

أضف إلى ذلك أن الفـرنسـيين حين بيّتوا أمْرَهُم هذا بادروا إلى قطع النور والهاتف عن المجلس وماحولهَ ليفعلوا فَعْلَتَهُمْ في الظلام .

وإنما كانت يَقْظَةُ سوريةَ تأهباً للقاء العدو ، وقد كان موعِدَه الصبحُ .

وماكادت تبزغ الشمس حتى سرى في البلاد من أقصاها إلى أقصاها نبأ فتية المجلس .

فهبَّ كل مواطن في كل بقعةٍ من أرض الوطن ، وفي عيْنه دَمْعَةٌ تترقرق ، وفي قَلْبِهِ لَوعةٌ تتلظى ، وفي فؤاده حقد يتنزّى ، وبين جنبيه نارٌ تحرق الأخضر واليابس .

كان كلُّ مواطن يعتقد أن عليه وحده أن يثأرْ للفتية الخمسة والثمانين كلِّهم .

وأن عليه أن يثأر لهم بقسوة وعنف وضراوة ، فهم قد قتلوا بقسوة وعنف وضراوة .

ولولا أن المُثْلَةَ حرامٌ لمثّل بمن يقع في يده من جند العدو .

وفي ساعات قليلة أُضْرِمَتْ نار الحرب في كلّ كَفْر وقَرْيَةٍ ومدينة ، فنُسِفت الجسور ، وعُطِّلَت الطُرقُ ، وسُدَّتْ المعابر ، وقُطِّعَتْ أسلاك الهاتف فما كان للمواطنين حاجةٌ في شيءٍ من ذلك .

ولقد اتخذت الثورة لنفسها هذه المرةَ شعارات جديدةً ، وكانت هذه الشعارات تقولُ :

– على كل منطقة مهما صَغُرت أن تحرر نفسها بنفسها ، فليس لدى الحكومة ولا لدى المناطق الأخرى فَضْلٌ من قوة تزيد عن حاجتها .

– ليس لمواطن أن يتريّثَ في المبادرة إلى الجهاد حتى يَمْلِكَ السلاحَ . وإنما عليه أن يحارب بِيَدَيهِ أولاً ليحصل على السلاح ، ثم يحارب بعد ذلك بالسلاح .

– في كل منطقة من العدو مايكفي تلك المنطقة ، فلا تظنَّنَّ أنَّ ماعندِكَ من جند العدو أكثرُ مما لدى الآخرين .

– إنْ تُخْفِقْ هذه الحركة ، فَلَنْ تقومَ لهذا الوطن قائمةٌ بعد اليوم .

وانطلقت حركة الجهاد مضطرمةً كالبركان ، كاسحةً كالسيل ، مُدَمِّرةً كالعواصف .

وجَعَلَتْ معاقلُ الفرنسيين تهوي وقلاعهم تسقط ودماؤُهم تسيل .

أرأيت إلى شجرة نَخرَة ، أكَلَ دودُ الأرض جذورَها ، وأحرق وَقْدُ الصيف أغصانها ، وامتصّتْ شمسُ الخريف حياتها . ثم عصفت بها بعد ذلك عواصف الشتاء فاجْتَثّتها من الأرض وألقت بها في واد سحيق ؟

هكذا كانت فرنسا حين عصفت بها نار الجهاد المقدس .

ورأى «الإنكليزُ» حلفاءَهم تسيل دماؤهم الزُّرق في شوارع بلد صغير من بلاد الشرق ، ويقعُ رجالهم أسرى في أيدي المجاهدين ، فَتصفَعُ وجوهَهم وأقفيتَهم بأيْدٍ عربية كانت إلى أيام قريبةٍ مغلولَةً . فعزموا على أن يقوهم هذه الكارثة ، وأنْ يجنبوهم هذا الذلّ ، ونزلوا بدباباتهم ومصفحاتهم ومدافعهم إلى الشوارع والميادين ، وحالوا بين الشعب والفرنسيين ، وأعلنوا أنهم سيجلون وإياهم عن البلاد ، وأنهم يريدون أن يضعوا حدًّا لهذه المجزرة الرهيبة .

فاعتقلوا الفرنسيين في الحصون ، واحتجزوهم في المعسكرات ، وحموْهُمْ من القتل . ولكنهم لم يحموهم من أنْ يُبْصَقَ في وجوههم أوْ يُصْفَعوا على أقفيتهم.

وانجلت المعركة عن هذا النصر المبين المؤزر .

وجلا الفرنسيون عن مركز القيادة الذي كان يطاول المجلس النيابي .

وتوافد آباءُ الشهداء وأمهاتُهم وذووهم على المجلس النيابي يسائلون أحجارَه المُلَطَّخَةَ بالدماء عن شهدائهم .

وجاءت «رتيبة» تطوف بالأطلال تسائلها عن «عبادة» ، وتبحث في الرماد والتراب علّها تجد شِلْواً[1] من أشلائه فلم تجبها الأطلال ولم يسعفها الرماد والتراب.

وتولت عن المكان وهي تقول :

حنانيك يارب .

أيكون أولُ شهيد تقدمه البلاد بين يدي «فرنسا» من بيتي ويكون من بيتي آخرُ شهيد أيضا .

حنانيك يارب .

لم تُتِحْ لي فيما مضى أن أشهدَ دفن «أبي عبادة» ، فقد وُسد الثرى وأنا بين الموت والحياة .

ولم تُتِح لي اليومَ أنْ أشْهَدَ دَفْنَ «عبادة» أيضاً ولا أن أعرف مثْواه .

كنت أحبُّ هذا الوَطنَ لأنّه وطني واليومَ أحبه لذلك ، ولأن «عبادة» و«أبا عبادة» قد ثويا في ربوعه .

وسارت «رتيبةُ» مُيَمِّمَةً وجهَهَا شَطْرَ « حَرَستا » وقد احتسبت عند الله «عبادة» كما احتسبت من قبله أباه .

***

وصلت «رتيبة» إلى « حرستا » فتقاطر كُلّ من في القرية على بيتها الصغير يعزي الأمَّ العظيمةَ بالشهيدِ العظيم .

---

(١) الشلو : العضو .

ووقف الشباب من لدَاتِ «عبادة» يسألون المجاهدة الثَّاكِلَةَ أنْ تُشرَفَهم بقبولِهم أبناء لها بعد أن فقدت أخاهم «عبادة» .

ولم تملك النسوة من جارات «رتيبة» أنفسهن ، فجعلن يندبن الفتى الشهيد ويبكين شبابه ورجولته ومروءاته .

وفيما هم كذلك إذ شَقّ الصفوف شابٌ قد شُدَّ على رأسه ضماد وهو يقول:

بشراك ياخالة .

بشراكم جميعا . فأخي عبادة حي .

لقد رأيته في مشفى دمشق فكدت أصعق ..

لقد كنت أعرف أنه ..

لقد أرسلني إلى هنا لأخبركم بأنه حيٌّ .

فأجهَشَتْ «رتيبةُ» بالبكاء ، وسارت تحث الخطى إلى «دمشق» .. إلى المشفى.

ومعها رهط كبير من الناس .

* * *

وفي مَشْفَى دمشقَ سُمِحَ «الأمّ عبادة» وحدَها أن تدخل غرفة «عبادة» ، فهو لايزال يعاني من آثار النّزْف .

وفُتح لها باب الحجرة فرأت وحيدها مُمَدّداً على السرير ، وعلى وجهه الشاحب ابتسامةٌ مارأت على محياه أعذب منها قط .

فأكبّتْ عليه تقبله وتبلل وجهَهُ وصدرَه بدموعها وهي لاتكاد تصدق عينيها .

وشاع في المدينة نبأ نجاة «عبادة» فاهتزت من أقصاها إلى أقصاها فرحاً به .

وعرف الناس أنه حين أطْلِقَ على «عبادة» الرصاص في المجلس خرَّ مَغْشياً عليه وفيه بقية من حُشاشة ، وقليل من دماء .

وأنه حين نقل الفرنسيون جثث الشهداء إلى « المزَّةِ » وأخذوا يُلْقونها في الحفرة وقع عبادة بين أمرين أحلاهما مُرٌّ .

فإذا هو استصرخ أوْ أنَّ أجهزوا عليه ، وإن هو سكت أَلْقَوْا به في الحفرة وأخمدوا أنفاسه بالتراب والحصى والحجارة .

فآثر رحمة الحجارة على رحمة الإنسان ، وتَلَبَّث ينتظر قدَرَه .

وأن الجُنْدَ حين أَلْقَوْا جُثَّتَه في الحفرة كانت قد امتلأت بأشلاء رفاقه الأربعة والثمانين ، وكان الإعياءُ قد أدركهم فضنوا عليه بما يستر جسده من التراب ، ومضَوْا عائدين إلى «دمشق» .

وأخذت الدماء تنزف من جرح «عبادة» بقوة وغزارة كأنَّها تريد أن تفتح في جسده طريقا يلج منه الموت .

فسد جرحه بإحدى يديه خشية أن تفيض منه روحه .

وأخذ يزحف بقدميه وبطنه ويده الأخرى شبرا بعد شبر وذراعا بعد ذراع حتى بلغ الطريق العام .

وهناك التقطه بعض السيَّارة ، ومضَوْا به مسرعين إلى مستشفى دمشق وهو بين الموت والحياة وإن كان إلى الموت أقرب .

سارت الأيامُ رَهْواً مع «أم عبادة» .

فقد عُوفِيَ «عبادة» من إصابته .

وهبت الريح رخاءً على أرض الوطن ، فعاد إلى البلاد المجاهدون الذين أخرجوا من ديارهم ، وحيل بينهم ذويهم زمنا طويلا .

وكان فيهم « الحاج » و « زكريا أفندي » .

وجعلت الجيوش الأجنبية تحث الخطى للرحيل عن «سوريةَ» بعد أن لم يبق لها في هذه الأرض العربية موضع .

وحدّدَ اليوم السابعَ عشرَ من نيسان ليكون موعداً لهذا الرحيل .

* * *

بوركت يا يوم السابعَ عشرَ من نيسان .

بورِكَ صُبْحُكَ الأبْلجُ الأغرُّ .

فقد طوى وراءه ليلاً كان يحسب القانطون أنْ ليس له آخر .

بوركتْ شمسُكَ الماتِعَةُ الرائعة .

فقد نسجت لهذا الوطن من خيوطها ثوباً ماأتّشَحَ الزمان بأبهى منه .

بوركت يا يوم السابعَ عشرَ من نيسان كما بورِكَ يومُ القادِسيةَ ويومُ حطِيّن .

لقد فتح الناس أعينهم فيك على حقيقة كانت أغنى من الحلْمِ وأخصبَ من الأمل .

وتألق مع سنا فجرك الوضاء نور ، أشرق في نفوس الشعب .

فمن أجلك أيها اليوم تدلت أعناق الشهداء من المشانق .

وفي سبيلك صَرِعَ الكُماةُ في المعارك .

كلُّ شجرة في «الغوطةِ» تعانقِ أختَها فرحاً بِكَ أيها اليوم ، وتَهْمِس في أذنها :

حيّ على المجد ، حيّ على المجد .

بهذا النشيد استقبل الشعب السابع عَشَرَ من نيسان .

وجلس المجاهدون وأولو السابقة في البذل والفداء يتصدَّرون الحَفْلَ ويشهدون الفرحة الكبرى التى تتألق في عيون الشعب ، ويرون البهجة العظمى وهي تلوح على قسماته .

وقد مرت أمامهم كتائب الجيش ومواكب الطلاب وجموع الأحياء ، وطفق الناس ينثرون على الموكب نَوْر نَيْسان ، وعِطْرَ نَيْسَان . وجمال نيسان .

وكان « الحاجُّ » و « زكريا أفندي » يجلسان إلى جوار «عبادة» و «أم عبادة» .

فنفرت من عينى « الحاج » دمعتان كبيرتان وهو يقول : ليت « هنانو » كانَ معنا فيشهدَ مانشهدُ ويسمعَ ما نسمعُ فقد أغمض عينيه وهو يتمنى هـذا اليوم ويرجوه.

وقالت «رتيبةُ» : ليت «أبا عبادة» كان حيًّا ليعلم أن الرصاصة الأولى التي أطْلِقَتْ في ميسلون لم تذهب سدى ،

وأن الصخرة التي تفتَّتِ اليومَ إنما تشكو ضربة المعوَل الأوَل .

دراسة حول الكتاب

يقع كتاب «أرض البطولات» في نحو مئتين وخمسين صفحة من القطع الصغير مطبوعة طبعاً أنيقاً جداً وبحروف مسبوكة على اللونيتيب، فتقرأ بسهولة لا تتعب العين .. وقد زين الكتاب ببعض الصور المعبرّة – الطبعة الأولى والثانية لدار المعارف ودار الشروق –وخريطة تبينّ مكان المعارك التي دارت بين الزعيم «إبراهيم هنانو» والفرنسيين ، فازداد وضوحاً وانسجاماً وتشويقاً .

وقد فصّل إلى ثلاثين مقالة غير متساوية تفاوتت تبعاً للحاجة الفنية التي أملت موضوعها . فبعضها لم يتجاوز صفحات بينما طال بعضها الآخر حتى أو في على عشرين صفحة . تحدث فيها الكاتب حديث القاصّ البارع بقصة جهاد سورية خلال ربع قرن منذ وطئت أقدام فرنسا الغادرة أرض الوطن حتى خرجت منه مذمومة مندحرة خاسرة . ولقد بنى القصة على وقائع وأحداث تاريخية مسجلة معروفة باسماء أشخاصها وأعمالهم كموقعة «ميسلون» و«الاربعين» .. و«يوسف العظمة» و«إبراهيم هنانو» و «أم عبادة» و«زكريا الداغستاني» وسواهم . ولم يسردها سرد الحكاية البسيطة بل زينّها بأشخاص خياليين اخترعهم ليتم بحديثهم الفجوات التاريخية ويربط بين حلقات السلسلة ، كان من أبرزهم «أبو عبادة» ، و«الحاج» بائع البيلون .

والقصة منسوجة نسجاً محكماً متلاحماً بأسلوب راق قوي برهن الذين يدعون بأن القصة لايمكن أن يتكامل لها الفن إلا إذا مزجت بالعامية !! برهنت لهم على أن الضعف الذي يدعون ليس في أصل اللغة بل في ضعفهم أنفسهم وعجزهم عن أن يتناولوا الموضوع باللغة الأصلية الرصينة . وضعف ثقافة القصاصين اللغوية تكاد تكون عامة في الناشئين المحدثين منهم . وقد أشار الكاتب نفسه في مقدمة كتابه إلى ذلك فقال : (وبعد فلقد كتبت هذه القصة بلغة فصحى ليكون

في ذلك بلاغ لأولئك الذين جعلوا يشيعون بين الناشئة أن هذا الفن من القول لا يسلس إلا للعامية ولا يؤدى إلا بها) .

ولقد استهدف من الكتاب تنبيه بعض العرب والمسلمين في خارج «سورية» إلى جهاد هذا الشعب جهاداً لم ينقطع خلال ربع قرن قاتل في السهول والجبال والبراري كما قاتل في الشوارع والمدن والقرى ودفع ضريبة غالية من دماء أبنائه وضحايا لاعدد لها في سبيل الحصول على استقلاله الذي لم يأخذه هيناً ليناً كما حازته بعض الشعوب، وأنه لاباءه وأنفته لايعتز إلا بسيفه . وكأنما كانت هذه الرواية رداً صريحاً على بعض من يزيفون التاريخ ويتلاعبون بقيم الشعوب ويمتهنون جهادها ويصغرونها ليكبروا على حسابها . وقد أشار المؤلف نفسه إلى ذلك فى مقدمته فقال : (هذه القصة جذوة من كفاح شعب . وقبسة من أمجاده ونبعة من بطولات كتبها شعبنا الصغير بشفرات السيوف وحبرها بزكي الدماء ... وإني لأرجو أن يكون هذا الكتاب لبنة في بناء كياننا العظيم ووسيلة لتعريف أبناء وطننا الكبير بالجهاد الأبي الصعب الذي اضطلع به إخوة لهم في «سورية» حتى حققوا استقلالهم) من هنا تتضح لنا معالم نفسية الكاتب وروحه الوطنية العالية . فهو يرمي إلى هدف هو توحيد الشعوب العربية و الاسلامية لتشكل قوة كبرى في وسط العالم تحمي مصالحها في كل مكان وتساعد على إرساء حضارة إنسانية راقية .

وأسلوب الكاتب رصين قوي التركيب متين التعبير متخير الألفاظ يكثر من الاقتباس ويدس الآية أو الحديث في جملته فلا تشعر بنبوّه وينثر البيت من الشعر بقدرة تخيل اليك أن ألفاظه من جملة تركيبه هو نفسه مثال ذلك قولك : (وسالت الشوارع بالناس) فهو مأخوذ من قول الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح .

وقوله : (وفيهم الريفي الذي يبري بظفره القلم، والحضري الذي يستخشن ملمس الخز..) فهو مأخوذ من قول المتنبي في كافور :

يستخشن الخزَّ حين يلبسه وكان يبري بظفره القلم

وقوله . (وتدافعوا إليه من المرتفعات كصخور حطها السيل من علٍ) فهو مأخوذ من قول أمرىء القيس في وصف حصانه :

كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علٍ

وقوله : (فتناول منها فاكهة وثمراً متاعاً لها ولمن حولها من سكان المدن والقرى ، فهو مأخوذ من قول القرآن الكريم : «متاعاً لكم ولأنعامكم» ..

وقوله : (وسعرت في «دمشق» نار وقودها الناس والحجارة ..) فهو مأخوذ من القرآن الكريم ..

ومثل ذلك كثير تراه مبثوثاً في الكتاب ، حيثما توجهت لقيته أمامك بارزاً واضحاً . ولعلّ للثقافة الدينية التي تلقاها الكاتب في مطلع حياته أثرها القوي في نفسه لاتجدها في ألفاظه واقتباسه من القرآن المجيد وحسبب بل تجدها واضحة في الصفات المميزة لشخصيات روايته فكلهم متدينون يتوضأون ويصلون ويسلكون سلوكاً طيباً نبيلاً . أما الفرنسيون فقوم طغاة غدارون كذابون لؤماء يسلكون سلوكاً شائناً يحط من كرامة الإنسان المتحضر المتمدن لأنهم لم يتأثروا بدين .

وفي الكاتب قدرة على تصوير المشاهد حتى لتكاد تلمسها لمساً ، يختار لها اللفظ المعبرّ الموحي فيبرزها فوق سطح الأسلوب العام. انظر إلى وصفه تهافت باعة الجرائد وتواثبهم في الشوارع وتراكضهم متدافعين حين يقول : «أخذوا يثبون على الأرض وثباً كأنما وضع في جيب كل منهم مئة ثعبان» .

وإلى وصفه معركة «ميسلون» واعتذاره اللبق لانكسارنا : (وانقض الصقور على الحديد والنار والتحمت الأجساد العارية بالدبابات تريد أن توقفها عن الزحف وعانقت السواعد المفتولة المدافع تود أن تسكتها عن الاطلاق وتهافت الغر الميامين على الموت تهافت الظماء على المورد العذب . ومضوا يستشهدون قافلة إثر قافلة حتى

امتلأت السفوح بجثث القتلى وأجساد الشهداء ، وازدحم جانبا الطريق بالأشلاء المبعثرة في غير انتظام وعبر الجيش الفرنسي الجرار منطقة «ميسلون» ودخل «دمشق» بعد أن دفع ثمن نصره هذا غالياً) ..

وكذلك هو لا يقلُّ في وصفه لخلجات النفس عن قدرته في وصف ما يرى وما يسمع وفي دقة ملاحظاته وتدوينيها حتى لكأنك تشهد حديث النفس أمامك وتسمعه . انظر إلى وصفه نفسية المجتمع الصغير في «حرستا» وهو يستمع إلى «الحاج» يحدثهم بانتصارات «هنانو» : هزت هذه الأنباء نفوس الناس جميعاً ولا سيما «رتيبة» وأخذوا يرددونها مرات ومرات فلا يملُّون روايتها ، ويتفننون كل مرة في تنميقها ما وسعهم التنميق وجعل الواحد يستمع إليها مثنى وثلاث ورباع وكأنه لم يسمعها من قبل» .

فدقة الملاحظة هذه من أكبر مميزات الكاتب في حسن عرضه . فـ«عبادة» مثلاً يصعد كل يوم إلى السطح المطل على الطريق التى تربط القرية بالعالم الخارجي يمدُّ بصره إلى الأمام ينتظر عودة بابا الذي طالت غيبته ... وحين يذهب إلى فراشة يأبى إلا أن ينيم حذاءه ومحفظته الجديدة معه في فراشة . وبناء البرلمان يتقابل مع بناء القيادة الفرنسية على جانبي الشارع كما يتقابل الحق مع الباطل ...

وإذا استعصى عليه الوصف في جملة واحدة أردفها بأختها وألحقها بثالثة ورابعة أحياناً حتى يستقيم له المعنى مصوراً كما يشاء . انظر إلى وصف «إبراهيم هنانو» فهو مثال لأسلوب الكاتب في كل دقائقه .. (وعرف الناس أن بطلاً في أول العقد الخامس من عمره قد أقض مضجعه أن تستباح مرابع بني أمية . وسهد جفنيه أن يستذل الأعزة من احفاد «صلاح الدين» . وأثار حفيظته أن تغدو مرابع النسور موطناً لبغاث الطير . وأن تصبح مرابض الأسود مراحاً للغربان . فقام ليدفع الغزاة عن الحمى ويصدُّ الطغاة عن العرين ويميط الأذى عن أرض الوطن الحبيب) .

وحظ الخيال في القصة موفور مع أنها قصة تاريخية ومع أنها أقرب إلى تكون مجموعة مقالات رائعة لوصف جهاد الوطن من أن تكون قصة فنية وإن توافرت لها العقد القصصية في كل أزمة . وأما العاطفة الوطنية فإنها تموج فيها موجاً وراء كل سطر تزينها العاطفة الدينية النبيلة البعيدة عن التعصب أشد البعد .. وبعد فما أحوج الجيل الصاعد إلى مثل هذا الكتاب يعرفه بماضيه القريب وجهاد آبائه الأقربين وفنائهم من أجل استقلاله وشقائهم من أجل راحته وموتهم في سبيله .

يا شهداء الوطن الحبيب غمركم الله بالرحمة والرضوان والسلام .

د. ممدوح حقي

الفهرس

الناشر

دار الأدب الإسلامي

ص.ب : ٣١١٠ ليماسول - قبرص

هاتف : ٣٦٧٤٠٠ - ٥ - ٣٥٧ فاكس ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧